

المحجّبة

جهاد بزّي

نوفل

رواية

المحجّبة

جهاد بَزّي

صدرت عام 2018 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: من مشروع تخرّج المصوّر اللبناني مروان طحطح، بعنوان La vie d'elles، ENSP، Arles.

تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
تحرير ومتابعة نشر: رنا حايك
طباعة: 53Dots

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-095-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-096-3

الاثنين 9699

الهواء يمرّ في شعري وعلى عنقي. الهواء الناعم المائل إلى البرودة الملائمة. العليل. الطريّ.

أنا ممدّدة الآن على كرسيّ خشبي أزرق. ساقاي مسترخيتان عاريتان تحت سماء نهار بلا غيوم. بلى. ربّما غيمة شفافة كالقطن. ونوارس قليلة تتقاطع دوائرها. لا يلمس جناح طير جناح طير آخر. ترقص.

من بعيد، تأتي موسيقى غيتار لا حزن فيها ولا فرح. مجرد موسيقى.

في كفّي كأس متعرّقة. فيها ليموناضة وثلج. يتلذذ عنقي بنقاط باردة تسقط من الكأس بين حين وآخر.

معدتي هادئة. لا تفكر كيف وصلتُ إلى هذا البيت. إنّه أبيض بنوافذ خشبية زرقاء مفتوحة، كي يمشي الهواء فيه حيث يشاء. أمضي نهاري على شرفته المربّعة الواسعة، في الشمس، بقميص أبيض طويل يكشف عن فخذيّ وعن كتفيّ وعن أعلى نهديّ. يطلّ البيت من تلّة على شاطئ صخري. أرى البحر.

هذا بيتي في الجزيرة اليونانية، وهو ليس ضيقاً. إنّه كبير وواسع وأثاثه قليل. لا أذكر متى انتقلت إليه وكيف اخترت الكنبة الصغيرة الصفراء والطاولة المدوّرة أمامها، واللوحة خلفها. لا أذكر من أين ابتعت السرير الذي من النحاس المطروق. ولا أعرف إن كنت أعيش فيه وحدي، أم مع عشيقي. لا. أعيش فيه وحدي. ولي أصدقاء يزورونني ونجلس على الشرفة ونأكل سلطة وفواكه ونشرب نبيذاً أبيض بارداً، ونثرثر ونضحك. على أطراف الشرفة ورود توليب وشتلات حبق. للشرفة عطرها. هي رائحة بحر طازج وحطب يحترق في مكان ما كي يُنضِج الخبز. تفوح رائحة شجر زيتون. أنا أعيش في هذا البيت. لا أسأل نفسي من أين آتي بالمال كي أضع على رأسي قبّعة القش وأرتدي فستاني الأحمر بزهوره الصفراء وأركب درّاجتي كلّ صباح وأجول على الدكاكين في الشارع المرصوف بالحجارة البركانية، لأشتري خبزاً ساخناً وجبنة وبندورة وعنباً وأعود إلى البيت. كيف، مع أنني لا أعمل؟ ليس مهمّاً. أعيش في البيت، لا أكبر، ولا أسمن، ولا أحكي، ولا أفكر. أحاول أن أفكر فيتردّد صوت غيتار بعيد في ذهني ويمنع التفكير عنّي. أنا أنسى الكلمات. محلّها ترقص نوتات الموسيقى.

عند المغيب، أنزل بدرّاجتي إلى الشاطئ. إنّها جناحاي. أفلت المقود وأفتح ذراعيّ واسعتين. تطير بي. الهواء. الهواء. أنساب في الماء. أحب طعم البحر في فمي. أتلذذ بالملوحة. السماء ورديّة. لا نوارس فيها. ربّما نورس واحدة ما زالت تتعلم الطيران. الغيمة الشقيّة تبدّل أشكالها. أعوم على ظهري. البحر يرفعني برفق إلى أعلى. سمكات صغيرة تلمس أسفل عنقي وساعدي وظهري ومؤخرتي وفخذيّ وتداعب ربلتي ساقيّ. أغمس أذنيّ في الماء، لأسمع صوت البحر. أغفو على وجه الماء. حين أفتح عينيّ، تكون السماء قد

امتلأت نجوماً. السمكات الصغيرة لم تعد تلاعبني. نامت. أشعر بوخزاتها على ظهري. هي تحلم.

«والله لسه حبيبي والله وحبيبي»... صوت عبد الحليم في أذنـيَ. باقٍ ساعة و43 دقيقة قبل أن تهبط يد الرحمة من السماء وتنتشلني إلى سيّارتي. يوم آخر في المعتقل. كل شيء على حاله عزيزتي. القشر في طلاء الجدار يشبه خريطة فرنسا. منصور هاتف زوجته مرّة واحدة ليسألها عن الغداء وتنحنح وسعل مراراً. في القميص نفسه لليوم التالي، البنّي الغامق. سامر مال مرّتين يساراً تلبية لسحر الموسيقى المجهولة التي تضجّ داخل سمّاعتيه العملاقتين. إلسي أجبرتنا على مشاهدة فيديو جديد، وشرحت لنا بصوتها الأجش، وضحكتها الفائضة، ما نراه معها على شاشتها: الشاب الضاحك بخدّيه المتورّدين، يوقع صاحبته الغافلة عنه، شبه العارية، في مقالب لا تحتاج إلى شرح، ما دام يدفع جسدها الرائع بكل خفة دم في النهر، أو يكسر بيضة نيئة في وجهها البهيّ.

أمّا جاكلين، مدام جاكلين، فمرّت بنا لدقيقتين كانتا كافيتين لتسميم جزء لا بأس به من فضاء الغرفة السيّئ الحظ الذي وقفت هيولاها فيه.

أكلت فيليه أووه فيش من مكدونالدز مع الفرايز والكولا. دخنت ثماني سجائر على بلكون المعتقل. قبلها اثنتين في البيت وواحدة في الطريق بين رأس النبع والصالومي. يكون المجموع 11. جميل. وشربت ثلاثة فناجين نيسكافيه. وهذا نهاري حتى الآن. اعذريني.

أحبّكِ كثيراً، ربّما. بوسات.

باي.

الاثنين...

في البيت. قبل انتصاف الليل بساعتين و23 دقيقة.

دعيني أخبرك ماذا فعلت البارحة.

أتيت من ضجر الضيعة المرير مباشرة إلى شقة حسن. وكدت أبدأ بخلع ثيابي وأنا أفتح الباب. كلما هربت من عطلة نهاية الأسبوع في الضيعة انتابتني تلك الرغبة الساحقة المريضة في التعرّي. كوّمت الثياب كلها على كرسيّ في غرفة النوم، وارتديت بيجامتي. جلسنا على الأرض أمام التلفزيون، ووضعنا صحن المجدّرة الحمراء وكبيس اللفت والفجل والبندورة والخبز المرقوق والزيتون. كله طازج من حقيبة المونة التي تنفخها إلهام بالملذات وتضعها في صندوق السيّارة، مطمئنة إلى أنني سآكلها كلها وحدي.

شربنا بيرة ألمازة، ثم أشعل سيجارة دخنّاها. أظنّ أنّ صوت أم كلثوم راح يتجلى بعد سحبتي الرابعة. مع نهاية السيجارة الثانية، وجدتني في ورطة. كلما قرّرت أن أطيّب للسيدة المهيبة الجانب بلونيها الأبيض والأسود في التلفزيون، توقفت طويلاً عند هذه الخلطة الحالمة من الفجل واللفت والمجدّرة والمرقوق في فمي. وبسبب سحر صديقتنا سعاد، استطعت تذوّق كل مكوّن وحده في فمي. وفكرت بأنّه يمكنني اختيار مكوّنين والتركيز على نتاج خلطتهما معاً من دون البقيّة، ثم إضافة مكوّن ثالث إليهما. رحت أغيب طويلاً في عملية التذوّق المعقدة هذه، أهيم في غمامتي التي ترتفع بي رويداً رويداً إلى أن يحين ذاك الضجيج العظيم في رأسي، ثم أفيق إلى صوت أم كلثوم فجأة: والمساء الذي تهادى إلينا، ثمّ أصغى والحب في مقلتينا...

وبينما أكاد أصرخ: الله يا ست، وفي منتصف محاولتي الفاشلة احتراماً لثومة، أجد شفتيْ حسن قريبتين، فآخذهما.

الله يا سلمى ما أطيب الحب بعد تدخين سعاد، وتحت ناظري كوكب الشرق.

حبيبي حسن. هل أحبّه؟ أعني، هل أحبّه مثلما تحبّ النساء الرجال؟ ما هو الحبّ في الأصل يا سلمى؟

رقيق حسن. هادئ. تذيبني الكآبة حين تعلو عينيه الحزينتين البنّيتين. يذيبني حين يميل بعنقه وينظر إليّ ويبتسم من طرف شفتيه. حبيبي وجهه المختبئ خلف شعره ولحيته. قنفذي الذي أموت في وجهه. لا أحبّ أسنانه التي لم تتفق في ما بينها على أن تكون صفاً واحداً، لكنّ شفتيه زهريّتان. يدخّن علبتين وما استطاع من سعاد في اليوم، وشفتاه زهريتان.. زهري غامق، لأكن صريحة. أحبّ ميله إلى الصمت. وأحبّ كيف ينام معي. أحبّ حين يغرق وجهه في عنقي. أحبّ جلده. أحبّ ملمس ظهره على صدري. أحبّ كيف يعانقني. كيف يلقي برأسه على كتفي. أحبّه.

أظنّني أحبّه. بعد 107 أيّام نحتفل بأربع سنوات معاً. ما زلت، أحياناً، أحسّ بالدفء نفسه في قلبي. ليس كما في الأيّام الأولى. ليس كما بعد القبل الأولى في ضبيّة. ليس كما أول مرّة نمنا معاً. ليس كما حين قلت له أول مرّة «بحبّك» وقال و«نحنا كمان». لكنني أحبّه.

«أحبّك الآن الآن أكثر». فتحت عينيّ على أم كلثوم ثانية. ليس بالضرورة على هذه العبارة بالذات، لكنّها طابت لي الآن وأنا أكتب. كنت نائمة فوقه. غفونا بينما نمارس الحب، على الأرض، بقربنا صحون طعام فارغة وأقواس خبز المرقوق التي أنزعها من الأرغفة لأنّني لا أحب خشونتها وقسوتها. في أرض المعركة، كنت نائمة فوقه. خدّي على صدره، كما في مسرحيّات شكسبير. كان نصفي السفلي الدنيء عارياً، ونصفي الفوقي النقيّ الطاهر بقميص

البيجاما المفتوح الأزرار. كان حسن عارياً. عرّيته بالكامل. لا أحب الثياب عليه.

لم يكن الحشيش قد غادرني تماماً بعد. وأحسست، في ما أحسست، بيد تقبض على قلبي وتعصره. «إبكي إذا بدك»، طلبت من ذاتي، لكن حسن استيقظ قبل أن أشرع بالبكاء، فقمنا إلى تتمّة يوم الأحد الذي بات فجأة مملاً بنحو لا يحتمل.

أنا نعست. رح روح نام. بوسات سلّوم.

الثلاثاء 9700

في ميشاز بانتظار حسن وريما.

أناي الآتية في المستقبل. أنا في مزاج طيّب للكتابة. كوب القهوة الأميركية الرائع هذا، أظنّه لن يفرغ ما دام ميشال يتفقده كل تسع دقائق تقريباً. دعيني أخبرك كيف أنتِ في هذه الساعة على سطح كوكب الأرض الذي كنت تعيشين فيه خلال الماضي قبل أن تغادري إلى حيث أنت. نعم. ما زلت ضجرة وملولة، لكن نضرة. وجهك على استدارته، وحاجباك الطويلان رفيعان مرسومان بمهارة. عيناك البنّيتان لا تلمعان، لكنّهما تؤدّيان مهمّتها في أن تكونا متسائلتين حين الحاجة. أنفك ما زال صدفتك الجينية السعيدة، كلما نظرت إليها في المرآة شكرت الطبيعة لأنّها اختارتها من جهة أبيك لا أخوالك وخالاتك. شفتاك حبّة كرز. طيّب. أكبر قليلاً من حبّة كرز. شفتاك كبيرتان مكتنزتان. اعترفي بأنّك تحبّين شفتيك المكتنزتين، وتحبّين كلمة مكتنز. أسنانك، حسناً، كيف أقولها، ليست مصدر سعادتك الأول بنفسك. لكن، مع كل التدخين والقهوة والكحول، من الجيد أنّها ما زالت تحافظ على بياض منطقي. لا تنظري إلى أظافرك. هذه ليست أظافر صبيّة في مقتبل ربيعها وزهر لوزها. أظفارك يتآكلها الندم

اليومي والكيبورد فتنزل تحت حافة جلد الأصابع. وأظافرك تشتهي لو تلوّنينها. لكنّك مازلت تجهلين التقنيّات المعقدة لوضع المكياج، وما زلت فخورة بأنّك لا تحتاجين إليه.

هذا ما تراه العيون. ما لا تراه، تحت حجابك الأزرق الغامق لهذا اليوم، شعر طال وبدأ مع حلول الربيع يختنق تحت وطأة الضغط اليومي الذي يحاول كبت حجمه كي لا يصير رأسك شمّامة. تلفّينه في كرة تثقل على عنقك الذي يميل إلى الأمام بسبب خجلك الفطري والتربية الغريبة التي شددت على الفتاة أن تضمّ ساقيها وتتناول الملعقة بيدها اليمنى، ولم تشدّد على استقامة ظهرها في جلوسها.

صدرك فخر صناعتك. لكنّك يا سلمى ما زلت ماضية في كسب تعاطف الدهون التي تتجمّع على وركيك وفخذيك ومؤخرتك. لطالما كان وركاك سرّ جمالك الدفين. إذا بقيت هكذا فستدخلين السابعة والعشرين من ربيعك بكامل مشمشك وبفائض في الشحوم. انظري إلى ريما. موظفة بنك ويمكنها أن تكون في أوقات فراغها عارضة أزياء. اذهبي معها إلى الجم. تشجّعي يا أختيّة. تشجّعي يا وزة. ماذا ستخسرين؟ حصدت في عمرك سهولاً من الأبقار والدجاج والبطاطا المقليّة والبقلاوة والكاتوه والآيس كريم والأرز والخبز والبرغر والبيبسي. جرّبي الخسّ سيّدتي وراقبي كيف تصير بشرتك نقيّة. خسيّة. كوني أرنبة مرّةً في حياتك. استقيلي من حياة اللبوة لفترة. كوني نباتية. كوني كما تبغين لكن لن تكوني... لا... لا... لن تكوني. يللا قلّعي!

من جديد: أناي التي في المستقبل. أحاول دائماً ألا أخبرك ما يجعل عينيك وروحك تضجر. لكنني، بينما أنا جالسة في ميشاز في بدارو، بعد ظهر ثلاثاء عادي، أفكر في ما يحدث معي الآن، وما يحدث

في كوكب الأرض. انظري. ميشو يحادث شاباً بهيّ الطلعة، وهو ربما يحاول أن يشدّه إلى مضجعه. نمر يقف خلف البار حالماً بحبيبته في باب توما، وبليالي الشام العتيقة. مارو تجرّ ساقيها المراهقتين بين الطاولات وتلوي خصرها الذي في مقتبل العمر تعبيراً عن ضجره من كثرة طلبات الزبائن. المتصابي على البار يشرب الويسكي وحيداً لعلها تساعده على قبول الخاطر الساذج الذي يمرّ أسفل شعره المصبوغ بأن يده ستخرج من المكان بيد فتاة تحب الرجال المجرّبين الذين في سنّ والدها. الأستاذ عبد الكريم رضا يتمدّد على الكنبة العملاقة في الصالون مدخناً وشارباً الشاي ومتحسّراً على زمانك يا عمر يا أبو ريشة. السيدة والدتك جلست لتوّها مرهقة من جولة التنظيف الثالثة في البيت الذي «أد ما كبير (اسم الله) الشغل فيه ما بيخلص»، تلتقط الآيباد وتعاجله بنقرات مضطربة باحثة عن صور جديدة لفلذة كبدها جبران يحضن عبودي ومهدي وحسونة أمام سيّارة بي أم جديدة في ألمانيا، وتعدّ بالدقيقة موعد اتصاله الفايستايم اليومي. غاية المنى تحضر الغداء لحسين وتنتظر عودته المظفرة من محله في النبطية، وتدعو على أولادها بأن يأخذهم الله للتوّ واللحظة، أو أن يحوّلهم إلى ذوي حاجات خاصة وذلك بضربة واحدة من عصاه السحرية، تقعدهم إلى الأبد عن هذا العراك الدائم. قمر تقوم بنشاط مشابه تنتظر خلاله بقلق عودة عماد وتضيف إليه هواجسها الدائمة بأنّه يخونها وبأنّه ميكانيكي فاشل، بعكس حسين الذي كمن يقطف المال عن الأشجار، ثم ترتاح حين تقارن بين وسامة عماد وقبح صهرها حسين. جدّتي، الله يرحمها، ما زالت في رحمته تعالى. حسن أرسل الآن أنّه سيصل بعد ربع ساعة. ربما دخلت كنسمة وركلتني على ساقي، ومالت عليّ ملتقطة خصلة من شعرها وضربتني بها على وجهي، ورمت جزدانها وذهبت لتلقي بثقل دمها على ميشال. وأنا أحاول أن أتذكّر ماذا

كنت أريد أن أقول حين كتبت بينما، ولا أتذكّر. وبينما يحدث هذا للتوّ، أفكر يا أناي في سؤال واحد: ما هي مشكلتي بالتحديد؟ ما هي مشكلتك يا سلمى؟

عادت ريما. نحاول الإجابة عن هذا السؤال المصيري في الحلقة المقبلة.

سلملم... بوسات. باي.

الثلاثاء...

شقة حسن، فرن الشباك.

هذه ليست حياة.

الجمعة 9703

في سرير الرشح المقدّس.

ماذا؟

ها أنتِ. عيناك تدمعان ورأسك يدور وأنفك أصبح أحمر كأنوف المهرّجين. ولا تدرين أتبكين من رشح أم ممّا فعله حسن.

عليك أن تواجهي أسوأ مخاوفك وتتعالجي عند طبيبة نفسية تفكّك عقدك الدفينة وتنهي هذا الضجيج في رأسك. ثمّ إنّك مريضة وتدخنين، ما لكِ؟

كفي عن التقريع. دعيني أوثق لصديقتنا الآتية في المستقبل أحداث الثلاثاء العظيم، قبل أن أنساها.

فقد جاء حسن إلى ميشاز مصطحباً شيرين، صاحبة الجلالة. بعدهما، أتى أحمد مصطحباً شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وعضلاته البارزة للعيان وهاتفيه الخلويّين البارزين أكثر للعيان، وقبّل ريما وأجلسها، أو كاد، في حضنه. وبما أنني وريما كنّا جالستين على المقعد الطويل، جلس حسن وصاحبة الجلالة على الكرسيّين قبالتنا. اثنان مقابل ثلاثة.

كنت أودّ، بيني وبين نفسي، وبيني وبين ريما، عموماً ومن دون تخصيص، ألّا تتكرّم الملكة بتشريفنا بحضورها. أعني، لا يليق بها النزول إلى حيث نقبع في الدرك الأسفل من سلّم التطوّر البشري، والاختلاط بهذه الحثالة، آكلة الهامبرغر وجوانح الدجاج المطفأة بثوم وحامض بأيديها. الحثالة التي تشرب الكحول كأنّه اليوم الأخير لهذا السائل في بيروت. لا سبب يجبرها، اللهمّ إلّا هيامها الدائم بالحضور في المجال الحيوي لهرمونات حسن.

طيّبت خاطر نفسي بأن قلت لها إنّ شيرين هنا ولا مجال للعودة بالزمن إلى الوراء. وهي صديقة حسن ويحبّها مثل أخته كما يؤكد لي دائماً وأبداً، وخير، اللهمّ اجعله خيراً، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. ولا تلحقني مخطوبة، ومجموعة أخرى من التعاويذ.

غرق أحمد في ريما يتهامسان ويضحكان. وغرقت أنا في غربتي. فشيرين تنظر إليّ بابتسامتها المعدّة سلفاً لأن تكون مبهمة. وأنا، حين تنظر إليّ شيرين بعينيها المدروستين بعناية، لا أعود أجيد فعل الكلام. أعني، لديّ «سنس أوف هيومر» مجرّب ويمكنني أن أدّعي أنّه يضحك الآخرين. ريما تصطاد خفة دمي بعينين مغمضتين. وتجيد تلبيتي كما أجيد تلبيتها. أحمد استطاع أن يتفهّمه مع الوقت، ويضحك له مرغماً. حسن يحب أنني أضحكه. مشكلتي الأولى مع شيرين هي أنّها حاضرة في حياتنا منذ أربع سنوات وما زالت حتى اللحظة عاجزة عن القبض على أسلوبي. هكذا، وفي مسعى مستمر من شيرين لأن تظلّ بلهاء ولكن، سألتني على أيّ محطة يُعرض المسلسل حين قلت لحسن إنّ «جاكلين كانت عم تحكي متل الست جانيت خطّار بمسلسل دخان العمر المستحيل».

لا يمكنني أن أقول لشيرين، بحضور حسن، إنّ الحديث قطار فائق السرعة، إن لم تقفزي إليه عند المحطة فسيفوتك. القطار لا

ينتظر المترَدّدين يا شيرين. لا أستطيع العودة إلى ز زَ عَ في كل مرّة. لبّينا يا حسناء. لن تزداد التجاعيد في وجهك إن حاولت. بالطبع، توقفت عن إكمال قصّتي وقلت لها: «إنّو مثلاً يعني. ما في مسلسل اسمو دخان الوعد المستحيل. فقاطعتني: العمر العمر».

ضربت ريما فخذي بفخذها. ابتسمت. هممت بأن أكمل شرحي فرأيتها ترفع ساعدها وترخيه، مطوياً، فوق كتف حسن وتميل إلى الأمام مدّعية أنّها مهتمّة بتتمّة قولي. استعذت ثلاثاً بأعزائي الشياطين الرجيمة، ثمّ بسرعة خاطفة قفزت من مكاني وأطبقت بفكّي على ساعدها ومزقته إرباً إرباً.

لم تشف هذه الرؤيا غليلي، وقد حوصرت بين أن أكمل شرح الوجه الساخر للتشبيه وأتلقى «آه» في صميم حسّي الفكاهي، وبين أن أعود إلى القصّة التي بطلتها جاكلين، والتي نسيت أصلاً حول ماذا تدور. سقطت عليّ اللاجدوى من الوجود، واللامعنى من البقاء، وقد كنت في ثالث كأس من الخليط الحامض بالنعناع بالتيكيلا على الأرجح، الذي خصني به ميشو، والذي يفتح الشهيّة، للأمانة، على صحن فول مدمّس. رفعت كأسي وقذفت ما فيه في جوفي دفعة واحدة، كما يكتب الأدباء الكبار، ثم ضربت الكأس على الطاولة، و... تجشّأت.

نعم يا أناي المستقبلية يا حبيبتي. حدث ذلك وقت العصر في خمّارة في بدارو، بحضور صاحبة الجلالة نفسها، السلطانة. لم يكن صوتاً هائلاً كالذي يصدر عن أجدادنا الرجال العمالقة. أميل إلى وصفه بأنّه صوت رقيق وناعم ينمّ عن مشاعر جيّاشة. امتقع وجه حسن. كيف امتقع؟ امتقع. يمكنني أن أعرف متى وكيف يمتقع وجه صاحبي. تداركاً للإحراج، قرّرت أن أنطق.. فقلت: «فاااا»... واستمرّ الصمت. بحثت في رأسي عن كلمة أخرى فوجدت واحدة

ثانية: «فاااا...» فأكملت ريما اللعينة: «وين كنّا؟». أجزم بأنّ وجهينا انفجرا بالضحك في اللحظة نفسها، وفي اللحظة نفسها ارتمينا على ظهر المقعد يكاد يغشى علينا من الضحك، بينما نتبادل الصفعات على الأكتاف. تعرفين كيف... كما تفعل بنات مفترضات حين يتفقن على إغاظة أيّ شيرين من شيرينات هذا الكوكب الكثيرات.

أعرف. سيبدو الضحك موجّهاً ضد صاحبة الجلالة. لكن، من الصعب أن نتوقف إذا بدأنا. ذهني السكران لاحظ أنّ وجه حسن يميل إلى الاخضرار الآن، وقد أنزلت شيرين ساعدها الملكي عن كتفه ووضعت وجهها في هاتفها. خفتت موجة الضحك رويداً وهي أصلاً لم تأخذ وقتاً طويل. اعتدلنا وريما وقد صار مزاجنا أفضل. فقلت، سائقة في النكتة: «وين كنا؟».. فعاجلتني ريما: «فاااا... »

هل كان الأمر مضحكاً إلى هذه الدرجة؟ الآن أفكر بأنّه لم يكن. لكنه، لحظتها، جعلنا نكرّر المشهد السابق نفسه، حتى سالت الدموع من مآقينا. لا ليس إلى هذه الدرجة. واحدة تقول «فاااا» والثانية تقول «وين كنّا». و«فاا» تأتي مع «وين كنّا»، كريّا وسكينة هما. شبه توأمين أليس كذلك؟ هذا ما اكتشفناه وقد رأينا أنّ شأنه مضحك فضحكنا. وقد بات المشهد، لا شك، محرجاً لحسن وأحمد وشيرين الذين امتشقوا هواتفهم جماعياً كأنّ طبول الحرب قد دقت.

حين انتهت وصلتنا للهز الشرقي، التي استمرّت أقلّ من دقيقة، وقف حسن وقفة ممثل لبناني يستعدّ لأن يصفع الممثلة اللبنانية ويقول لها: «يارا برّاك... اخرجي من ذاتي ومن قدري». حسن، في الحقيقة، قال: «سلمى فينا نضهر لبرّا شوي؟».

«سكرتي؟»، سألني بينما أقف بخفر أمامه على الرصيف الذي يموج برقة أسفل قدميّ السكرانتين.

– لا. إنت باك شي؟
– قصدي زدتيها ما هيك؟
– لا ما زدتها. رفيقتك زادتها إذا شي.
– شيرين؟
– إيه أليسا. إنّو تشيل إيدها عن كتفك ماشي الحال.
– سلمى هيك بدك تضلي؟
– إيه هيك بدي ضل.
– أوكي خلص.
– أوكي.

لا أذكر إن قلت آخر أوكي أم لا. أصلاً أنا أنقل لك كل الحوارات بتصرّف من ذاكرتي ومن ذائقتي اللغوية بينما أستعيدها. في المحصّلة، أمضيت ما بقي من جلستنا صامتة، ورفضت عرض ميشو بكأس رابعة. وشيرين كانت أول المنسحبين، وأصرّ حسن على ألا تدفع ثمن قنّينة البيرييه التي شربتها من لا تمسّ الكحول ولا تأكل إلّا في ما ندر، وتقتصد في التعبير بوجهها، وإذا ضحكت فتحت فمها على اتساعه، منعاً لتسلل التجاعيد. وكان واضحاً أنّ الجوّ تكهرب، لذا غادرنا جميعاً بعد شيرين بقليل، ريما وأحمد لا أدري إلى أين، وأنا وحسن إلى شقته. ولأنني كنت أشعر بأننا سنتخانق، بقيت في ثيابي. حتّى حجابي لم أنزعه عن رأسي. قال: لازم نحكي. هززت برأسي بجدّية وأجبت: إيه لازم نحكي. ثمّ بدأ هذا الجدال المكرّر والطويل والمملّ حول صداقته بشيرين، الذي سرعان ما اتّخذ أبعاداً أخرى أكثر حيوية ونشاطاً إذ قال إنّني «تدشّيت» وأضاف «عيب». مجرّد النطق بهذه الكلمة أشنع بكثير من الفعل نفسه. دافعت عن نفسي. قلت له «مش بقصدي». ثمّ، ماذا يعني أنني فعلت ما فعلت. هل خدشت خطيئتي صورته كمهندس معماري يجلس في المجتمع المخملي مع

ذات الخمار الأسود صاحبة العينين اللتين في طرفهما حور واللسان البذيء حين تنطلق بالشرب انطلاق صاروخ؟ أين المشكلة؟ في الواقع، يبدو أنّني لم أشرح جيداً لأنّه لم يفهم ما الذي أقوله، لأنّه قال «إنتي بتعرفي إنّو ما خصّ حجابك بالموضوع». فأكدت عليه أن لا دخل لحاجبي بالموضوع، ولماذا أصلاً يتذكّره لولا أنّ الحجاب مشكلته الكبيرة في لاوعيه، ثمّ، من حيث لا يدري، سدّدت لكمتي الشديدة، رافعة الحديث إلى أعلى مستوى. إلى المستوى المصيري-الوجودي.

صوّبت بين عينيه سائلة إيّاه عمّا يريد من علاقتنا، واستخدمت تكتيكاً جديداً في الإصرار على جواب واضح وسهل عن سؤالي: «شو بدّك من هيدي العلاقة؟»".

شرحت له أنّه ليس مطلوباً منه أن يقول إنّه يريد أن يتزوّجني ولا أن يحدّد موعداً للزواج مثلاً، فأنا لا أطلب يده، ولن أطلبها. لكنّنا على أبواب السنة الرابعة... شو بدنا نعمل؟

– لازم نعمل شي؟

– إنتَ شو رأيك؟

– إنتي شو رأيك؟

– يعني على القليلة خلينا نبلش إنّك ما تجاوب على السؤال بسؤال.

– بدّك تضلي تتمسخري؟

– يييييه على ربّنا.

ارتفع صوته: سلمى شو بكي؟

ارتفع صوتي: إنت شو باك؟

– لا. إنتي شو بكي؟ وقد ارتفع صوته أكثر.

– بتعرف شو؟ قايمة فل.

– بدك تفلي؟ إيه فلي. فيكي تسكري الباب وراكي بليز؟

– لا فينيش. قوم إنت سكرو.

اندفعت مثل شاحنة صغيرة في الكوريدور. ولم أغلق الباب خلفي. لم يتّصل لا الأربعاء ولا الخميس. وها أنا مريضة ووحيدة في السرير، ولم يتصل بعد. هل يظن أننا انفصلنا؟ هكذا؟

· لا. ظنّه ليس في محله.

السبت 9704

في الضيعة... حول غرفتي.

مضى النهار. أجلس الآن في سريري وأكتب. أرغيلة تلو الأرغيلة طوال النهار، وأباريق شاي، وتبولة، ولحم ودجاج. وقناني بيبسي لا يعلم بحجمها إلّا الله سبحانه، وأولاد غاية المنى وقمر . أولاد شقيقتي من الذين قاوموا نظريّة التطوّر. خمسة قرود، ما شاء الله. يأكلون الأخضر واليابس ما شاء الله، ويدمّرون الأخضر واليابس، ما شاء الله. تخيّلي يا سلمى، مشهدنا مجموعين كلنا أمام كاميرا آيباد الست الوالدة كي يرانا «خالو جبران» وحرمه المصون وأولاده الثلاثة.

تكوّمنا حول إلهام تكوّم صيصان حول دجاجة. وماج الوقت بنا ومجنا به. وغاية تجذب علوشي ليقول باي للكاميرا. ثمّ تطلقه وتجذب آلاء لتقول باي وتلوّح بيدها الصغيرة، ثم ترفع يارا الصغيرة وتدوّر جسدها الصغير يميناً ويساراً، كما لو أنّها تعصر حامضة، فيصير الجسد كله في حالة «باي» انطباعيّة. ثمّ يأتي دور قمر. تجذب علوشي الثاني. يقول باي. ثمّ ياسمينا، تقول باي وتلوّح بيدها وتركض. يأتي دورنا. تكون إلهام قد حيّت كنّتها وابنة أخيها زينب، وقبّلتها من بعيد، ووزعت قبلاً على أولاد جبران الجالسين في الصورة

جامدين كأنّهم في كادر: عبد الكريم ومهدي وحسن. زينب تمازح بنات عمّتها الثلاث وتتهكّم على جبران وكسله يوم العطلة، وغاية المنى وقمر تتهكّمان على حسين وعماد. وأنا أتخيّل حسن جالساً معي في هذا الحضن العائلي الدافئ وقد شربنا قنّينة فودكا ودخنّا رطلاً من الحشيشة النظيفة. ومن بابَي التنويع والتجديد، أخبر جبران والفاميلي كيف نمارس أشكالاً وألواناً من الجنس، وأقلّد لهم اعوجاجات ملامح وجه حسن حين يقذف. ونضحك جميعاً للطرفة حتى ننقلب على ظهورنا، وخاصّة جبران، إلّا حسن طبعاً لأنّه يشعر بالإحراج والخجل من الموقف الذي وضعته فيه.

إلهام قائدة أوركسترا الآيباد. توزّع المهام، وتنقل الكاميرا بيننا كلما جاء دور واحدة منّا في الكلام. أبي يظهر على الشاشة غالباً بعدما يصل صوته. يكون بطنه ظاهراً في خلفيّة الصورة حيث يقف بعيداً، وحين يحكي، ترتفع كاميرا الآيباد صوبه بسرعة خيالية. يكون تعليقه قد انتهى، ولا يجد ما يقوله، فيلوّح للكاميرا بـ«باي».

جبران يضحك ويحيّي ويرمي الأسئلة. أطفاله أيضاً يقولون باي ويلوّحون بأصابع مفتوحة. أمّي تشرح بفرح عن الغداء، اللحم المشويّ والتبّولة والحمّص... الغداء نفسه منذ ما قبل عصر النهضة. «منحتفل بالست سلمى يللي بتجي مرّة بالشهر». أؤدّي الدور كما يجب أمام الكاميرا وأضربها على كتفها. «شو بدّك فيها. كل جمعة بجي. إسأل بيّي». أبي يضحك من بعيد ويقول: «صحيح صحيح». يظهر وجهه. يلوّح. أتمنّى لو يضعف الإنترنت فجأة وينقطع هذا البث المباشر بين الضيعة وألمانيا قبل أن يصيبني جبران بأحد تعليقاته السامّة. لكن لا. الإنترنت في أحسن حالاته. «وكيفك يا زينب؟ وكيفو بيّك، وعمومتك إن شاء الله مناح. بوّسيهم واحد واحد. مشتاقتلكم

كتير ولله العظيم». وزينب ترد. وجبران يقول: باخدهم بالجمعة مرّة على مدرسة إسلامية هون، تابعة لمسجد جماعتنا.

وأبي يمشي عائداً إلى الصالون. وألوّح منسحبة إلى الحمّام قبل أن يسألني جبران عن عملي وبيروت. لا جلد لي.

أدخل إلى الصالون فأجد أبي ممدّداً على الكنبة الكبيرة، يقرأ واحداً من كتبه العتيقة التي جلدها بورق مقوّى. الكلمات محفورة بورق مذهّب. لهذه الكتب رائحة جرذان ميتة. شو عم تقرا؟ «أمل دنقل»، يجيب. أود لو أرفع رأسه وأضعه في حضني وأمسّد ما بقي من شعره الأبيض ومن التجاعيد حول عينيه الواسعتين. لو أشرح له أنني مثله وأنّه ليس وحده في غربة. في اللحظة الأخيرة أمتنع. أقف أمام المكتبة مدّعية أنني أتفرّج على العناوين. دواوين شعر ونجيب محفوظ وأعمال جبران الكاملة ومارون عبّود وميخائيل نعيمة وتوفيق يوسف عواد وكتب محمّد حسنين هيكل ومعاجم ومجلّات العربي والمختار. نفسها هذه الكتب والمجلات مذ بدأت أفكّ الحروف. في المكتبة الجديدة تبدو أصغر وأقل عدداً. كاسيتات أم كلثوم ومحمّد عبد الوهّاب ومحمّد عبد المطّلب وفريد الأطرش وأسمهان مرصوفة عمودياً في طبقتين. في البيت القديم كان لها جارورها الخاصّ يسحب منها ما يشاء من دون ارتباك. وللكتب رفوفها التي تلائم حجمها. هنا الرفوف كبيرة وعميقة. هذا الشيء العملاق ليس مصنوعاً للكتب أصلاً. إنّه مصنوع للتلفزيون ولمزهريّات وبراويز صور. أمّي رصفت الكتب أفقيّة كأنّها مدفونة مكدّسة بعضها فوق بعض وفي صفّين، خلفي وأمامي. كيف يمكنه أن يجد كتاباً إذا أراده؟ في البيت القديم كانت مكتبته من صنعه. رفوف خشبية تتراصف فيها الكتب منتصبة القامة كما تستحق، باحترام تام، وعناوينها بارزة. وكان ينظمها بحسب العصور الأدبية. اختلط هنا

العصر العبّاسي بصدر الإسلام بالأندلسي. حبيبي يا أبي. ما زال عالقاً في العصر الأندلسي. سمّى بناته الثلاث على أسماء شاعرات ذاك العصر. ورحن يتحجّبن واحدة بعد الأخرى ويؤمنّ بالله ورسوله واليوم الآخر. ويصمن رمضان ويلبسن الأسود أيّام الحزن العاشورائي. ابنه الوحيد الذي اسمه جبران على مستوى جماعتنا. ابنه الذي أصرّ على أن يسمّي ابنه على اسم أبيه، مع أنّه قال له «بزعل منّك يا جبران إذا سميتو عبد الكريم. حرام عليك».

حبيبي يا أبي. جبران وغاية المنى وقمر وسلمى. أعطيتنا أسماءً ولا أحلى. الآن عندنا واحد أبو عبد واثنتان أم علي، وأنا. بينما رحنا ننساب من بين أصابعك كحبّات الرمل، كنت تظنّ أنّ بإمكانك الحفاظ عليّ خالية من الشوائب. كنت تقرأ لي وكنت أستمع، وكلما بحثت أمّي عنّي وجدتني إمّا جالسة في حضنك وإمّا أمام مكتبتك. أكوّم الكتب والمجلّات في أهرام صغيرة. وكنت تقول لها «اتركيها تلعب أنا برجع برتبهم». لماذا تركتني أنسلّ من بين أصابعك؟ من أخطأ بحق الآخر؟ كنت في كلّ يوم تنظفني من الخزعبلات. من حكايات الملائكة والشياطين التي أجلبها معي من المدرسة أو من أمّي وجاراتها. شفتي بعينك؟ تسألني، أقول لا. كل شي ما بتشوفيه بعينك ما تصدّقيه؟ طيّب بابا، والهوا؟ حسّيتي فيه على وجّك؟ إيه. معناتها موجود. إذا ما حسّيتي بالجن على وجّك ولا شفتيه، معناتها مش موجود.

حبيبي. كنت تسير بي في درب الإلحاد الصعب، حتى أتى جبران وصار لطيفاً على غير عادة، وصار يجلسني على السجّادة أمامه ويحكي. وأنت تقف بعيداً وتدخّن... أمّي تذهب وتجيء وتزوّدنا بالصحون. فاكهة، ومعمول مدّ بقشطة، وعوّامة، وكاتو، وأباريق شاي.

والزمن رمضان والليل طويل. وجبران كأنّه في مهمّة رسمية. منتدب من السماء لزرع الإيمان في الفتاة التي لم تبلغ عامها الثاني عشر بعد. بهرني. يداه الطويلتان يلوّح بهما، راسماً دوائر في الفضاء أمامه أو ماذاً خيطاً وهمياً بين نقطتين. هنا الدنيا وهنا الآخرة. على هذا الخط يجري الإنسان امتحانه. لا أحد يجبره. الحياة جيفة. الحياة جيفة حقاً يا أبي؟ تركتني للانبهار بيديه وبطوله الفارع وبلحيته الخفيفة وابتسامة أسنانه الصفراء المطمئنّة ليقين ما يقوله. آمنت بتفاهة جسدي أمام رفعة روحي، وآمنت أيضاً بواجبي في الحفاظ عليه لأنّه وسيلة الروح إلى الجنّة وإلى الخلاص من عذاب القبر ومن نار الجحيم. جسدي مرآة روحي. تافه لكنّه مرآة روحي. سجنها الذي يجب أن أصونه بأشفار العيون، مهما كانت تعني هذه الكلمة، أشفار.

تعبت. تابعي يا سلمى. هذا تمرين جيّد. اسمعي أم كلثوم وتابعي.

أفكر الآن بأنّ الحجاب لم يكن ذنب جبران. كان ذنب الأستاذ عبد الكريم. حين أخذ كتاب عذاب القبر من يدي وفلفش صفحاته وأعاده إليّ ولم يقل كلمة. حين أطلّ علينا من بعيد ووجدني جالسة على الأرض أتسحّر مع أمّي وجبران. حين صرت أدور في البيت أهذي بأنني عطشانة وقال: روحي اشربي، وأجبته: صايمة، فسكت. حين أدخلتني أمّي وغاية وقمر إلى الغرفة، وألبسنني الحجاب قبل يومين من نهاية الشهر الكريم، وخرجن يدفعنني بفرح إلى حيث كان يجلس أبي وجبران، يضحكن ويصفّقن، فوقف جبران ووضع يده على صدره وقال: من اليوم ورايح كل قطعة تياب بتلبسها ممنوع حدا تاني غيري يدفع حقها، ولم يعلق أبي، كأنّه صورة معلقة على جدار. كان قراري أليس كذلك؟ كان جبران سيسافر بعد العيد، وكنت أريده أن يراني

محجّبة قبل أن يسافر. لكنّه لم يقل لي تحجّبي. أمّي هي التي قالت ما لم يقله. هلّأ كبرتي وبلغتي، وصرتي عم تصلّي وتصومي الحمد لله. شو رأيك يا إمي؟

«شو رأيك؟» فجأة انقسم العالم في عينيّ إلى قسمين: محجّبات وسافرات. محجّبات في الجنّة وسافرات في النار. محجّبات شديدات الجمال وسافرات بشعات. في مدرستي كان الصنفان موجودين. ولمياء كانت غير محجّبة. لم أفكّر يومها أنّ كلّ الصبيان كانوا غير محجّبين أيضاً. ولم أسأل لماذا لا يتحجّب الصبيان أيضاً. لكنّني كنت ألهو. أجرّب الإيشاربات مع غاية وقمر وأنظر إلى وجهي في المرآة مرفوقاً بـ«بيبه طالعة متل القمر، واسم الله، وما شاء الله، ويخزي العين...». اقتنعت بأنني أجمل بالحجاب. رأيت النبيّ يوسف في المنام. قال لي إنّ الراديو في سيّارة أبي تعطّل فاعتبرت هذه الرؤيا دعوة لي لأن أتحجّب، لا أعرف حتى اللحظة لماذا وصلت إلى هذا الاستنتاج. كتبت في دفتر يوميّاتي قصيدة عنوانها «آن الأوان»، ارتدي جناحيك وحلقي من مكان إلى مكان... ومن زمان إلى زمان (طبعاً. أوان = زمان = مكان). لم أضف في حينها، واشربي الفودكا والتهمي السودا المقليّة بدبس الرمّان. لم أكن أعرف.

كنت ألهو. فقط حين وقف جبران وضرب على صدره انقبض قلبي: صرت محجّبة. أرى أسنانه، كانت شديدة الاصفرار. الآن أغمض عينيّ فأرى ضربته على صدره وضحكته الواسعة. لا أذكر وجه أبي. ليس موجوداً في ذاك المشهد.

ليل الأحد 9705

الثانية والربع بعد منتصف الليل. صار عمري الآن 9705 أيّام (أم نقول يوماً؟!) .

سأكتب إلى مطلع الفجر. وأنام حتى مطلع العصر.

أين كان أبي؟ الآن أفكر بأنّه انسحب إلى خلفية المشهد، وصار شبحاً، مع أول حوّالة أرسلها جبران إلى إلهام، لا إلى عبد الكريم. عندما أثمرت تضحية جبران وتغرّبه من سن السابعة عشرة، دولارات أزهرت في يدي إلهام، التي كان التعليم الرسمي قد خرج من أعلى جمجمتها.

لقد وقعت تلميذة الصف الثانوي الثاني، العادية شكلاً ومضموناً، في حب الأستاذ القصير القامة الغريب الأطوار الذي سحر بضع فتيات في الثانوية بصوته الأجش، وبعشقه للأدب العربي وجبران خليل جبران. والتلميذة التي لم تكن يوماً نجيبة، رأت الرجل بعيون صديقاتها المفتونات، وهو يحكيهنّ عن القدرات الكامنة لديهنّ وعن قوّتهنّ ووجوب المضيّ خلف أحلامهنّ، مهما كانت. وحين اهتمّ بها ابن التاسعة والعشرين، وميّزها عن الباقيات، رأت في عينيه

الملوّنتين كل ما ترغب به في الحياة. عاندت أمّها وأخاها الكبير وتزوّجته وانتقل إلى ضيعتها. حين حبلت بجبران، كانت سعيدة. قرّرت ألّا تعود إلى البكالوريا ووافقها زوجها. وبينما الأخ الكبير يثري في ألمانيا، ويسحب إخوته الثلاثة واحداً بعد الآخر، كان مدخول الأستاذ على حاله، وبريقه يخبو، وشعره يخف، وعيناه تخسران لونهما المائل إلى خضرة الزيتون، وشارباه يصيران من خارج العالم الذي لم تعد الشوارب تنمو فيه من دون لحى. ولمّا حلق شاربيه كان الأوان قد فات. صار بيت أخيها الذي سكنا فيه يضيق عليها، بينما إخوتها يفتح الله في وجوههم بيوتاً أكبر. لم تحبّ أم كلثوم يوماً، مع أنّه جرّب، ولم تحبّ القراءة. ثمّ صارت كتبه تكثر وحاله تضيق، وصار تطيّرها يزداد، ومعه تديّنها.

ومع أنّ للأستاذ في العادة مكانةً اجتماعية في القرى، فإنّ أهل الضيعة لم يحبّوه. فهو ليس منها في الأصل، ولا يشارك في أيّ نشاط في الحسينيّة. وثمّة إشاعات مغرضة بأنّه يشرب والعياذ بالله. هذه قصّة أتصرّف بها الآن على طريقتي لكنّني سمعتها منها بصيغ مختلفة على مرّ الزمان وهي تشكو حالها لأختها. لقد كان زواجه بها قصاصاً لها. «كنت طفلة». جبران أيضاً «كان ولد» عندما قرّر أن يضحّي التضحية التي ستظلّ أمّي تجلدنا بها طوال العمر. كان ولداً في السابعة عشرة حين سحبه أخواله إلى ألمانيا. الحوّالة الأولى قلبت البيت رأساً على عقب. بعدها، صار صوت أمي مسموعاً أكثر، وخفت صوت أبي تدريجاً حتى اختفى مع تقاعده. أظنّ أنّ أسماءنا كانت آخر إنجازته. بلى، هناك إنجاز آخر هو حماسته في استقبال قراري بأن أدرس في جامعة بيروت العربية وأعيش بعيداً عن البيت. يومها كان كمن استفاق من غيبوبة، ربّما لأنني أعطيته الحقنة السحرية باختيار الأدب العربي. «خلّيها تروح تدرس ببيروت». قال محدّقاً في

وجه زوجته، وضاغطاً بأسنانه على أسنانه. حين كرّر عبارته، لوّحت أمّي بيدها كأنّها ترمي غرضاً خلف ظهرها. «اصطفل إنت وياها... وخلّيك ادفع يا جبران». غاية وقمر تحجّبتا وتزوّجتا ولم يتدخل. فعل المطلوب منه على أكمل وجه. في المرّتين ارتدى بدلته ووضع ربطة العنق، وجلس يستمع إلى أهل العريس يطلبون، وتحدّث بأناقته المعهودة وصوته الجميل، ثم فتح يديه كأنّه يقرأ الفاتحة مع أنّه لم يدّع حتى أنّه يتمتم، ولم يمسح يديه على وجهه، تماماً كما يفعل كلما وجد نفسه مضطرّاً لأن يدّعي أنّه يقرأ الفاتحة. وفي عرسيهما دمعت عيناه وجفّفهما وحضن الواحدة منهما طويلاً، وقبّلها على جبينها. لكنّه، في ما عدا ذلك، يغيب عن ذاكرتي. حسناً. لقد وقف معي وقفة طيّبة. وساعدتني الروايات في مكتبته وكاسيتات أم كلثوم في جاروره في التعرّف إلى طريق الضلال الذي سرت فيه وحدي لاحقاً، لكنّه لم يكن حاضراً. حتى حين أعلنت أمّي أنّها اتفقت مع جبران على بناء البيت. لا. أظنّه اختفى تماماً في تلك اللحظة، لحظة إعلان قرار بناء البيت الجديد. صار صرحاً من خيال.

أمّي وخالي ساوما على شراء الأرض، وهي التي كلّفت المهندس برسم «الفيلا» قبل أن تستحي لاحقاً وتعود لتسمّيها بيتاً، بما أنّه طابق واحد بأعمدة منتصبة في العراء على سطحه توحي بأنّه ينتظر طابقاً آخر فوقه. هي التي تابعت مع «معلمي العمار والدهان والرخام والكهرباء والشحار والتعتير... وهوّي يا إختي كأنو ما خصّو». ممدّد على الصوفا في غرفته، يقرأ ويكتب ويدخن ويشرب الشاي. هي وجبران يختاران ألوان بلاط الحمّام والمطبخ ونوع الرخام الذي انفلش في طول البيت وعرضه. هي وجبران يختاران العفش الذي غلب عليه، لسبب لا يدركه إلّا هي وجبران والسماء، البنّي الغامق. لم تأخذ من البيت القديم إلّا الثياب، ولم يأخذ إلّا كتبه ودفاتره وكاسيتاته.

فجأة صار المسكين أقصر قامة في البيت ذي السقف العالي. وصار بحاجة إلى رجل ثانٍ بطوله ليملأ كنبة الصالون إذا تمدّدا. الكنبة العالية الكبيرة التي تعلوها تيجان مذهّبة. صار أبي دوقاً، وإلهام الملكة إليزابيث الثانية. دوق قصير وتائه بين جنينة البيت الهائلة، وكنبته الجديدة. دوق متقاعد لا مجد له ولا ماضي. حبيبي يا أبي. أنا أحطّمك الآن بلا سبب.

لا دخل لك. بكامل وعي طفلة في الثانية عشرة تحجبت. دخلت في عيد الفطر وأنا محجّبة. في كل رمضان تعود إليّ الذكرى. ذكرى طعم فمي وأمّي توقظني في منتصف الليل. ذكرى الألوان في بلاط البيت القديم، وانا أنظر فيه ماشية صوب السحور الذي جهّزته إلهام. ذكرى الزنخة المقيتة لقطعة البندورة التي ألحقها بلقمة البيض في فمي. ذكرى رائحة الخيار، وطعم الشاي. صحيح. لم تشاركنا أبداً في السحور. أمي كانت تقول: الله يسامحه. رح يطلع لا دنيا ولا آخرة.

وكنت أفكر، كيف سأكون سعيدة في الجنّة، وأنت كلما احترق جلدك في النار، نبت لك جلد جديد لتحترق ثانية، آلافاً مؤلفة من السنين.

لكنني كنت سعيدة لأنّ جبران فجأة لم يعد «لئيماً». كان يباشر حكيه معي صراخاً: سلمى، فوتي لجوّا. أكون في أقصى انفعالي، ألعب مع صبيان وبنات، كلهم من أقاربي. فوتي لجوّا. أضع رأسي في الأرض وأدخل. وتلك تقول: بتسمعي كلمة خيّك الكبير. حين سافر، وبالغت أمي وغاية وقمر في الدراما، وصرن يحلفن بغربته، جرفني حنان الأخت وصرت أنا أيضاً أقول «وبغربة خيّي جبران»، ولا أكذب إذ أحلف، مع أنني أشك في أنني كنت أفهم معنى ما أقول. لكنني كنت وما زلت أفهم أنني أخاف منهما، هي وجبران. أفهم.

صوت الأذان... سأصلّي الآن وأنام ☺.

الاثنين 9706

صالحني حسن.

كتبت إليه أقول «عيب تخلص علاقتنا هيك» فردّ بـ هههههه، ثم اتّصل وتعاتبنا قليلاً وتصالحنا وها أنا الآن في سريره وهو نائم.

سأنام هنا الليلة. سأكتب لنصف ساعة وأنام.

يمكنني أن أقول إنّني مرتاحة. معدتي مطمئنة على غير عادة. هل لأننا لم ننفصل؟ ربما. وربما لأنني كتبت ما كتبت في الضيعة. هذا البوح مريح. كلما قرأت ما كتبته أحسّ بأنني أخرجت حصاة من كيس الحصى الذي أحمله على ظهري ورميتها. يخف الحمل قليلاً لكن سرعان ما سأجد حصاة أخرى أضعها في كيسي وأمشي. أحياناً أكاد أظنّه كيس حصى حقيقياً. مذ شرح لي سامر ما قالته له طبيبته النفسية عن المشاكل الصغيرة التي تشبه حصى في كيس وأنا أفكر بما أحمله. كيف لي أن أرميها كلها. سأذهب يوماً إلى طبيب نفسي. الآن، ممدّدة في السرير أكتب على التلفون، أفكر بأنني من دون أيّ ثقل. العمل على ما يرام وأنا على ما يرام. وأهلي بخير وحياتي بخير. عندي حبيب ولديّ صديقة واحدة تكفيني عمّن عداها. وأفكر في

التخلص من عادات الكسل والطعام السيّئ لأصير أكثر نشاطاً وتفاؤلاً وصحّة. الثلاثون باتت قريبة وكل شيء بعدها سيصير أصعب. ينبغي أن أسافر. كيف يمكن واحدة في السادسة والعشرين لم تسافر في حياتها بعد؟ خذي حسن واذهبا إلى اسطنبول لأسبوع. أو اليونان. أيّ مكان.

إلى متى ستبقين في منطقة الأمان التي تعيشين فيها؟ ستظلين هكذا؟ ألم يحن الوقت لأن تشلحي حجابك؟ لا. ليس بعد. لماذا ليس بعد؟ لا أعرف. متى إذاً؟ لا أعرف. ثمّ، أرجوك، لا تهاجميني. دعينا نتكلّم بهدوء، كصديقتين. حاضر. كيف تريدنني أن أقولها لك؟ لا توجد طريقة ثانية لهذا السؤال. لن أسألك هل تريدين خلعه أصلاً. أم أنت تفكرين بألّا تخلعيه أبداً. بلى. لا أريده وأنت تعلمين هذا وتعيشين معي في الرأس نفسه مع الباقيات. أريد أن أخلعه ولا أحتاج إلى سبب.

أقول إنّني لست خائفة من أحد. ربّما أخاف من نفسي. من المرّة الأولى على الأرجح. لكن المرّات الأولى جميلة يا سلمى. كل المرّات الأولى جميلة وهذه ستكون أحلى أول مرّة. كم مرّة حلمنا بها. نكون على البحر، نرتدي فستاناً قصيراً واسعاً لونه زهريّ. من دون سوتيان تحته. شعرنا قصير. قدمانا حافيتان. نمشي على الرمل المبلل. هذه أقوى الذكريات حضوراً. حين كنت صغيرة كنت تتخيّلين أنّك في باريس، تلميذة في الجامعة. تجلسين على العشب حافية. جينز وبروتيل أبيض. تقرئين وأصابعك تلعب بالأعشاب. شعرك قصير أسود وعلى كتفك وشم أسماك صغيرة وكبيرة.

لماذا توقفت عن رسم الأسماك بالمناسبة؟ كنت ترسمينها في كل مكان. لولاها لما كنت الآن عسراء. انشغل بالهما، جبران وأمّك. ضرباك على يدك التي تحملين بها الملعقة. حشرا الأقلام حشراً في

اليمنى وكنت تنقلينها إلى اليسرى لترسمي. هذا ما أخبروك به على الأقل. اليسرى للشيطان الرجيم. وقد كنت مصرّة على الشيطان. صحيح! سأوغل في هذه النظرية غداً في المعتقل، خلال ادّعائي أنني أعمل.

بونوي حبّي.

الثلاثاء 9707

لا أطلب الكثير. أودّ فقط لو أُهمل. فقط لو أنني حين التفتّ عن غير قصد، لم أجد الراكب في السرفيس الملاصق لسيّارتي يحدّق فيّ مبتسماً. لو أنّه لم يستغلّ هذه الالتفاتة التي دامت للحظة، لتقفز يده إلى أعلى جبينه، ممسّداً أعلاه، كي يشرح لي أنّ شعري ظاهر من تحت المنديل.

حركة واحدة كهذه ستخرب عليّ نهاري. كنت لئيمة بما يكفي لأن أشيح بنظري عنه من دون أن أرفع أيّاً من يديّ لأسوّي حجابي. لكنّ يدي أحسّت أنّها تتحرّك وتسوّيه. هذا كافٍ. هذا حقاً كافٍ ليكون النهار ملعوناً. لا تعود الموسيقى تعوّض، ولا الكتابة. ستظلّ بذرة الإزعاج التي زرعها هذا الغريب تكبر في رأسي حتى ينتهي النهار بشجرة كبيرة تخرج من صدغي. أفكّر بأنني لو قلت له «كول خرا» مثلاً. أو رفعت له الوسطى البذيئة. لو أنني فعلت شيئاً غير تجاهله. لو قلت له: ييه ليك. إنت ناسي حجابك كلو بالبيت. وكل شعرك مبيّن. حتى شعر صدرك مبيّن. لا يجوز يا حج. شعر الصدر فتنة وعورة يا حج.

لا دخل له. هذا ما يخنقني. أن أجد نفسي أشغل بالي بالفكرة نفسها، بأنّ الغريب الذي لن ألتقي به ثانية، لا دخل له بشعري ولا بحياتي.

ماذا الآن؟ لا شيء. كنت قد وعدت نفسي بأن أبحث علاقتي بيدي اليسرى. لكنّ جداراً يقف بيني وبين الكتابة في هذه اللحظة. أفكر بأن أنزل إلى الشارع وأبحث عن راكب السرفيس. سأقف أمامه، وأنزع حجابي وأصرخ بووووو، فيموت من الرعب من هول انكشاف الغطاء عن شعري كله. لكنّني أنا المسؤولة عمّا حدث، وليس هو. أنا أرتدي هويّتي الظاهرة للعيان والتي تجعله يظنّ أنّها هويّته، وأنّه، من موقعه كحمار، حريص على صونها. لا. لا دخل له بي حتى وأنا محجّبة. لا دخل له.

أين كنّا؟ يدك اليسرى. ما لها هذه الأخرى؟ لا شيء. قلت إنّك ستكتبين عنها.

طيّب. ذهبت يدي اليسرى في نزهة إلى البرّية، وركضت بين الأشجار وقطفت الورود وشعرت بسعادة مطلقة، لدرجة أنّها قفزت من جسمي وهربت في النهر مع سمكة.

هل كانت حياتي ستختلف لو أنّني لست عسراء؟ تخبرني أمي أنّها كافحت عسراويتي. ضربتني على يدي، ونصحها جبران بأن تربطها وربطتها. وخوّفتني من أنّ الله سبحانه سيهتمّ شخصياً بخنقني إذا أكلت بيسراي. لا أذكر أيّاً من هذا. ولا أذكر أنّني سألتها لماذا أصرّت. ما الخطأ في أن أكون عسراء؟ حين تعلّمت الوضوء، قال جبران إنّ المسح على الرأس يجب أن يكون باليمنى وإلّا بطل الوضوء وبعده الصلاة. والأحوط وجوباً هو إعادتهما إذا شككت في اليد التي مسحت على الرأس. وكان الشيطان يوسوس في رأسي في الركعة

الأخيرة عادة. أعود أتخيّل كيف توضّأت قبل دقيقتين، وأحاول تذكّر ملمس كفّي، هل هذه التي مسحت على الرأس، أم الثانية. وبما أنّ الشك وقع، أنهي الصلاة وأقوم لأتوضّأ وأعود لأصلي من جديد. جهد ضائع مرّتين.

أقدم ذكرى عندي هي عن علاقتي بيدي اليسرى: أرسم سمكة باليد اليمنى، ثم باليسرى. تتعرّج سمكة اليد اليمنى وبالكاد يلتقي خطاها عند الذيل. حتى ابتسامتها تكون قوساً معوجّاً. ولا تتناسق نسبة حجم الجسد مع حجم الذيل. أراها سمكة بشعة وحقيرة. حين أرسم باليسرى، ينساب الخط كالموسيقى. يدي اليسرى تنتج أسماكاً من كل الأحجام والأشكال، مدوّرة وبيضوية وطويلة وقصيرة كلها جميلة ومتناسقة نرى من بروفيلها عيناً واحدة وفماً يبتسم. وكنت أحبّ رسم الأسماك. لذا تمسّكت بيسراي. لاحقاً حين صرت في الحادية عشرة واكتشفت أنني شاعرة قرّرت أن أكتب قصيدة عنوانها اليد اليسرى ترسم أسماكاً أجمل. لكنني لم أجد كلمات تنتهي بحرف اللام تفيد معنى ما أريد قوله في القصيدة. ثمّ إنّه لا شيء أضيفه إلى هذه الفكرة أصلاً. اليد اليسرى ترسم أسماكاً أجمل. هذا كل ما أردت قوله. قصيدتي انتهت بسطر واحد، مكتوب باليسرى بدوره بحروفي الغريبة التي كانت تسبّب غيرة رفيقاتي في المدرسة لجمالها. أظنني كنت وما زلت أرسم الحروف ولا أكتبها. ما زلت أظنّ الحروف أسماكاً ترقص.

هل كانت يسراي سبب ضعف إيماني؟ أجل. منها تسلل الشيطان إلى روحي وجلس فيها وعاث فيها فساداً. لأنني أصررت على السؤال: لماذا اليسرى مكروهة؟ لماذا الملاك الجالس على كتفي اليمنى يدوّن الحسنات والجالس على اليسار يدوّن السيّئات؟ لماذا

جهاز المخابرات هذا في الأصل الذي لا يتورّع عن الدخول معي إلى الحمّام؟ لماذا حين نسلم عليهما في آخر الصلاة نبدأ باليمين ثمّ ننتقل إلى اليسار؟ لماذا أكون درجة ثانية فقط لأنني أستخدم يداً دون الأخرى؟ بذور الشك المراهق اللعين. لولاه لكانت حياتي أحلى. الفتاة التي اقتنعت في طفولتها بأنّها معفاة من الصلاة والصوم ودخول المسجد ولمس القرآن خلال الحيض لأنّها تكون مريضة، والله لا يريد إجهادها، كبرت وراهقت وفهمت أنّها في دورتها الشهرية تعامل كنجسة. لا إلهام كانت تجيب عن أسئلتي، ولا أنا كنت مستعدّة لخوض نقاش مثل هذا مع عبد الكريم. ثم، ما دمت لا أستطيع الاقتراب من الله في أيّامي هذه، لماذا لا يمكنني أن أخلع حجابي أسبوعاً في الشهر أيضاً؟ أنا أضعه ابتغاء التقرّب من الله سبحانه تعالى، وبما أنّني سأكون في عطلة قسرية لأسبوع، فلتكن عطلة شاملة، أخلع خلالها حجابي وأخرج شعري وأشمّسه قليلاً. أمي تشمّس كلّ شيء. الشمس علاج أساسي للسجّاد والشراشف والكنبات والأغطية والفرشات والجروح والإمساك والرشح. تغسله بالشمس حتى يتطهّر، لأنّ الشمس مطهّرة مثلها مثل الماء. أنا بحاجة إلى تشميس أيضاً. حين قشر وسام البونبونة التي كنتها، راح يرتجف كأنني سلك كهربائي. فكّ أزرار قميصي وأزاله عنّي. وفكّ سوتيانتي بخفة خبير وعبثت يداه في صدري من دون خشية ولا وجل. لكنه حين حاول أن يفك الإيشارب راحت يداه ترقصان. ولو! خانته قواه. كأنّه يسرق مسجداً. أظنّه فكر بأنّ عيني الله تحدّقان فيه. لم أعرف إن كان عليّ أن أكمل ما نفعله أو أن أقف معه في محنته وأشدّ من أزره. سنة وتسعة أشهر معاً، أشعل خلالها عود كبريتي الوحيد، يا لعاري، ولم يجرؤ على فك الإيشارب مرّة ثانية. ولو! إمّا يتركني أفكّه، أو يطلب منّي أن أبقيه لأنني أثيره بالحجاب.

يتذكر ما يتعاد وسام. ما الذي سيعيده هذا الآن. دعينا منه.
انقطع حبل أفكاري. كنت تحكين عن شكوك المراهقة. شكوكي التافهة السخيفة التي جعلتني أطرح كل الأسئلة الخطأ.

الخميس 9709

كاريبو الحمرا.

إنّني هنا منذ نصف ساعة. أجلس على كنبة محدّقة في كنبة أخرى. أبحث عن فكرة تصدّ عن قلبي وحدتي. أظنّ أحياناً أنّني مخلوق وحيد. أعلم أنّ كلّ المخلوقات وحيدة. أقصد أنّني أحبّ وحدتي. مستوحدة. هذا الوصف أدق تعبيراً عن حالي. لكنّي حين أكون جالسة وحدي، في البيت أو في المقهى، تسقط عنّي أسباب حمايتي. أصير هشّة وقابلة للانكسار السريع أو الاحتراق السريع. أصير قابلة للخجل المدوّي، التلعثم، الارتجاف. أصير قابلة للبلاهة القصوى ولصفع نفسي صفعات متتالية. هكذا حين أكون وحيدة. أرى من حولي. شابة بشورت تمدّد ساقيها على الكرسيّ أمامها. اثنان يدرسان الرياضيّات ويتحدّثان بالانكليزية. بعيداً يجلس شابّان أقرعان بلحيتين. يتشابهان. ليسا أخوين لكنّهما نسخة واحدة مكرّرة عن شبّان بيروت. باتوا كلهم متشابهين هذه الأيّام. كلهم ملتحون وكلهم إمّا بلا شعر وإمّا يبالغون في تصفيف شعرهم. يرتدون القمصان نفسها والجينزات نفسها والعضلات نفسها والأصوات العالية نفسها. كأنّهم عسكر في جيش.

ما معنى هذا الآن؟ ما الذي سيضيفه إلى حياتك وحياتي. ثمّ إنك كنت تحكين عن وحدتك وقفزت إلى شكل الشبّان. عودي إلى فكرتك عن وحدتك. تخافين منها؟ لا. إنّها تضجرني. هذه هي. إنّني أضجر من البقاء وحيدة. وأنا أعيش وحدي. لهذا أفكر بأنّه يجب أن أتزوّج يوماً وأنجب أولاداً. كي لا أكبر وحيدة. لكنّك قد تتزوّجين وتنجبين ثم تطلّقين ويكبر أولادك ويغادرون البيت وتبقين وحيدة. وقد يرمي طفل بريء قطاره الحديدي من الطابق التاسع بينما يكون زوجك عائداً من عمله موظفاً عادياً في الضمان الاجتماعي فيفتح القطار رأسه ويموت ويكبر أطفالك ويسافرون وتظلين وحيدة. يمكنك أن تحكي معهم فايستايم لكنّ هذا لن يمنع أنّك ستبقين وحيدة. ستقرّرين متأخّرة أنّك موهوبة بالرسم وتشترين أنواع قماش وألوان وتخصّصين غرفة لك كمشغل ثم تجلسين وترسمين وردة جورية كبيرة حمراء وجرّة وسترى صديقتك ريما لوحاتك وتقول لك إنّها رائعة لكنك في قرارتك تعلمين أنّها تجاملك لأنّها تحبّك ولأنّ حبّها لك أكبر بكثير من رأيها الصريح بلوحاتك. وستظلين وحيدة.

أعني، كيف تصدّين وحدتك عنك؟ أنت تنامين في شقة حسن ثلاثة أيّام في الأسبوع أحياناً، ومع ذلك تغرقين في وحدتك. حتى حين تكونان معاً تكونين وحيدة. أنت مخلوقة وحيدة. آن لك أن تقنعي بوحدتك.

طيب. من جهة أخرى لطيفة، فعلتها!

ذهبت مع ريما أمس إلى الجم. لم تنفع معها تبريراتي. قالت لي إنّها ستمر وتأخذني معها. أرسلتُ إيموجي الوجه الأخضر الممتقع علامة المرض، فردّت بصور عضلات وسبّاحات وعدّاءات.

أخبرت حسن بأنني ذاهبة إلى الجم فردّ بـ هههههه. لم أفهم لماذا يضحك فاتّصلت به. رأيه كان أنّ الرياضة لا تليق بنا، نحن معشر المدخنين آكلي الفاست فود. «خلّيني جرّب» قلت، وأغريته بمؤخّرة مشدودة. «بدّك تروحي بين هول الهبل تبعول العضلات؟ إلك جَلَد؟». «بغيّر جو»، قلت. «أوكي. متل ما بدك». أنهينا الاتصال وقد عدلت عن الفكرة. يمكنه بأوكي واحدة أن يصيبني بآلام ظهر تقعدني عن أيّ تفاؤل ولو ضئيلاً بهذا العالم. عدت وقرّرت ألا أسمح له بإحباطي. وازددت إصراراً على الجم. ويا ليتني لم أصرّ.

الجحيم بدأ مع بيجاما الرياضة التي جلبتها ريما. عنوة دخلت ساقي في البنطلون وبقوّة لافتة للنظر ضمّت وركيّ ومؤخرتي. زرك. استحسنت تكويرة مؤخرتي لكنها كانت زائدة عن حجمها بما أستحي منه وأخجل. رفضت ارتداء القميص القصير لأنّه سيكون فضيحة مدوّية. سحبت من خزانتي قميصاً قطنياً طويلاً يصل إلى منتصف الفخذين ويخفي تحته ما يخفي. وحين وضعت الإيشارب، وتلصّصت على نفسي في المرآة رأيت ما لا يسرّ الناظرين. توليفة البنطلون الضيّق الأسود، تحت البلوزة الواسعة الخضراء، تحت الإيشارب الأزرق. كنت أشبه علم بلد لم أحزره. لم أهتد. وقلت للمرّة الثامنة والسبعين، لن أذهب. لكنّها جرّتني من يدي.

الجم، يا عزيزتي الآتية في المستقبل البعيد، عساك تكونين من روّاده، عالم موازٍ للواقع الذي نعيشه ويعيشنا. فيه تجدين ضروباً من البشر يختلفون عن العاديّين أمثالنا. إنّهم، كيف أقولها، تامّون. لقد أجاد الله في صنعهم. ريما منهم. وصلت وراحت توزّع «كيفنا اليوم؟» و«شو عنّا اليوم؟» على معظم الذين مررنا بهم، من موظف الاستقبال إلى الرجال الذين يقفون منتصبين انتصاب أسوار القلاع.

يبتسمون ابتسامات الشاكرين لله على نعمته التي أنعم بها عليهم دون غيرهم. وصحّيون كأنّهم أكواب الحليب في الدعايات.

أثنى «كوتش جو» على كتفي ريما، لكنّه، كأيّ معلم حكيم في هذه الحياة، شدّد على ألّا يصيبها الغرور وتثابر على الاجتهاد في التدريب لأنّها لا تسير على البرنامج الموضوع بطريقة دقيقة وعلمية. بعد المحاضرة القيّمة، قدّمت ريما صديقتها التي تقف مكتوفة اليدين كمذنبة، وأخبرته بأنّي أفكّر بأن أسجّل في الجم، وأنّني سأختبر المكان اليوم، «فدبّروا حالكم».

«كيفنا اليوم؟» سألني فكدت أجيبه «ما عندي فكرة، اسألوا حالكم»، لكنّني عدلت عن «الخوش بوشية» من أوّل لحظة مع الكوتش جو المهيب. تركتني ريما لقدري وغابت تقفز كغزال بين الآلات، وهو قرّر أن يأخذني في جولة ليعرّفني إلى المكان الصغير الذي لا يحتاج إلى خبيرة في الفيزياء لتكتشفه. بعد دقيقة انتبهت إلى أنّه يلقي عليّ ما يشبه محاضرة محفوظة عن ظهر قلب عن منافع الرياضة للإنسان. كيف ترفع المعنويّات بسبب هرمون السعادة الذي تفرزه الركبتان! لم أكن أعلم أنّ السعادة تُفرز من الركبتين للحقيقة، وإن كنت أحبّ استخدامهما خلال ممارسة الحبّ لكنّني لم أكن أعرف أنّهما مصدر سعادتي. كنت أظنّ أنّ السعادة تأتي من الوضعية نفسها. ما علينا. حكى الكوتش جو عن حجم الفخر الذي يشعر به الإنسان حين يتكلّل تعبه بتغييرات إيجابية في جسده. عن الوقت الذي يحتاج إليه كلّ منّا لنفسه، يكافئ به جسده، بعيداً عن كلّ الهموم. وللأمانة، لم أجد في كلامه ما يُحسب ضدّه، خاصّة أنّه يبدو مستقرّاً نفسياً بدليل البرونزاج العنيف مع أنّ بيروت لم تخرج من شتائها تماماً بعد، وصفّ الأسنان الاصطناعية البيضاء بشدّة غير

منطقية، والشعر المصفف إلى خلف بالجل، والذي أميل إلى أن أقول إنّه مصبوغ.

على كل. أوصلني الكوتش جو إلى التردمل وقال: أحسن شي نبلش هون. وبعدين منجرّب كلّ الآلات، وأنا حاضر لكلّ سؤال. صعدت إلى آلة وبدأت المشي، وبقربي صعلوكة متعرّقة تركض، لا أعلم منذ متى.

يمكنني أن أطمس ما بقي ممّا حدث في هذا اليوم، ويمكنني أن أخبركِ به، شرط ألّا تحكيه لإنسان بعدها. بينما الساعة على التردمل تشير إلى أنّها قطعت ثلاث دقائق، والثواني تمضي باتجاه الدقيقة الرابعة قرّرت أن أجرّب الجري، وتحمّس ثدياي رمزا أمومتي فراحا يقفزان أمامي كالمجنونين. قبل أن أتمّ السبع ثوانٍ أدركت أنّ الأمر محرج، وأنّ سوتيانتي لن تنفع، فعدت إلى البطء، محتارة في نوع سوتيان التي بقربي، وقد جفّ حلقي من الحسد وزاغت عيناي من الغيرة وبدأت من حقدي الدفين ألهث طلباً للأوكسجين، هذه المادّة الثمينة النادرة، ولا أجده.

إنّني أغرق، والصعلوكة فرس تركض في الحقول والبراري. أنا أصارع نفسي كي أمنعها من التفكير بالسيجارة، ونفسي تنهار بين يديّ كأنّني أسوقها إلى الإعدام مشياً، ونفسي تفضّل أن تساق إلى المشنقة على كرسيّ مدولب مثلاً، أو في سيّارة. أن أُعدم فماشي الحال، كلنا سنموت. لكنّي لن أمشي إلى الإعدام. والصعلوكة تركض. أراني فيها الله يوماً.

في المحصّلة، حين بدأت أتعرّق، توقفت. تعرفين كم أكره هذا، خاصّة أسفل الإيشارب. لم يكن لي إلّا أن أنزل، وأمشي متثاقلة إلى بار المشروبات وأبتاع قنّينة مياه صغيرة. استحسنت الجلوس أمام البار. استرخيت. وقرّرت أن أبقى جالسة ما استطعت. بعد دقائق،

جاءت ريما من بعيد مثل ثور هائج، ودفعت برأسها صوب وجهي وقبّلتني فكادت توقعني. «حبيبي أبو سالم»، شو؟ عم تاكلي الحديد؟ وبدو يصير عندك أحلى طيز بالنبطية والجوار؟ وتفاهات من هذه التي يقولها الإيجابيون في الحياة، لم أجد هواءً كافياً يساعدني على مجاراتها بتفاهات مضادّة.

كنت مهتمّة بالفرجة، بصراحة، على شابّ دخل لتوّه، يرتدي بروتيلاً واسعاً مفتوحاً حتى خاصرتيه، وظهره يقتصر على خيط رفيع يمرّ بين كتفيه المتينتين الفائضتين، ويرتدي شورتاً ضيّقاً. الحق يقال إنّني لم أرَ في الواقع المعيش، جسماً مثل هذا. أعترف بأنّه كان بإمكاني دعوته ليمشي أمامي جيئة وذهاباً لأعاين كلّ عضلة فيه على حدة، لا أفاضل بين واحدة وأختها. كلهنّ بناتي. سواسية كعضلات المشط.

جعلت أتفرّج عليه، رقبته، كتفه الموشومة، ساقيه الطويلتين. وبينما أنا أتلصّص بهدوء عليه، وعلى انعكاساته في المرايا، راحت مجموعة من الباقين تتجمّع حوله. وهؤلاء لا يتصافحون مثلنا. إنّهم يبعدون سواعدهم ما استطاعوا عن أجسادهم، ثمّ يضربون أكفّهم، وتطبق أصابع الراحات بعضها على بعض، ثمّ يقتربون ضاربين أكتافهم. «شو مان؟ «حبيبي يا مان. شو عنّا اليوم. صدر. وإنت حبيبي؟ تراسلبس وباسلبس وسبلبس وكلمات غريبة تدوّي في المكان بما أنّهم يحبّون أن يسمع الجميع أصواتهم.

خلال مراقبتي اللصيقة للشابّ، لاحظت عليه أنّه يحكي مع الآخرين بينما ينظر إلى جسمه، بوقاحة أكبر منّي بالطبع، فأنا ألعّب عينيّ. أنظر إليه قليلاً قبل أن أكمل جولة تفقّد المحيط ثمّ أعود إليه. هو لا. إنّه يحكي مع الآخرين بينما يطوي ذراعه متفقداً حال الشرايين المنفوخة، ويصافح ناظراً من فوق الذي يصافحه إلى تكوّر كتفه في المرآة، ولا يمنع عن نفسه السرور بجمال ضحكته أيضاً. هذا النرجسي

الخسيس. اقتربت منه الصعلوكة وحضنا بعضهما برقّة، ثمّ حصل ما بدا أنّه عادة يوميّة تبدأ حين يستقرّ. استلّ هاتفه وبدأ يلتقط صور سيلفي له، أو يعطيه للصعلوكة كي تصوّره، ثمّ اقترب من المرآة ورفع قميصه عن معدته العارية التي، سأعترف، قد آذتني رؤيتها. حبيبي حسن. إنّ هذه الأشياء لا يمكن مقاومتها يا حسن. لقد زال شكّي وتيقّنت أنّ هذه العضلات في المعدة حقيقية وليست رسوماً متحرّكة في التلفزيونات وعلى يوتيوب. هناك حقاً في هذا العالم من له معدة من دون غبار. يا أيّتها السماوات.

«هيدا زياد»، قالت ريما حين أومأت برأسي صوبه. تابعت «أزنخ من البيض النيّ بالمجلى. وعضلاتو كلها إبر. ما تنغشي».

«شو خلص خطبنا يعني؟» قلت منهية الحديث.

لكنّني استشرت نفسي في مسألة جوهرية... هل يمكنني أن أطمع بواحد مثله؟ هل ألفت نظره؟ أعلم أنّ أدنى مقوّمات العلاقة بيننا مستحيلة. أعلم. أيّ لغة ستجمعنا؟ أيّ نكتة؟ هل يهتمّ بي أصلاً؟ أظنّه لاحظ أنّني أنظر صوبه، ورماني بسهام طائشة بين مرآة وأخرى. يبدو أنّه أضافني إلى حريمه في الجم والحمد لله. نعمة كريم.

لماذا شغلت بالي بهذا الأمر؟ عندي رجل أحبّه ويحبّني، أظن أنّه يحبّني. ليست مسألة عضلات أصلاً. ما هذه التفاهة؟ أو ربما هي مسألة عضلات؟ مسألة جمال أخّاذ؟ فوق العادة؟ ماذا تريدين أن تقولي يا سلمى؟ قوليها كما هي.

أظنّني أريد أن أكتشف احتمالاتي في الحياة. هذه هي. لم أعرف غير اثنين. يبدو أنّهما كانا غير كافيين. غير كافيين لماذا؟ لا أعرف. لكنّني لن أجد بديلاً في شاب ربّما يصغرني سنّاً. أين الحلقة المفقودة هنا؟ تحكين عن وسام وحسن كأنّ كليهما من الماضي.

أعرف. قلبي يقول لي إنّني وحسن لن نستمرّ. ضجره الدائم، وميله إلى الصمت حين يكون معي. لا يتعب نفسه. لا أريد وروداً لكن على الأقل هديّة من دون مناسبة، تبرهن لي أنّه يفكّر بي. دعوة على العشاء. كلمة طيّبة في رسالة.

لماذا صرتِ هنا؟ كنت أريد تسليتكِ بالشاب الذي نال إعجابنا في الجم، وأقول لك إنّني اقتنعت بفلسفة الكوتش جو في الحياة، وصرت عضواً رسمياً في الجم، واتّفقت مع الكوتش على برنامج تدريب... على فكرة، قبل أن أنسى. اسمه جمال الدين الترك. ربما همست في أذني ضاحكة. «بيحكي إنكليزي قال. وهوي ما بيعرف غير كلمتين. وعامل فيها جو وما جو».

في المحصّلة، التزمي بالتدريب، ولا تنسي شراء سوتيانات رياضية. لا نريد للمهزلة التي وقعت على التردمل أن تتكرّر.

الجمعة 9710

باغتتني بنت الكلب. دخلت وانطلقت تعوي قبل أن أستوعب ما الذي يحصل.

– تلات أغلاط بمقال واحد! سي ترو هيك سلمى. مش مقبول. مسيو إيلي بنفسو اتّصل. مش مقبول سلمى!

اخترق صوتها جمجمتي من الخلف. ولوهلة، مال المكتب بي وكدت أقع عن الكرسيّ. رفعت صوتها ورأيت الثلاثة الذين يحيطون بي ينظرون في وجهي.

التفتّ فوجدتها واقفة عند الباب... أي إنّ صوتها مسموع في الخارج أيضاً.

– أيّ مقال مدام جاكلين؟

سألت مبتلعة نصف الحروف.

– مش مهم أيّ مقال. أنا صحّحتو. إنتي شغلتك مدققة لغوية تصحّحي كل المقالات والأخبار. هيدي شغلتك وبس. مش فايسبوك كل النهار، ومسيو إيلي بيتصل فيّي.

– ما عندي فايسبوك... وقفتوا من...

– مش مشكلتي سلمى. الأغلاط هاي لازم توقف. هيدا شغلك.

لم أقف واقترب منها، وأمرّغ بكفي الألوان على وجهها، لأصنع منها خلطة تليق بها. لم أقل لها: كس إختك على إخت المقالات على الموقع على المسيو إيلي. لم أقل شيئاً.

هززت برأسي العاجز عن توليف كلمة، ولو كلمة، أنقذ بها ماء وجهي. الثلاثة بقوا صامتين. كما التلامذة في الصف لحظة غضب المعلمة. خافوا أن تنتهي مني وتختار واحداً منهم لتقرّعه. وقد فعلت. «بعدين، سامر وإلسي، ما خلصت ترجمة مقال نيويورك تايمز بعد؟ من تلات ساعات باعتيتو! شو أطروحة هوّي!». شعرت بارتياح مذلّ حين صوّبت عليهما. أجابت إلسي بصوت مرتجف: ييه مدام والعدرا كنت عم شيّك عليه آخر مرّة وهلأ رح ابعتو... هوي كبير أصلاً وبعدين الفوكابيلري...

– طيب طيب.

وخرجت.

أنا أكتب الآن. ليس لديّ مقالات لأصحّحها لذا فأنا أكتب. أضرب على الكيبورد لأنني عاجزة عن الوقوف والصراخ. أنقر على المفاتيح كأنني أريد تحطيمها. خرجت إلى البلكون ودخنت سيجارتين وعدت وما زال هناك صراخ في بطني إذا بقي فيه فسيتورّم ويصير سرطاناً.

من أين أبدأ؟ أعلم أنّها تكذب، وأنّها تكرهني. وأنّها لم تفهم بعد لماذا وظف إيلي محجّبة في الأصل. أفكّر بأنّها لا تراني. لا ترى وجهي. ترى مكانه ثقباً أسود ملفوفاً بقماشة.

لا ترى منّي إلّا الحجاب. تمضي معظم رمضان وهي تسألني كيف الصيام؟ تراني آكل في الكافيتريا وترى فنجان النيسكافيه على المكتب وتراني أدخن على الشرفة وتسألني كيف الصيام؟

«منيح»، أقول لها. تحكي معي كأنّني أنا الممثلة الوحيدة للمسلمين في لبنان والمنطقة. كأنّني المسلمة الوحيدة التي التقت بها في حياتها.

حين رأيت السخرية تقفز من عينيها وهي تسألني عن حقيقة «التراب بكربلا يللي بيشفي من السرطان»، قلت لها، بكلّ نيّة طيّبة، إنّها نفس قصص معجزات مار شربل. استقامت من جلوسها وصارت كقصبة: «لا لا أبداً مش نفس الشي. مار شربل قديس. كيف؟ شو قصدك؟».

لا أذكر أنّني أجبت يومها. لم تفاجئني بأنّها تؤمن بمعجزات مار شربل. فاجأتني فوقيّتها. إنّها غير مستعدّة لأن تقبل بأن تضع مار شربل في مصاف الإمام الحسين. بالنسبة إليّ الأمران سيّان. ولا فرق عندي بينهما. لكن أن تحكي معي بهذه الطريقة عمّا تظنّه معتقداتي؟ هذه إهانة شخصية، سكتّ عنها في حينه. وأظنّها منذ ذاك الحين قرّرت أن تكرهني، وقرّرت أن أكرهها أكثر، من مبدأ المعاملة بالمثل.

تعرفين يا سلمى كم أكره هذا المعتقل. لكن ماذا أفعل؟ لن أكون مدرّسة. سأعود إلى الضيعة وأفلح الأرض وأزرع شتلة الإباء والعزة والكرامة وتتشقّق يداي من شك أوراق التبغ المرّ المجبول بالعنفوان والعصافير المقليّة، ولن أكون مدرّسة في متوسّطة رسمية. ماذا أفعل يا سلمى؟ ساعديني. هذا العمل يلتهم قلبي. لم أعد قادرة على التحمّل. كنت أقول ليس مطلوباً منّي إلّا أن أجلس على هذا المقعد وأدقق في المقالات، ثمّ ينتهي الدوام وأغادر. كنت أظنّ أنّ الأمر سيكون سهلاً. ها أنا في عامي الثالث هنا. إلسي ما زالت تخبرنا قصص أهلها التي لا تنتهي، ومنصور يتذكّر الحرب، وكلما سأله أحدنا سؤالاً عاد بنا إلى عام 1973 وانطلق من هناك. وحين تدخل مدام

جاكلين ينقطع كلامه فجأة وينكبّ على جهازه مدّعياً أنّه يترجم. وسامر أكثر مخلوقات الأرض كآبة. وأنا بينهم مثل الغريبة. يمكن أن أمضي يومي كله من دون أن أنطق، إلّا إذا دعاني سامر لتدخين سيجارة على البلكون، حيث قبل أن يخرج إليه يكون قد بدأ باللطم على حياته وعلى إلسي وعلى جاكلين.

حتّى الصالومي. سنوات أعمل فيها ولا أعرف غير طريق الوصول إليها والهروب منها. كلّ صباح أخوض اليوم نفسه، مكرّراً. ألبس قميصي طويلاً فضفاضاً كأنّه خيمة، وألبس الجينز، وأضع الحجاب والكونفرس وآخذ جزداني وأخرج. أغلق باب شقتي وأقفله بالمفتاح. أنزل على درجات الطوابق الثلاثة وأحاذر الدوس على الدرجة المكسورة بين الطابقين الثاني والأول. الغبار المتكوّم عند أطراف الدرجات يصير وحلاً أحياناً، وحين يشطف الناطور الدرج تحلّ بقع سوداء محلّ الوحل. يأتي الوحل ويختفي، وأنا كما أنا.

أقف على الرصيف ويصفعني الغبار والضجة. أعبر إلى موقف السيّارات فوق أرضه الترابية والأكواب الورقية المرميّة وأكياس النايلون. أقود السيّارة من رأس النبع إلى الصالومي. كم مرّة أتوقف عند إشارات السير؟ لا أعرف. كم مرّة تقفز سيّارة في الفراغ الذي أبقيه بين سيّارتي وبين تلك التي أمامي؟ كم مرّة يطلق سائق زمّوره في جمجمتي. يخصّني به وحدي ولا أعلم ما الذنب الذي اقترفته. كم مرّة أختنق في الازدحام وأودّ لو أفتح الباب وأخرج راكضة من السيّارة وأظلّ أركض حتى أصل إلى بيتي الموعود في الجزيرة في اليونان؟ كم مرّة؟ كم مرّة أفكّر بأن أصدم الدرّاجة النارية لأنّ المراهق الراكب على المقعد الخلفي يدير رأسه صوبي ويحدّق فيّ مبتسماً. كم مرّة؟ كم مرّة ركنت سيّارتي في الطريق أمام المعتقل، وكم مرّة انتظرت قليلاً

فيها أفكّر بأن أشغلها من جديد وأغادر ولا أعود؟ كم مرّة عدت ونزلت وعبرت الطريق؟ كم مرّة رفضت سيّارات أن تسمح لي بالعبور؟ كم مرّة مشيت داخل المبنى شبه المهجور الذي كان يُفترض به أن يكون مركزاً تجارياً وانهار؟ كم مرّة نظرت إلى الزجاج المتّسخ، وإلى واجهة محلّ التلفونات الذي بداخله رجل سمين جالس على كرسيّ عالٍ يتعرّق ويبيع الدخان وأكسسوارات التلفونات وكروت التشريج؟ كم مرّة نظر فيّ عابساً وأحسست أنّه يعبس في حجابي، وأقنعت نفسي بأنّني لا أكترث؟ كم مرّة انتظرت المصعد، وجاء موظفون الله أعلم ماذا يعملون في الشركات الباقية في هذا المبنى العملاق، ووقفوا متأنّقين مكويّين كأنّهم خارجون من صور الإعلانات لتوّهم؟ كم مرّة قارنت بيني وبين الموظفات المتبرّجات الطويلات بالتنانير القصيرة والشعر الذي أجهل متى اعتنين به حتّى أتى معهنّ إلى عملهنّ ناعماً منسدلاً يلمع؟ كم مرّة ألقى عليّ بعضهم تلك النظرة الغريبة، كأنّهم لم يروا محجّبة من قبل؟ كم مرّة ظننت ذلك ولم يكن هذا قصدهم بالضرورة؟ كم مرّة مشيت في الكوريدور الطويل في المعتقل وهززت رأسي لواحد هنا وواحدة هناك، ثمّ جلست إلى كرسيّ على الطاولة المربّعة التي يجلس منصور على ضلعها اليمين وسامر على ضلعها اليسار، وإلسي في خلفتي، ليكتمل مربّع المعتوهين؟ كم مرّة؟ كم مرّة سمعت قصص بيتر، ابن شقيق إلسي، وكيف قال لجدّه: «يا شلموط»، وكيف لحقه جدّه بالعصا؟ كم مرّة فكّرت بأن أطلب من إلسي أن تتوقف عن الكلام في هذه اللحظة، وخجلت. كم مرّة دخلت هذه الحرباء مذ صارت مديرة علينا وبدأت تنفث فينا سمومها؟ كم مرّة فكّرت بهذا العمر الضائع الذي أقضيه هنا. تسع ساعات كلّ يوم. خمسة أيّام في الأسبوع. آلة في وجه آلة. أقرأ تفاهات. وأكذب على نفسي. كم مرّة راقبت عدّاد أيّام عمري يزداد؟ كم مرّة نظرت في

عداد أيّامي وفكرت أنّ ما عشته منها لا يكاد يصل إلى ربع الرقم الذي صرت فيه؟ كم مرّة؟ كم مرّة فكّرت بالوقوف فجأة ومغادرة المكتب وعدم العودة إليه مرّة ثانية؟ كم مرّة؟ كم مرّة سألت نفسك يا سلمى هذه الأسئلة؟

إنّني أختنق. بيروت تخنقني والضيعة تخنقني وحسن يخنقني وحجابي يخنقني وحياتي تخنقني وطعامي يخنقني ورائحة يديّ تخنقني وشكلهما يخنقني. عمري يخنقني يا سلمى. كل شيء يخنقني. سئمت.

خلصينا بربّك. قومي فلّي.

السبت 9711

خير يا قمرة؟ لماذا انفعالك الشديد أمس؟ انظري إليّ. ها أنا في ميشاز منذ الظهر. حسن في البقاع وربما مع أحمد وأنا وحدي. سأحدّد أكثر. أنا وحدي مع نفسي. وهذا جيّد أحياناً. الربيع تلوح بوادره في الهواء وفي ميشاز المفتوح النوافذ شبه الخالي. ميشال يدللني كثيراً. صنع لي سندويش حلوم مشويّ مع بايكن ودبس الرمّان قال إنّه نزل لتوّه من السماء، وحين تذوّقته آمنت. السندويش نازل لتوّه من السماء.

حتى إنّه سكب قنّينة بيرة سوداء قال إنّها مستوردة ويحتفظ بها لنفسه وللخاصّين من زبائنه. خلطة إسبرسو وشوكولا. أشياء ميشال الصغيرة هذه، التي يقدّمها لي من دون أن أسأله، تنقلني من مزاج إلى مزاج. ليست هذه وحدها. أظنّ أنّ طريقته هي التي تفعل فعلها. صوته، حين يشرح، ينخفض فجأة ثمّ يرتفع قليلاً، متفاجئاً، كأنّه يحكي قصّة ما قبل النوم لطفل. صوته ملآن بالحكايات. هيدي البيرة إلها قصّة. هيدا السندويش شو قصّتو؟ ويروح يخلط الإنكليزية بالفرنسية بالأشرفية، وأنا أنصت، مستمتعة لا بالقصّة نفسها، بل بتلك الدغدغة التي يثيرها صوته أسفل عنقي من الخلف. ليس أنّه يثيرني.

لا. دغدغة بريئة كتلك التي أحسّ بها حين تغسل الكوافيرة شعري أو تقصّه. حين تمرّر أصابعها في شعري وتلعب به.

ثمّ إنّه نحيل جداً، ونحن النساء نحبّ أنواعاً متعدّدة من الرجال، لكنّ النحيلين يصيبوننا في مقتل. حين نرى وجوههم الشاحبة وسيقانهم الرفيعة وبطونهم الغائرة تتحرّك فينا غريزة الأمومة تدفعنا صوبهم لكي نجلسهم في أحضاننا، ونطعمهم سيريلاك ثمّ نضعهم في الفراش ونغطيهم لأنّ النوم يجلب الصحّة. وميشال بشعره الطويل الذي ينزل في خصلات على صدغيه ويرفعه بكفّه إلى الخلف، وعينيه الواسعتين، وخدّيه الغائرين، وشفتيه الرقيقتين حدّ عدم التأكّد من أنّهما موجودتان في وجهه، أسفل الأنف الطويل المستدق، يبدو خليطاً من آل باتشينو وأدريان برودي، وأنا أعشقهما.

أعرف أنّ ميشو ليس مثلياً. أخبرني عن زواجه الذي لم يستمرّ. وأخبرني أيضاً عن رهابه من العلاقات الطويلة. ولم يكن متبجّحاً لكي يقول إنّه يكتفي بعلاقات عابرة مع ثلاثينيّات وأربعينيّات، لكن يمكنني أن أتفرّج على تطوّر العلاقة بينه وبين الواحدة منهنّ وهو يقف خلف البار. كيف تكون جالسة وحدها وكيف يبدأ باهتمام عادي بها، ثمّ يزداد تركيزه عليها، وكيف تكون في البداية متحفّظة، وكيف تسترخي وتضع ساقاً على ساق ولا تعود منشغلة بأحد غيره وبالكؤوس التي يسكبها لها. وكيف يصدف أن يختفيا من ميشاز معاً.

ليس مثلياً، لكنّها نكتة حسن وأحمد المشتركة التي لا نمانعها أنا وريما ما دامت تضحكنا ونحن نتخيّل سيناريوهات ميشو في شدّ الشبّان الوسيمين. كيف يسأل أحمد عن تقدّمه في حمل الأوزان، وكيف يفحص عضلة زنده بأصابع خبيرة. ويكتم حسن ضحكته، ثمّ

ما إن يدير ميشو ظهره حتى يقول لأحمد: «هيدي المرّة بويا. المرّة الجايي خراطة أبو حميد». ونضحك.

أظنّنا لا نؤذيه بمثل هذا الكلام. إنّنا نتسلى. حسن بالتحديد ينتبه إلى تدليل ميشو الزائد لي. كيف يميّزني عن الباقين من أول مرّة سألني فيها شو بتشربي وقلت فودكا مع حامض وتلج وهزّ برأسه من دون أن يبدو عليه للحظة أنّه فوجئ بطلب المحجّبة. لكنّه لا يغار منه. حسن الموبوء بالغيرة وقلّة الثقة لا يغار من ميشو.

ومع أنّني زبونته الدائمة، وقد نشأت بيننا تلك الصداقة اللطيفة بين صاحب المحلّ والزبون، ومع أنّه غالباً ما يجلس معنا، أو معي حين أكون وحدي، لم يسألني مرّة عن حجابي أو كيف أشرب وكيف آكل لحم الخنزير. ولا مرّة. عدم اختراق خصوصية الآخرين ليس ميزة لبنانية في العادة. لكنّ ميشو مختلف. هو شبه فرنسي على كلّ حال. قضى النصف الأول من عمره في بدارو في روف المبنى نفسه حيث ميشاز الذي كان صيدلية لأبيه قبل أن يتحوّل إلى حانة. النصف الثاني قضاه في فرنسا وتزوّج فرنسية وتطلقا وعاد إلى لبنان ليكمل حياته في ميشاز وفي خزعبلات الزن والبوذية. إليك يا ستنا قصّة ميشو، لا أعرف لماذا أرويها لكِ. ربّما لأنّه جعلني أسترخي هكذا. أو ربّما لسبب آخر. كم عمره ميشال؟

ما علينا. دعيني، وقد شربت ثاني كوب من هذه الجعة السوداء بأروما الشوكولا والقهوة، أرفّه عنك ببعض الأفكار المسلية الخفيفة، خاصة أنّ هذه الموسيقى الغربية تزيد الجوّ اللطيف لطفاً.

أنت تعرفين أنّ ما ترينه في مرآتك ليس نفسه ما يراه الناس. حتى صوتك الذي تسمعينه حين تحكين هو غيره ذاك الذي تسجّلينه على الواتس آب ويعود إليك صوتاً آخر. تخيّلي الآن أنك ذاك الجالس في وجهك. ماذا يرى؟

قد يكون من إخواننا المسيحيين، وكلنا لبنانيون في آخر النهار.

لقد درس في الحكمة ويكمل، أو أكمل، دراسة الطب في اليسوعية. لم يلتق بمحجّبة خلال سنوات دراسته، فهو يعيش في الأشرفية. في الجامعة، يرى محجّبة أو اثنتين، أو ثلاثاً، أو عشراً. يرى تنويعات على الحجاب، ولا يميّز بين حجاب سنّي وآخر شيعي، وبين شرعي وبين منديل وإيشارب. يجهل أنّ الشيعية لا تضع حجاباً أبيض، بعكس السنّية. لا يعرف ما هي العورة. العنق عورة، وكلّ ما عدا الكفين والقدمين عورة، وظهور تفاصيل الجسم، قبل أن نحكي عن اللحم الحيّ نفسه، أسفل الثياب عورة. هو لا يعرف أنّ التبرّج عورة والعطور عورة. هو بالكاد يعرف أنّ المحجّبة لا تصافح، ولا تأكل لحم الخنزير، ولا تعاقر الخمر والحشيش، وهي لا تقرب السكس لأنّه رجس من عمل الشيطان. هو لم يسمع بتعبير «رجس من عمل الشيطان» أصلاً.

لكن هناك ما هو أبعد من ذلك، والله أعلم. إنّه يتخيّل أنّني أيضاً لا أقرب السينما والموسيقى والكتب والرقص. إنّه، في أقصى تهويماته جموحاً، لن يتوقع أنني أرقص لساعة على أم كلثوم وحدي، بشغف ومتعة، وأنّ محترفات لا يجدن التعبير بسواعدهنّ كما تعبّر يداي عن رقصي. كأنني وُلدت رقّاصة. إنّه لا يعرف، وأنّى له أن يعرف، أنّني أنا أيضاً مررت في أطوار. أنّني استغربت التغيّرات في جسدي لكنني فرحت حين أعطاني الله (لاحقاً، سمّيته الطبيعة) صدراً نضراً ووركين مميّزين، وأنّني حزنت لأنّ ساقيّ لم تصلا إلى الطول الذي كنت أطلبه منهما. لكنّني اقتنعت. ليس لديه أدنى فكرة بأنّ هرموناتي جعلتني أتخيّل قبلاً ساخنة مع ممثلين من جنسيّات مختلفة، ومع أبناء جيران، وأنّ هذه التخيّلات نفسها تطوّرت مع الوقت. لا يعرف أنّ ثمّة شبّاناً زاروني في أحلام يقظتي ومنامي، وأنّني تجرّأت على لمس نفسي. وقد تسلّينا معاً، أنا ونفسي. هو يظنّني إمّا أقرأ في القرآن، وإمّا

أصلّي. حتّى إنّه لا يمكن أن يتخيّل إلّا صورة واحدة لصلاتي، وهي أنني جاثية على الأرض، وأفتح يديّ أمام وجهي وأتمتم.

هو، إذاً، قرّر أن يضعنا وعائلتي في صورة، كنّا صفاً من المحجّبات، نقف بالتدرّج من الطويلة إلى القصيرة، بالقرب من أبي ذي اللحية الطويلة والجلباب، وأمّي التي ترتدي عباءة سوداء.

هو يقول إنّ اسمي فاطمة، وأختي اسمها زينب، وإذا حكّ رأسه جيداً وجد فيه اسماً ثالثاً لا يعرف أنّه لا يتلاءم أبداً مع الاسمين السابقين: عائشة. لكن هذا كل قاموسه. سيعجز رأسه عن ابتداع اسم مسلمة رابع. أنا في المقابل ماكسيموم سأسمّيه طوني، وقد أسمّيه شربل لكن هذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا هو طوني، الشاب الجالس أمامي في ميشاز، ولا علم له، المسكين، بأنّني أشرّحه.

طوني هذا، أو شربل، ما الذي سيخسره إذا اكتشف أنّ الصورة التي في رأسه عني خاطئة تماماً. حسناً ليس عنّي بالتحديد فأنا حالة شاذة. ما الذي سيخسره إذا عرف أنّ صورة المحجّبة في رأسه خطأ كبير؟ لا شيء. في المقابل، ما الذي سيكسبه إذا قمت صوبه وجلست معه وقلت له: «ليك. كل يللي براسك عن المحجّبين غلط بغلط. خليني فهّمك نحنا كيف». ماذا سيستفيد عملياً من هذه المعرفة؟ في آخر المطاف، سيتزوّج مسيحيّة مثله، وينجب أولاداً مسيحيّين مثله، يجهلون تماماً من تكون سلمى رضا، المحجّبة التي كانت جالسة أمام أبيهم ذات ربيع في ميشاز، ولم يلتفت صوبها ليناقش نفسه في أصلها وفصلها. ما الذي سيكسبه صهري عماد إذا شرحت له أن لا. ليس صحيحاً أنّ كلّ المسيحيات، يا عماد، يبدأن بممارسة الجنس من عمر 14 سنة. أراهن أنّ صهري عماد لم يحكِ مع مسيحية في حياته. ومع ذلك، فعماد أكيد من أنّهنّ ينطلقن في حياتهن الجنسية («للآخر» يقول) من سنّ الـ14. أظنّ أنّ الحياة، في دماغ عماد، أقلّ

تعقيداً من الحياة خارج دماغه. ففيها، الجامعة مكان واسع يمارس فيه الطلاب والطالبات أورجي جماعية في الصفوف وفي الحمّامات وفي الممرّات. أورجي لا يتورّع عن الانخراط فيها المعلمون والمعلمات، ما عدا المحجّبات بالطبع. الشبّان المتديّنون يتمتّعون بدورهم، وربّما يحوزون أكبر عدد من النساء، خاصّة المسيحيات إذا صودف وجودهنّ في الجامعة عينها، لأنّهم مرغوبون ورجال رجال، وليسوا كالشباب المسيحيين الرخوين حكماً. صهري عماد لا يعرف، مثلاً، أنّ إلسي المسيحية عبرت الثلاثين بكامل عذريتها، ولم تقبّل شفتاها غير خدود عائلتها وأقاربها وابن شقيقها بيتر، بينما شقيقة زوجته، المحجّبة، التقيّة النقيّة، رمت عذريتها خلفها بقرار واعٍ، في سنّ لا تخطر على باله.

هل يصدّق عماد، وفي الخلفية جبران، أنّ سلمى جالسة الآن تشرب بيرة سوداء في بدارو، وتكتب ما تكتب؟ دعيني من عماد. هل يقبل جبران بأن يُستخدم الماكبوك الذي دفع ثمنه من عرق جبينه، في كتابة مثل هذه الكلمات الفاحشة؟ كلا وألف كلا. آخر همّي بالطبع. لكن ماذا أريد أن أقول؟ لا شك في أنّني شرّحت طوني أو شربل وعماد وجبران لسبب. وهو ليس لغاية وطنية بالطبع. بل لغاية أساسية في نفسي، وهي حجابي.

لماذا أنا محجّبة؟ هذه نسيتها خلال حفلة اللطم التي خضتها البارحة. لم أكتب: كم مرّة سألت نفسي لماذا أنا محجّبة؟

لكن بجدّ؟ لماذا ما زلت محجّبة؟ ما الذي سيحدث إذا أرخيت طرفيه على كتفي، ثمّ حرّكت عنقي إلى الأمام والخلف والشمال واليمين، من دون انتباه، مثل الصبايا في دعايات بانتين، وسقطت القماشة عن شعري إلى كتفي. ثمّ من دون انتباه أيضاً، سحبت

ربطة الشعر والدبابيس ونفضته مثل الدعاية، وفككت أعلى زر من قميصي؟ من سينتبه غير مارو وميشال ونمر؟ حتى طوني لن يلاحظ هذا الحدث المصيري الهائل والجذري والخرافي والتسونامي الذي سيزلزل ضيعتي والجنوب وسائر المشرق العربي. سيظنّ أنّ واحدة أخرى جاءت وجلست محلَ المحجّبة التي غابت في مجاهلها تجثو وتفتح يديها أمام وجهها فتتحوّلان إلى آيباد تقرأ فيه القرآن.

ماذا سيحدث حقاً يا سلمى؟ بيدك اليسرى، الشيطانية التي بها تمارسين الرذيلة مع حسن وبها تشربين الفودكا وبين أصابعها تحملين سيجارتك (نسيت هذه: المحجّبة بنظر طوني لا تدخن). باليسرى، اخلعي حجابك الآن. هيّا. شيليه عن رأسك. إنّك تشعرين بها الآن. إنّها متوتّرة. مستعدّة. حرّكيها. توقّفي عن الكتابة بها. ها أنت تكتبين باليمنى فقط. هذه اليمنى هي التي تحكي. ضعي السيجارة في المنفضة، وارفعي يدك إلى قطعة القماش وانزعيها عن رأسك. اسلخي هذا الجلد الزائد يا امرأة. اسلخي هذا الجلد الفائض السميك. لا تحتاجين إليه. إنّه يخنقك منذ 14 سنة. أكثر من نصف عمرك. ممّن تخافين؟ من جيران؟ من إلهام؟ من جدّتك المرحومة وأخوالك؟ من غاية المنى؟ من صهرك حسين؟ من قمر؟ من عماد؟ من الله ورسوله والمؤمنين؟ انزعيه الآن وإلّا فلن تنزعيه أبداً. اسلخيه. سجّلي لأناك الآتية في المستقبل، أنّك في تمام الرابعة و47 دقيقة من عصر السبت، وبينما كنت جالسة في ميشاز، وبعد كوبي بيرة على شوكولا، سلخت يدك اليسرى جلداً تكوّم طوال 1400 سنة على رأسك حتى صار جبلاً.

يلّا.

الاثنين 9713

ما أحلاك! جالسة في مقعدك، في وجه شاشتك. تلميذة نجيبة لا تزيح عن السطر. كل الأشياء في مكانها. الكمبيوتر والمقالات التي تنتظر التدقيق، وأنا، وأنت، وأنت الثانية الآتية في المستقبل. وحسن في مكانه، يهندس حيث يجب أن يهندس، وينتظر الفرصة المؤاتية ليتركك. كلّ شيء في مكانه. التقشّر في الحائط الذي يشبه خريطة فرنسا، وإلسي، ومنصور، وسامر... وصوت جاكلين الغراب الذي يتلاءم مع طول قامتها.

كلّ شيء في مكانه. الراتب الشهري يظهر في البنك على الموعد. إيجار الغرفتين اللتين تعيشين فيهما يُدفع على الموعد. يتأخر يوماً أو يومين عن أول الشهر لكن لا بأس. فاتورة الإنترنت. فاتورة الكهرباء. تملئين البيكانتو بالبنزين كلما هبطت الإشارة إلى أقلّ من النصف. تغسلينها مرّة في الأسبوع. ترمين منها عشرات قناني المياه والعصير، وأكياس بربر الورقية وما بقي فيها من لفافات المناقيش والشاورما الملوّثة التي تهيمن رائحتها على المكان. ترمين الكوب البلاستيكي المقرف الممتلئ بأعقاب السجائر التي تجعل مياهه بنّية إلى سوداء تطوف عليها الأعقاب كصراصير عفنة. تعودين

نضرة كما كنت قبل أسبوع. قبل أن يتراخى الأسبوع، وتتّسخ السيّارة، وتذهب رائحة المعطّر المعلق على المرآة أدراج الرياح. وتتكوّم الصحون والأكواب والشوك والسكاكين في المجلى. قبل أن تصير ثيابك تلة صغيرة تنتظر الغسيل. قبل أن يتعفّن الخيار والخسّ في البراد. قبل أن تفرغ قنينة الفودكا في الثلاجة. قبل أن يقذف حسن في الكوندوم ثمّ يصمت ويضجر ويتفرّج على المستجدات الطارئة في سقف غرفته، منتظراً أن تقومي وترحلي إلى بيتك.

كلّ شيء في مكانه. حجابك في مكانه، وحياتك في مكانها، ودماغك في مكانه، وهذه الموسيقى التي أرسلها سامر إليك، في مكانها، في السمّاعتين اللتين يرهقك ضغطهما على أذنيك أسفل قماش رأسك. عمرك أيضاً في مكانه. 26 سنة، على وشك الـ27. ماذا فعلت؟ لا شيء. تخرّجت وعشت عاطلة من العمل سنتين ثمّ توظفت مدققة لغوية. سي في خارق! مذهل! ها هم حولك. حسن ناجح ويتطوّر، وربما تتطوّر، وسيتزوّجها أحمد، وهو ليس أشقر بعينين زرقاوين فحسب. إنّه ابن تاجر عقارات وأشياء أخرى. فاحش الثراء وينتظر منها فقط أن توافق. فقط أن توافق. أنت تنتظرين من حسن ألّا يتركك. وتخافين من يوم تطردك فيه جاكلين وتضطرّين إلى العودة تحت عباءة أمّك وجبران. ما الحلّ يا سلمى؟ أعينيني. كيف أخرج من كلّ هذا؟ أنت تصيبينني بالضجر للمناسبة. هذا اللغو الذي بلا طائل. اللغو حرام يا سلمى. تذكري دائماً أنّه حرام. أم هو مكروه؟ الأرجح أنّه مكروه. النميمة حرام. اللغو متنفسي الوحيد. من دونه أموت. وأنت لا تريدين منّي أن أنزل إلى القبر وأسأل من وليّك يا عبدة الله، وأحار جواباً. يجب أن أستعدّ، حين أعود إلى ربّي راضية مرضيّة. يجب أن أكون قد تحضّرت للامتحان العسير. هل أنا، الفاسقة، حاضرة لذلك؟ لا. لست فاسقة فقط. أنا فاسقة ومنافقة. أعيش في النفاق. ليس

أنني أقارع الخمر وأمارس الفحشاء والمنكر والحشيش. بل أنا، فوق كلّ هذا، ملحدة كحصاة. حتى الحصاة ستسجد لربّها يوم القيامة لأنّها تؤمن، بينما أنا لا أؤمن. ومع ذلك، لا تجرؤ يدي، اليسرى، حبيبتي، على أن تشيله عن رأسي. يلّا. خلينا نبلش جولة جديدة. انزعي حجابك يا امرأة.

لا. ليس بهذه السهولة. إنّه معي مذ كنت طفلة. سوا ربينا. أقرب إليّ من أبي ومن أمي ومن جبران وغاية المنى وقمر. صديقان نحن. نخرج في الصباح معاً، ويظلّ معي طوال النهار. منذ 14 سنة ونحن نتصوّر معاً. يلتصق بي. يصنع هوية وجهي. ينعكس لونه على بشرتي. يحدّدني. يخلقني. نزعه أصعب عليّ من عملية تجميل للأنف. سأصير، فجأة، مخلوقة أخرى... ليس بهذه السهولة يا سلمى. لا يمكنني أن أمدّ يدي إليه وأشيله. ليس هكذا. ليس بدون احتفال أو عزاء. تظنّين الأمر بسيطاً. أن أمدّ يدي اليسرى إليه وأنزعه هكذا وأرميه؟ أيّ وفاء للعشرة؟ للصداقة العتيقة؟ أيّ وفاء؟ أشطب 14 سنة من عمري هكذا؟ ألغيها كأنّها لم تكن؟ حتى يدي ترفض أن تتّخذ مثل هذا القرار. دعك من جبران. دعكِ من إلهام وغاية وقمر. دعك من صهريك ومن زوج خالتك، ومن ابن بنت عمّتك في البرازيل. ومن رأس النبع وفرن الشباك ومن حسن وجاكلين والكوتش جو وريما وشيرين. ارمي خلفك جيوش البشر. هل أنت مستعدّة لقتل توأمك السيامي هذا، الآن؟

ليس بعد. كلما تحوّلت إلى سلمى الثانية أمام المرآة، وأنا أضعه على رأسي، فكرت فيه. كلّ يوم. كلّ يوم. كلّ يوم. أنظر إليّ كيف أتحوّل وأفكّر: «شو عم أعمل؟». لماذا آخذه معي حيث أذهب؟ أحمله على رأسي وأخرج. ما دمتِ تحت السماء، فهو فوقي. حاجز

بيني وبين الشمس والغيوم والمطر. سقفي. أنا لا أعرف شعري. ليس أنّي أكره شعري. لا أعرفه. كأنّه مؤقت. يختبئ في داخلي. شعري. ناعم وأسود ولامع لكنني لا أعرفه، كأنّ الذي بيننا علاقة زمالة في العمل. حين نكون وحدنا أعطيه ما استطعت. أدلّله. أغسله بأحسن نوع شامبو وكونديشنر. وأجففه وأمشطه. أحافظ على أطرافه من دون تقصّف. أذهب شهرياً إلى سميرة لتقصّ أطرافه وتعتني به. ربما تتغزل به. حسن أيضاً. قمر تحسدني عليه. لكنني لم أحبّه يوماً. كأنّه ضيف على رأسي. ضيف سرّي لا يراه أحد. كأنّه وهم. أنا وحدي من يراه. وحين أغمض عينيّ يختفي لأنّه غير موجود أصلاً. في أحلامي أنا محجّبة. لا أرى نفسي لكنّني أعلم أنّني بينما أخوض في الحلم، أكون محجّبة. لقد رأيتني مراراً، أنظر في أوراق الامتحان، وأعجز عن الإجابة وأفكر بأنّني سأرسب في البكالوريا، وسأعيد السنة. مراراً. كنت دائماً محجّبة. وكنت دائماً أكرّر الخوف والنظر في ورقة الامتحان. حتى تلك الكوابيس الخسيسة التي أجدني فيها عارية. يكون على رأسي، أو هكذا أفكّر. إذا ركزت في مسامّ جلدي فسأشعر به. أعصابي اتّصلت به، وأوعيتي الدموية. إنّه مخلوق حيّ. يتغذى من دمي. يكبر معي، يوماً بعد يوم. يسمع أفكاري ويقرأني الآن بينما أكتب. إنّه أناي الثانية. كأنّه يعيش في داخلي. أنا حامل منه لكنني لن أنجبه. سنبقى هكذا إلى الأبد. أنا الأم وهو الذي لا يولد. يرفض أن يولد لأنّه سيموت لحظة يلفظ نفسه الأول. سيلفظهما معاً، النفسين الأول والأخير. باقٍ في رحمي وعلى جلدي. ديني. رسولي. كتابي. سجّاني وسجيني. جنيني الذي لن أجهضه ولن ألده. جنيني الدائم السرمدي. الذي خارج المكان وخارج الزمان. لا تسعه سعة... طفلي. ربّي. شيطاني.

الاثنين...

ليلاً، في البيت.

حبيبتي سلمى.

أنت تندبين يا صديقة. جالسة في صدر الدار تشقين الثوب وتلطمين. ما لك يا أخيّة؟ ما لك؟ الكوكب لا يدور حولك، والعالم لا يختفي حين تغمضين عينيك، كما كنت تظنين طفلة. يا سلمى، يا أناي الوحيدة، يا قلبي ويا قالبي ويا بدايتي ومنتهاي. يا ذات العينين البنّيتين (للأسف)، افتحي صفحة جديدة. تذكرين دفاترك التي في الصندوق أسفل سريرك في الضيعة؟ الدفاتر التي كنت كلما احتجت إلى واحد جديد منها، سألت أباك، فإذا به يرتدي قميصاً فوق البيجاما، ويمشي بالشحاطة إلى دكان أبو حسين ليجلب الدفتر، «خط خط». كم دفتراً في صندوقك؟ كل مرّة كنت تتمدّدين على السجادة. تدوّرين الدفتر في يديك. تلمسين غلافه. تنظرين إلى طرفه الأبيض المشدود. يجب أن يكون جديداً. ثنية واحدة فيه. يد عبثت به. فتحته. لا تعودين تطيقينه. والأستاذ عبد الكريم لا يسحب الدفتر الأول، كنت ترينه عندما تشتريان الدفتر معاً. يمدّ يده إلى منتصف الكومة ويسحب لك الدفتر الذي لم يُلمس. كلّ مرّة تبدئين من جديد. يوميّات سلمى (١). يوميّات سلمى (٢). في المربّع الأبيض على الغلاف. ثمّ تكتبين اسم صفّك. الرابع الابتدائي. الخامس الابتدائي. الأول المتوسّط. كنت تقيسين عمرك بالصفوف. ولا دفتر منها اكتمل. عودي إليها دفاترك العتيقة. ستجدين أنّك رقّمت عشر صفحات فقط، ثمّ انقطعت عن الترقيم، ثمّ انقطعت عن كتابة اليوميّات وعن نسخ القصص من مجلّات المختار، تلك الصغيرة المرصوفة في المكتبة. تضجرين من الدفتر حين يصير

عتيقاً. هذه أنت. لا تحبّين العتق. تكرهين، أكثر ما تكرهين، الغبار. تحبّين الدفاتر لا لتكتبي عليها بل لتلمسي جِدّتها. ككتب المدرسة. كالشنط. كسيّارتك التي همت بها في الشهور الأولى، ثمّ حين هزمك غبار بيروت والنكزات على أطرافها صارت وسيلة نقل وتكويم أغراض ونفايات. كما شقتك الصغيرة. كما كلّ شيء.

أنت بحاجة إلى دفتر جديد، تضعين فيه أولوياتك، وتلتزمين بها هذه المرّة. لنقل إنّ هذه اليوميات التي تكتبينها هنا هي دفترك. تلتزمين ببقائهما لامعين، الماكبوك والآيفون. لهذا ربما، أنت مستمرّة في كتابة هذه اليوميات، لأنّك هذه المرّة تستمتعين بالكتابة على الدفترين الإلكترونيين الجديدين دوماً.

ضعي لائحة أولويّات. أشياء ستفعلينها قبل الثلاثين:

1- يصير جسمي أحلى.

2- أنال شهادة ماجستير.

3- أقلع عن التدخين وعن الفاست فود.

4- أسافر.

5- أخلع حجابي.

6- أجد عملاً جديداً.

7- أحسم علاقتي بحسن.

من أين أبدأ؟ من الشقة؟ أنظفها وأرتّبها وأرمي كلّ ما لست بحاجة إليه، وأفرغ البرّاد من كلّ مساوئ الأيام ومن كلّ ما تعفّن. لا. لن أغرق في التنظيف. سأبدأ من يومي نفسه. أقوم عند الخامسة صباحاً وأنزل إلى الكورنيش لأمشي.

الثلاثاء 9714

عين المريسة.

أجلس على المقعد المزخرف الذي يشبه سمكة. إنّني طازجة. أنظر إلى البحر وأكتب. أكافئ نفسي بعد ساعة المشي بسيجارة وقهوة. حسناً، لم تكن التجربة مثلما توقعت. أعني. استيقظت بصعوبة لكنّني أجبرت نفسي على الخروج عند الخامسة والنصف من البيت. في أقلّ من عشر دقائق وصلت. لو أنّ بيروت تظلّ هكذا دائماً. سيّاراتها في الصباح أكثر حناناً. يمكن لصوت فيروز أن يصلني من سيّارات السرفيس! يحتلّ صوتها المدينة ومزاجها إلى أن نخرج جماعات إلى حيواتنا. كأنّها مدينة لعنتها ساحرة شرّيرة. تكون مثل القمر قبل الساعة السابعة. هواؤها عليل. أرصفة حقيقية على جوانب الطرق. عصافير تزقزق حتى، وأشجار. وجوه الناس ليست ضاحكة لكنّها على الأقل ليست عابسة. ناعسة ولطيفة وفيها سمات طفولتها. كلّ هذا سيختفي بعد قليل. يتلاشى صوت فيروز وتصدح الزمامير وتختفي الأشجار والعصافير وتتّسخ الطرق وتهجم السيّارات على الشوارع مثل الوحوش. ويعبس الجميع، بمن فيهم أنا، ونشتم بعضنا بعضاً علناً وسرّاً. ويصفّر الهواء وينفلش الغبار ويختفي البحر.

لم أكن أعلم أنّ بيروت الثانية هذه موجودة. الطري. هذا بحر. والكورنيش مغسول ونظيف. لا بقع نيسكافيه ولا قشور ترمس. ركنت السيّارة ووضعت السمّاعتين في أذنيّ كي أكمل الحديث الذي بدأته فيروز معي في السيّارة ورحّب الهواء بوجهي ورحّب وجهي بالهواء. لكنّني بعد بضع خطوات وقفت وسحبت السمّاعتين لكي أسمع وأرى ما يفعله هؤلاء. إنّهم يتدرّبون معاً. أصغرهم في الخمسين. وأكبرهم، ربّما، الرجل الذي يقف في مواجهتهم محرّكاً خصره: «شمال. يمين. شمال يمين. وهوب!» لم أستوعب ما هي الهوب. كأنّها برمة الخصر. يقلدونه. نساء يرتدين بيجامات رياضة ويضعن المكياج، وسلاسل ذهبية تتدلى من أعناقهن. ورجال مغتبطون. هذا هو الوصف الأدق. مغتبطون. يرفعون أذرعتهم في الهواء وينزلونها. «فوق. تحت. فوق. تحت... وهوب!».

يا الله! يمكنني أن أتفرّج عليهم كلّ النهار. إفراط في السعادة لا أجد مثله إلّا في جلسات الحشيش. حتى الحشيش لا يفرح القلب هكذا. يضحكني لكنّني، في الطبقة السابعة من ذهني أظلّ أسمع صوت كآبتي ومخاوفي. هؤلاء! انتابتني رغبة شديدة في الاقتراب منهم ومعانقتهم واحدة بعد واحد. لم أفعل. حتّى إن واحدة منهن، نحيلة ضحكتها تملأ وجهها، مدّت يدها صوبي وطوت أصابعها مراراً تدعوني إلى الحلقة، وضحكت لها وهززت رأسي رافضة، ثمّ لوّحت لها بباي، وردّت لي التحيّة ومشيت.

السابعة و43 دقيقة. عليّ أن أذهب الآن. سأكمل الكتابة في المكتب.

بونجور بيروت ☺.

الثلاثاء...

في المعتقل.

تغذّيت سلطة مع صدر دجاج مشويّ، واكتفيت بشرب المياه. الثالثة عصراً ولم أدخن غير ثلاث سجائر. أنا فخورة بك يا سلمى. اليوم سأغادر العمل مباشرة إلى الجم. نكمل حكاية مشوار الصباح بقرب البحر؟ طيب. مشيت ساعة! اكتشفت خلالها أنّ المشي لا يجوز إلّا حين تكون الواحدة وحدها. وكانت مناسبة لطيفة لأن أحكي مع نفسي. لا أعاتبها ولا أعنّفها ولا هي تتخانق معي. مشينا وحكينا. ثرثرنا. الرصيف واسع وشبه خالٍ. امرأة يابانية تمشي على رؤوس أصابعها، أسفل قبّعة حرفها الأمامي يصلح مظلة كبيرة. دبلوماسية. علاقتها بزوجها مستقرّة، لكنها تحلم بطفل، وبالزهور التي تملأ الأشجار في ربيع بلادها.

ثلاثينية، محجّبة مثلي، لكن بألوان زاهية وبحمرة شفتين دم عفريت. الكريم يلمع على خديها تحت نظارة شمسية هائلة، تمشي مع فتاة ممتلئة، تضع آيلاينر أزرق فاتحاً فوق بشرة شديدة البياض. زميلتا عمل. مكتب سفريات.

واحدة تركض. تربط شعرها وترتدي شورتاً قصيراً. طالبة هندسة في الجامعة الأميركية. تضع في ذهنها خطوطاً جديدة على مشروعها. تحلم، لكن بإصرار. جسمي سيصير مثل جسمها يوماً ما.

رجل وامرأة متشابكا الأصابع. كتفاهما متلاصقتان وذراعاهما مطويّتان أمامهما. أصابع الكفّين المتشابكة تلتقي عند مستوى صدريهما. يمشيان بتوتر. كأنّهما الضحيّتان اللتان اختارهما كهنة القرية لتقديمهما قرباناً للبركان اتّقاءً لغضبه. كأنّ فوهته تنتظرهما عند تمثال جمال عبد الناصر. خمسينيان. خارجان من تجربتي زواج

فاشلتين. لكلّ منهما أولاد مسافرون إلى الخارج. أستاذان في الجامعة اللبنانية. تزوّجا عن حبّ، ودرءاً للوحدة.

مراهق بجينز ضيّق، وبوكسر أحمر، يلفّ ساعده على عنق مراهقة بفستان واسع طويل، أحمر وأبيض، وحجاب أحمر وأبيض. لا أرى سكربينتها. ينحنيان على الدرابزين ويضع فمه في أذنها. خطيبته. تعمل في سوبرماكت. وهو ميكانيكي سيّارات. لقد استأجرا غرفتين بثلاثمئة دولار في الشهر. يمازحها بأنّه يريد خمسة أولاد. ترفض ضاحكة. تريد بنتاً واحدة تسمّيها يارا. أكمل طريقي. ومع أنّ فيروز في أذني تحجبني عن صوت العالم، أسمع صوت القبلة التي سرقها من شفتيها. أسمع صوت الصفعة الرقيقة على كتفه. أسمع دقات قلبها تسارعت بفرح. وأحثّ الخطى كي لا تبلّلني هرموناتهما التي انهمرت منهما وجرت خلفي في نهر كبير.

أرى رجلاً يجلس على مقعد طويل. بقربه ما يشبه سجّادة صلاة. عليها علب دبكة وشوكولا أونيكا وعلكة غندور. ستيني. إنّه رجل يجلس على مقعد. بقربه سجّادة صغيرة يفرش عليها علب دبكة وأونيكا وعلكة غندور. أراه في ذهابي صوب الحمّام العسكري. بعده لا أرى وجوهاً، أو لا يعود يعنيني. أصل إلى فسحة بالقرب من المنارة الجديدة. أرى مراكب صيد وعشرات القطط. إنّها تنتظر خبراً نيئاً وسعيداً له رائحة البحر والملح. أعود. أجد الرجل جالساً. أقف بالقرب منه وأسحب سمّاعتي الأذن:

– صباح الخير.

– صباح النور عمّو أهلاً وسهلاً.

– بدّي لوح أونيكا بليز.

– تفضّلي عمّو تفضّلي.

يناولني اللوح. أناوله، بيد مرتجفة، خمسة آلاف. «شكراً عمّو»، وأمشي بسرعة، متداركة خجلي لأنّه فهم أنّ الأونيكا حجّتي لأعطيه الآلاف الخمسة. يأتيني صوته من الخلف: «الله يخليلك أهلك يا عمّو». يندفع الدمع من عنقي صعوداً نحو عينيّ، وينحبس فيهما. في عمر أبي، وفي مثل تجاعيد وجهه.

الثلاثاء...

التاسعة و10 دقائق. في السرير.

كلّ ذرّة، كلّ خليّة، كلّ عضلة فيّ تؤلمني بسعادة مطلقة.

عينٌ تفتح وعينٌ تغمض. إنّني على وشك الوقوع في كوما النوم. ليس قبل أن أخبرك بما بقي من هذا اليوم.

من العمل مباشرة إلى الجم، وحدي، من دون ريما. استقبلني جو بضحكته الناصعة البشوشة. استعذت بالشيطان كعادتي، وصدق توقعي. بعد خمسين دقيقة من التعذيب المتواصل، كنت قد بدأت أتخيّل نفسي زاحفة بصمت بين السيقان والآلات، هاربة من المكان، ومن بيروت، ومن البلد كله. لا. من المستحيل أن يحدث معي في كندا ما حدث معي في الجم. إنّه ذنب بشري. يلّا هلأ على التردمل... وبدأت الهرولة. تمام... بس لازم نرفع ركابنا أكتر. هيك إيدينا بيشتغلوا. يلّا. بدنا نشدّ حالنا... برافو. «بعد خمس دقايق بس»، ثمّ، بعد سبع ساعات ونصف، «يلّا برافو. بعد عنا أربع دقايق».

لم أفهم لماذا ينظر إلى ساعته أصلاً. لماذا يستحي من مواجهة ضحيّته؟ من النظر في عينيها؟ يلّا مرنتاح خمسين ثانية بعد الكورديو. ثمّ انطلقت، أطلقني بالأحرى، في الحركات. فكّرت أن أتوسّل إليه، العفو عند المقدرة عبادة يا جمال الدين. أليس عندك أولاد؟

مسح بي الأرض. حين انتهى مني، كنت مبلّلة. خجلت بقميصي الذي تبقّع، ومنديلي، وحياتي التي تبعثرت أمام عيني. لكن، تعلمين؟ كنت فخورة بنا. لقد تحدّينا أنفسنا العديدة. كلما أحسست بأنني على وشك الوقوع والاستسلام، لاحت لي صورة التي كانت تركض صباحاً على الكورنيش. لن أدعها تكون أحسن منّي. حين انتهيت، كان هرمون السعادة يطوف منّي، مختلطاً بهرمونات الآلام على أنواعها. الآن، بعد الحمّام الطويل الساخن، أحسّ بأنّي أمتلك العالم، لكنّني عاجزة عن رفع ذراعي للمسه.

للمناسبة، تطوّرت علاقة تبادل النظرات بيني وبين زياد. رماني بابتسامات متفرّقة ورميته بنظرات أظنّه فهمها نداءات استغاثة من الكوتش. أنا حلوة وعارفة حالي. لكن. ماذا! هذه ليست خيانة. مجرّد اهتمام بريء. ثمّ إنّه مدرّب بدوره. مدرّب ذو ضمير حيّ، لم يرفع يديه عن التي يدرّبها. يضعهما فوق يديها فوق قضيب الحديد يجذبانه معاً، نزولاً، صعوداً، نزولاً صعوداً، حتى يتأكد من حركتي كتفيها الصحيحتين، لمسة عليهما، وتعديلهما، ثمّ لمس أسفل ظهرها، لم أفهم الغاية الرياضية من هذه اللمسة بالتحديد. وهكذا. وهي لا تمانع. حتّى إنّها وقفت تصوّره لوقت طويل وهو يحكي معها ويشرح لها كيفية استخدام الآلة، وعضلاته تنقبض وتنتفخ، مثل وجهي وأنا أنازع.

حسن، يمكنني أن أقول من دون تحميل ضميري ذنباً كبيراً، غير راضٍ تماماً عن الجم. فجأة لم يعد الواتس آب ينقطع. رسالة بعد رسالة. شو؟ كيف العضلات؟ صوّري حالك. تعي نطلب كي أف سي مع بيرة بلا هبل. شو؟ مطوّلة؟ رح شوفك اليوم؟ شو؟

إنّه يغار. لا بأس.

جوعانة. ساجهز على ما بقي من جاط السلطة، ثمّ أغسل أسناني، وأقبّل نفسي على فمي، وأعود لأنام. هذا إذا قبلت ساقاي بالتحرّك. لكنّني أشك.

الخميس 9716

لم أمش البارحة، ولم أكتب. بمعجزات خرجت من البيت ووصلت إلى المكتب وعملت وصبرت على إلسي وضجيجها. بعد العمل خرجت حتى الثامنة مع حسن. أكلنا لحمة بعجين من بربر وشربنا قهوة في كاريبو. كنت متحمّسة لأن أخبره عن تجربتيّ الجديدتين، المشي والجم، لكنّه صدّني بلامبالاته. خلط الجدّ بالمزاح بالسؤال عن الشبّان وسخرت منهم بالجملة كي أهدّئ من روعه. أنا بحاجة إلى طاقتي الإيجابية المستجدّة ولن أدعه يبدّدها بتشتيت تركيزي.

الغريب أنّ اهتمامه المفاجئ هذا يترافق مع عدم اكتراث عام بعلاقتنا. نادراً ما يجد نفسه مضطرّاً لأن يحكي عن المشاريع التي يعمل عليها في الشركة. إنّها «مشاريع لدبي»، أو «لأبو ظبي». مهندسون يعملون عن بعد، لا أفهم كيف. أنا لم أكترث يوماً بفن العمارة، وهو لم يكترث يوماً بفنّ التدقيق اللغوي. هو لا يكترث بالأدب والروايات وأنا لا أهتمّ بالسياسة. هو أيضاً لم يعد مهتمّاً بالسياسة. في المجمل، حين نكون معاً في شقته، فنحن لا نحكي كثيراً. إمّا نشاهد أفلاماً أو نمارس الحشيش والرذيلة. لا أتذكّر متى خضنا حواراً حقيقياً. أعني، أنا أدلّله ما استطعت إلى تدليله سبيلاً. أجدني دائماً أفتّش

في لحيته وحاجبيه وشاربيه عن شعرة متمرّدة، لقفف بعكس القطيع. أحياناً يكون رأسه في حضني وهو مستغرق في هاتفه، وأنا مستغرقة في أحلام يقظتي، وفجأة ينتفض وجهه كله، فأنتبه إلى أنّني أكبس بأطراف أصابعي على رأس أسود في أنفه. عادة سيّئة ورثتها من أمّي ربّما، أو منّي. حين لا يكون هناك كلام أستغلّ الوقت في تنظيف بشرة حبيبي من البثور، وهو لا يطيق وخزاتي القاسية التي هي في آخر المطاف لمصلحة بشرة صحّية معافاة. يصطفل.

لا نحكي. غالباً ما أشتاق إلى ريما حين أكون وحدي مع حسن. الملعونة! حين يمرّ يومان من دون أن أراها أفتقدها. ليس لأننا نحكي كثيراً، بل ربّما لأنني لا أشعر بثقل الصمت إن لم نجد ما نحكي عنه. يمكننا أن نمضي 67 ساعة معاً من دون أن نشعر بنقص اجتماعي. وإذا حضر الحشيش، وهو غالباً حاضر، تنهمر الدموع على الخدود شلّالات. كلّ سيجارة عند ريما ذهول جديد بحواسّها. يمكن أن تمضي الليل كله في شمّ معصمها، والتغزّل بعطرها. يمكن لليلة أخرى أن تنقضي وريما جالسة تتناول الرقائق من كيس التشيبس وفق الطقس نفسه. تغيب يدها في داخل الكيس، كأنّها تحاول التقاط سمكة في إكواريوم، ثمّ تخرجها ظافرة برقاقة. ترفعها إلى وجهها وتفتح عينيها فيها وتضحك لها طويلاً. وقد تسألها: «وين كنتي؟»، ثم تفتح فمها بمقدار يتّسع لرأس بطاطا كامل، لتضع الرقاقة على لسانها. ثمّ تغمض عينيها وفمها ببطء، وتروح تمضغ بأبطأ. يعنيها صوت تكسّر الشيبس في فمها أكثر ممّا يعنيها الطعم. آخر مرّة كنت أراقبها، مستغربة في البداية كل هذا البحث عن القطعة في الكيس، ثمّ، حين حدّقت في يدها بينما تخرج منه، أرعبتني أن تكون أصابعها خالية، وأنّ الكيس فرغ. وانتظرت بينما أراها ترميها في مغارة وجهها، وقد جزمت بأنّها

القطعة الأخيرة، فصرخت فيها «تفو عليكي». أتاني صوتها مختلطاً بصوتِ البطاطا المقرمشة: شو فيه وليه؟

– ناطرتك صار لي ساعة ومادّة إيدي تطعميني.

– وليه ما قلتي؟

– كنت عم أتطلع.

– وين؟

– بالكيس.

– إيه

– شو إيه؟

– ها؟

بعدها حاولت أن أشرح قضيّتي، لكن الضحك الأبله غلبنا.

أعلم لماذا تخطر على بالي الآن. أشعر بالذنب تجاهها. إنّها مذ تعرّفت إليها في الجامعة أحسن منّي. هي التي كانت تبادر نحوي، وما زالت. هي التي لا يمرّ يوم من دون أن تتّصل بي أو تراسلني. هي التي تستنفر حين يصيبني مكروه ما، من الرشح إلى انفصالنا أنا ووسام. إلى حكايات ليلى والذئب مع حسن. هي التي تصرّ على مرافقتي حتى إن كنت أريد أن أغسل السيّارة أو أتسوّق للبيت. ولا مرّة قالت لي كم تحبّني ولا أنا قلت لها. ومع ذلك، أفكّر الآن بأنّه يمكنني أن أخسر أيّ شخص في حياتي لكنّني قد لا أتحمّل خسارتها. ولا أجتهد من أجل هذه الصداقة. لماذا تريدين الاجتهاد؟ دعي هذه العلاقة على ما هي عليه. ماذا ستقولين الآن بعد كلّ هذه السنوات؟ اكتشفت أنّ الذي بيننا ليس مجرّد صداقة ويجب أن نعيش زوجة وزوجة لما بقي من حياتنا؟ ما بكِ؟ حسناً. عرفت. ربّما أنا بحاجة لأن

أشعر بأنّ هناك من يحبّني. أبي وأمّي وإخوتي وصديقتي. كي أخفّف من شراء أحذية الكونفرس على الأقل.

أنا أحبّ ريما كثيراً. أحبّها أكثر ممّا أحبّ اللبن إمو بلحم الغنم الذائب التي أنوح عليها عندما تطبخها إلهام. أحبّ ريما أكثر ممّا أحبّ المجدّرة الحمرا. أكثر من السكس بعد تدخين الحشيش ومع آهات ثومة. أحبّها أكثر من شعر أبي الطيّب المتنبّي وأحمد شوقي. أكثر من عينيْ رشدي أباظة...

إنّني أرغي.

الأحد 9719

الخامسة صباحاً في جنينة البيت في الضيعة. السيجارة الثانية بعد علبة ونصف أمس.

أتعرفين؟ أشعر بأنّني لن أكمل الكتابة. سأهمل هذه اليوميات كما أهملت غيرها. ضجرت.

الأحد، الرابعة والربع بعد الظهر، حول غرفتي، أدخّن...

اسمعي. من يوم الجمعة وأنت هكذا. تدخنين وتختنقين وترين العالم سرطاناً كبيراً. يا الله، حين يسقط طرفا شفتيك إلى أسفل وتذبل عيناك كم يصير دمك ثقيلاً يا سلمى. يومان وأنت تنامين عند الفجر وتفيقين بعد الظهر، وتظلّين وحدك. لا يحقّ لك. إنّهم يحاولون معك. غاية وقمر وعبد الكريم وإلهام. لا يحق لك.

ليس بيدي. والله العظيم ليس بيدي. جسمي كله يوجعني.

طيّب. ماذا؟ كنت تعرفين أنّه يتحيّن الفرصة للانفصال عنك. كان يبحث عن حجّة. الجمعة كان اليوم المناسب له. الجمعة الذي

لم يمرّ أسوأ منه في حياتي... اكتبي. إذا كتبنا فربّما يخرج السمّ من السيستم قبل أن يقتلنا.

لا أفتح غروب «الفاميلي» حين أفيق صباحاً. لا أحبّ صور الورود ولا الأدعية والآيات القرآنية والتعاويذ التي ترسلها أمّي إلينا مطلع الفجر. ولا أستسيغ النكات المصوّرة التي تتنافس غاية وقمر على إرسالها. وتزعجني مواعظ جبران الغبيّة الآتية بدورها في صور من ألمانيا. لا أحبّ تعريض نفسي لقلة الذوق الهائلة هذه في الأقوال والرسوم والنكات الملآنة بأخطاء نحوية وإيموجي تسقط منها دموع الضحك. توتّرني. «الفاميلي» مفتونة بها. وأنا ضيفة شرف لا أشارك منذ وقت بعيد. أغلقت الفايسبوك كي لا أتعرّض للفيديوهات الدموية والمجازر اللغوية، والقصائد والحكم التي تغرقنا بها جموع الفلاسفة كلّ صباح. لا أريد التعرّض للهراء المجّاني، والفايسبوك هراء محض. الهراء نفسه لحقني إلى غروب العائلة الذي لا يمكنني الفكاك منه. أفتحه مساءً وأقلّب فيه بسرعة ثم أغلقه من دون أن أقرأ. صباح الجمعة رأيت مجموعة من التسجيلات الصوتية المتعاقبة. يبدو أنّ حدثاً ما وقع. سمعت الرسالة الأولى من جبران. أخبرنا فيها المفاجأة الكبيرة: سيأتي ليمضي رمضان والعيد معنا. وزينب والأولاد سيلحقون به قبل حلول العيد بأيّام. هلّلت أمّي بداية، ثمّ لحقتها ريّا وسكينة.

عاندت نفسي لأسجّل ترحيبي وما استطعت. فكتبت: «يلّا ناطرينك».

من وراء قلبي، أعلم. رمضان مناسبة لطيفة في الضيعة أترك فيها لشأني طوال النهار. أساعد في إعداد وجبة الإفطار. نجتمع كلنا حولها بصهرينا العزيزين والقرود الخمسة وأبي الذي يكون

سعيداً بإطعام هذه الأفواه جميعها مع أنه لا يصوم. حجّته الذكيّة والوقحة أنّه ليس معذوراً في إفطاره لذا فهو لن يستتر. الشقيقتان تعرفان حقيقتي. الأمّ تعيش في إنكار. إن صادف أن رآني حسين أو عماد أشرب ماءً أو ألتهم عروس لبنة مع خيار وبندورة لا يسألان. لن يذهب دماغهما أبعد من «جايتها». حسناً قد تجيئني ثلاث مرات في الشهر، وفي عطل نهاية الأسبوع. لا دخل لهما. الأخ جبران لم يجرؤ أحد على إخباره بعد بما آلت إليه شقيقته الصغرى وهو الذي أدخلها في دينها وأقنعها بالطبقة الإضافية من العفة والطهارة. كيف يصدّق أنّها باتت لا تصلّي ولا تصوم. من يجرؤ على أن ينطق بكلام كهذا للتقيّ المغترب؟ مستحيل. جبران غير مقدور عليه. إنّه ينظم حياتنا عن بعد مستخدماً أساليب التواصل الحديثة: فايستايم وواتس آب. يراقب صفحاتنا على فايسبوك مع أنّ أمّي وشقيقتيّ لم يضعن ولو صورة واحدة لهنّ فريسة عيون الوحوش الجائعة... يكتفين بصور قرودنا الجميلة، والورود وتعميم أقوال الأئمّة ومظالمهم وصور مراقدهم، وبضع حقائق علمية عن القصور المذهّبة التي تُبنى في الجنّة لمن ذرف دمعة بحجم جناح بعوضة حزناً عليهم، وهم سادتنا. أنا أغلقت الصفحة. لن تفرحه صوري بشعري الذي يبدو طرفه أحياناً أسفل الحجاب، وكمّي قميصي المرفوعين عن الرسغين المقدّسين.

جبران على العكس من أبيه، يحشر أنفه كلّه في شؤوني. ولأنني لم أقمعه، فهو لا يفكّر مرّتين في ما يريد قوله لي. لا يسأل بوقاحة، بل يوجّه اتهامات: «بتخلّي شعرك يبيّن؟» يسألني في الغروب إذا أرسلت أمّي صورة جماعية فأجيب بأنّ الصورة في الجنينة، وأنّني «من زمااان بطلت خلّي شعري يبيّن». جوابي لا ينجيني من سخريته. وأحتار في ما إن كنت أترفّع عنه أم أخاف منه. لكنّني أسكت، أعلم أنّني أسكت عن حقي.

هذه المرّة سيبقى شهراً كاملاً، وأنا لا أدري ماذا سأفعل. ليس أنني سأكون مجبرة على التدخين والشرب والأكل سرّاً فحسب، بل سيكون عليّ أن أدّعي أنّني أتوضأ وأن أدخل غرفتي على اعتبار أنّني سأصلي. يمكنني أن أكون على حرّيتي في عطلة واحدة. الحيض والعياذ بالله. لكنّني إذا حضت في الأسابيع الثلاثة التي تليها، فسيخاف عليّ جبران من فقر الدم الشديد لأنّ قلبه عليّ. وسيتّهمني: «بتصوميش»، وسأردّ: «أنا؟ أستغفر الله العظيم كيف ما بصمش». وسيتدهور مستوى الحوار. وسأضجر من حياتي ومن نفسي. وسيلقي نكتة لمّاحة كهذه: «جماعتنا بيقولوا إني مش أنا». وسيضخم مخارج حروف الـ«أنا» فتبدو خارجة من كهف مظلم. وسأبتسم له.

حسناً. هالت عليّ زيارته الطويلة هذه، فهو ما دام في البيت، ولم يخرج للقاء أصدقائه القدامى، أو للصلاة في الجامع، يجالسني وحدي معظم الوقت. من الواضح أن لا جملة واحدة مفيدة يمكن أن يركّبها هو وعبد الكريم حين يحكيان. حكيهما معظمه إشارات سريعة وإبلاغ للطرف الآخر بما سيفعله كلّ منهما «بعد شوي»، أي بعد قليل من جلوسهما معاً. وأمّي في المطبخ أو تنظف البيت، أو في قيلولة. أنا في وجه جبران وجبران في وجهي. لا شيء، حرفياً لا شيء مشتركاً بيننا إلّا تلك الذكرى السيّئة عن السجادة ودروس الدين والحجاب. وسأقوم مرغمة وقت السحور وأجبر شفتيّ على الإفراج عن ابتسامات عصيّة أساير بها تعليقات جبران المهضومة على سحور أمّه. يا الله. الآن أتذكّر كلّ هذا، لكنّ الأكيد أنّه باغتني لحظة عرفت أنّه آتٍ. وقد ردّ برسالة صوتية غريبة لوت عنق نهاري من أوله: «مش مبيّن عليكي محمّسة متل إمك وغاية وقمر يا سلمى». وضحك.

النهار السيّئ يبدأ سيّئاً من أوله. وصلت إلى العمل، وكانت إلسي في حالة هياج سببها واضح. جاكلين لم تأت اليوم. ولأنّه لا مقالات تترجمها إلسي، ولا رقيب فوق صوتها، عاشت يومها كأنّها مع جدّها والكلب يصطادون الطيور. بعد ساعات من الصبر بات صوتها يحدث ثقوباً في رأسي. وبقيت عاجزة عن فعل شيء إلّا الصراخ كتابة لسامر المسكين. حين غادرت إلسي، وقع ذاك الصمت المفاجئ الذي يحدثه توقف مولّد كهرباء عن العمل. استمرّت بقايا الضجّة في رأسي لثوانٍ كانت كافية لتؤكد لي كم انغرست كإبر تحت أظافري.

هربت بدوري قبل انتهاء الدوام بساعة... إلى البحر. كان هواؤه زنخاً تفوح منه رائحة المصبّ الذي لم أجد مكاناً فارغاً إلّا قريباً من نسائمه العليلة. بينما أدخن قرفانة من الطعم الحلو لفنجان النسكافيه، أجفلت على صوت: «أدّيه الساعة إذا سمحتِ». بالكاد نظرت بطرف عيني فإذا به جغل على درّاجة نارية كبيرة. «بس عم نسأل أدّيه الساعة ولو». ثم «كس إختك ما تردّي» وأقلع تاركاً لدرّاجته أن تطلق جعيراً فائق الجودة، يشبه جعير أمّه عليه حين كان طفلاً غريراً أرعن.

بدأ جفني يرفّ بسرعة. قلت آن الأوان. غادرت إلى الجم. وصلت بلا أيّ حَول لأن أتمرّن. مشى جمال الدين صوبي ومعه زياد بجلالة قدره، كلاهما يبتسمان. بعد مقدّمة طويلة من الاعتذارات، قال جو إنّه مضطرّ لأن يغادر بسبب حالة طارئة في البيت، ويمكنني أن ألغي الحصّة إذا أردت لكن كوتش زياد يمكنه أن يأخذ مكانه كي لا يكون هناك «غاب» في برنامجي. قبلت لأنّني خجلت بالطبع مع أنّني لم أكن مستعدّة لتحمل زياد هذا، خاصّة أنّ وجهه ملآن بحبوب صغيرة وفوق كتفيه تتقاطع شرايين خضراء نافرة، ومتعرّق،

وحين حكى فاحت رائحة ما حدّدت أنّها كريهة ولم أدقق في ما إن كانت رائحة عرق أم فم أم خليطاً منهما. ثمّ إنّه لم يكفّ عن لمس ما بين فخذيه وهو يخبرني باختصار عن حصّتنا التدريبية، بصوت رفيع قصداً، كأنّه يحكي مع ابنة خمس سنين. فضلاً عن حركته العصبية في ليّ عنقه بين فينة وأخرى، مثل عادل إمام قبل أن يلكم الذي أو الذين أمامه.

صار يذهب ويعود ليسألني: شو؟ وين صرنا؟ أخيراً، سألني إن كنت سأكمل للنهاية في الجم، ولم أجد جواباً غير «يعني انشالله»، وانطلق يحكي لي مشواره الرياضي الذي لم يكن يعنيني لا من قريب، لرائحته، ولا بعيداً عنها خاصّة أنّ ضحكته عريضة وأسنانه كبيرة، مثل توم كروز.

لا أدري لماذا أشفقت عليه وهو يحاول تمرير كلمات إنكليزية. يعد بالانكليزية. يقول ستوب. غو. غريت. كأنّه ببغاء. ثمّ حين قال لي إنّه يطمح لأن يكون «فتنس يوتيوبر» وشرح لي ماذا يقصد، بتّ في مرحلة حرقة القلب عليه، بشدّة. إنّه يربط مستقبله كله بقناة خاصّة على يوتيوب يقدّم خلالها النصائح وبرامج تدريب. ثمّ سألني: «شو واتس آبك، إف يو دونت مايند طبعاً». فتلوت رقمي مهزومة. «رح ابعتلك فيديوهات تقوليلي رأيك فيهم».

اسمي زياد كادِر. «تشرّفنا؟ كادر بالكاف؟» سألته فضحك بصدق: مهدومة مهدومة. يلّا اليوم خلصنا. رح ابعتلك فيديوز سي ذم.

لم أكن أمزح. إمّا قادر بالفصحى وإمّا آدر بالعامّية. ظنّنت أنّ كادر اسم حقيقي لعائلة. لكن... مهضومة بالدال!

ما علينا. الآتي أعظم.

بعد منتصف ليل الاثنين 9720

بلى. سأظلّ أكتب. إن توقفت عن هذه اليوميات فلن يبقى لي شيء.

عزيزتي أنا، سأكمل تلاوة الحكاية الحزينة ليوم الجمعة:

فرغت من حصّة التدريب مع الأخ زياد كادر وخرجت أتفحّص هاتفي الذي لأول مرّة أتركه في الخزانة صامتاً. وجدت ستّة اتّصالات من الأخ حسن ورسالة مختصرة: «ما تعودي تتّصلي».

اتّصلت. لم يردّ. اتّصلت ثانية. أقفل. اتّصلت مرّة ثالثة، وأعصابي ترقص من الغضب. أقفل. اتّصلت. أقفل. لا أعرف كم مرّة اتّصلت ولا كيف شغلت السيّارة ولا كيف سارت بي، لكنّني بدلاً من الذهاب نزولاً كما عادتي، ذهبت صعوداً، عين على التلفون في يدي، وعين أخرى على الطريق.

بينما الشارع يضيق، لمحت سيّارة كبيرة تتّجه صوبي. ومع السيّارات المركونة إلى الجانبين، توقّعت بسرعة أنّنا لن نستطيع تجاوز بعضنا. نظرت إلى يساري فوجدت إشارة زرقاء عليها سهم أبيض يشير صعوداً، وبوضوح، إلى أنّني لست عكس السير، فأكملت، وأكمل الرانج روفر، حتّى تواجهنا. من حيث أنا، كنت أرى إشارة

ممنوع المرور تواجه سائق الرانج الذي راح يزمّر بسرعة، فبدأت جفوني ترفّ كمراوح صغيرة، ومن دون تنسيق ولا تناسق.

نظرت في الرانج، فإذا بها امرأة تلوّح لي بقفا يدها أن أرجع. رأيت أصابعها الطويلة من بعيد، فأطفأت سيّارتي وفتحت الباب ونزلت، وفي نيّتي أن أكون مهذبة ما استطعت، وأن أشرح لها أنّها هي التي عكس السير. رأيتها تفتح بابها وتقف على الحافة السفلى للرانج، من دون أن تدوس على الأرض، فتصير، حيث هي، أعلى من سقف سيّارتها، وأطول من عمود كهرباء. ما شاء الله، فكّرت، مانيكان.

مدّت سبّابتها الطويلة صوبي، وخاطبتني من فوق. وبينما إصبعها يقيسني صعوداً ونزولاً قالت بصوتها الطويل: «ليكي. ما شايفتك. بتطلعي بسيّارتك وبترجعي لورا وبتختفي. يلّا».

آها!

لم تكن احتمالاتي كثيرة. يمكنني الوقوف حيث أنا، وإطلاق خطة ردح خماسية طويلة ومعقدة، أستحضر فيها أرواح موتاها وأحيائها معاً، وأخلطها بمجموعة من حيوانات المزرعة وما تنتجه من روث وخلافه. أو يمكنني، وركبتاي مرتخيتان لأنّ الدم كله اندفع صوب رأسي وأشعله، أن أتلو على مسامعها كلّ ما ورد في لسان العرب من أسماء لعضوي الرجل والمرأة على حدّ سواء.

يمكنني. لكنّي بحاجة إلى لمستي الخاصّة... بناءً عليه، التزمت بما طلبت منّي، رجعت إلى سيّارتي، دخلت. جلست. شغلت المحرّك والمكيّف. أقفلت زجاج النافذة. وضعت يدي على المقود. وصرت صنماً.

يبدو أنّ قراري تأخّر بالوصول إلى دماغها الجميل. حين حلّله واستوعبه، وضعت يدها على الزمّور مجدّداً، في تنويعات موسيقية بين زمامير متقطعة أو طويلة. اتركيها، قلت في نفسي، ما لم تحدث

معجزة جديدة، فهذه البيكانتو واقفة في وجه هذا الرانج روفر إلى أبد الآبدين. وخلينا نشوف مين يللي مش شايف التاني.

لقد رأيته، إصبعها، ينغرز بين عينيّ. لقد رأيتها. طويلة مثل غولة. رأسها ملتصق بسقف السماء. على عنقها تلتمع أطنان الذهب والمجوهرات. في عينيها رأيت شقتها على الرملة البيضاء. مئات الغرف والتحف. ثيابها في غرفة، وسكربيناتها في غرفة. حولها تسع خادمات يرتدين المريول الأزرق نفسه. رأيتها تسافر بشنطها اللوي فيتون. تجلس في الدرجة الأولى لكنّها تشمّ رائحة كريهة. تشرب أغلى نبيذ، لكنّها تشمّ رائحة كريهة. تأكل في أغلى مطاعم العالم لكنّها تشمّ رائحة كريهة. تنام حتى العصر لكنّها تشمّ رائحة كريهة. لقد نظرت إليّ فشمّت رائحة كريهة. لقد نظرت إلى حياتي كلها ولم تر فيّ ما يستحق أن تراه. لو أنّني بعوضة، لما استطاعت أن تكشحني عنها بهذه الحركة السريعة من يدها. إنّه قرفها الطبقي في مواجهة حقدي الطبقي. واحدة منّا ستفوز في هذه المنازلة الأخيرة. لن نبقى هنا حتى نصير عجوزين هرمتين مطويّتي الظهر. أنا قد أُطوى أمّا هي فسيصير عندها مكنسة وتصير ساحرة شرّيرة. لن أخسر شيئاً. حسن يرفض الإجابة على اتصالاتي. ليس في بيتي ما أحبّه. ليس في عملي ما أحبّه. ليس في بيروت غير الغبار. أنا باقية. فلتتّصل بزوجها، صاحب البنك ابن صاحب البنك، ليتّصل بصديقه الضابط الكبير ليتّصل بالضابط الأصغر فالأصغر فالأصغر، حتّى يرسل دورية تحملني أنا والبيكانتو بعيداً عن دربها، ويفرشوا لها سجّادة حمراء لكي تكمل طريقها وحياتها في الروائح الكريهة.

بعد دقيقة بدأ الناس بالتجمّع على الرصيف القريب، وبقربها، وبقربي بطبيعة الحال. وأمكنني أن أرى أناساً على الشرفات يتفرّجون.

ها أنا صرت فرجة. لم تعد موسيقى الزمامير مقتصرة عليها، باتت خلفها جوقة من السيّارات، كلها عكس السير، تطلق الصراخ عالياً. وهي واقفة بقرب سيّارتها وتلوّح وتشير بأصابعها صوبي، وتتّصل. بينما ألصق شابّ بلحية سوداء وجهه على زجاج باب سيّارتي، وهو يمسّد لحيته مبتسماً، بمعنى أن أمسح المشكل بذقنه وأرجع. وأنا أضع يدي على خدّي متلفتة حولي. على الرصيف مراهقان يصوّران بهاتفيهما ويضحكان. إنّنا في مهرجان. خفت حين رأيت رجلاً راكضاً صوب سيّارتي. ارتعبت حين رأيته يضرب بكف يده المفتوحة على غطاء المحرّك ويلوّح بيديه صارخاً: ارجعي... عم قلّك ارجعي...

تدخل الواقفون وأبعدوه برفق بينما استمرّ بالشتم.

راح قلبي يضرب بسرعة، وأنفاسي تتسارع. بتّ على وشك اتّخاذ القرار بالتراجع، حين ظهر دركي على درّاجته. عرفت أنّني هُزمت، وأنّه إذا طلب منّي أن أرجع فلن أرفض. ركن بقرب سيّارتها. يبدو أنّها هي التي جلبته. حكى معها، ومشى صوبي يلحقه أكثر من متابع لمجريات الحدث. أشار إليهم بالبقاء بعيداً، ووصل وحده إلى شبّاكي. انحنى مبتسماً وطرق على الزجاج. فتحت الزجاج وأنا أظنّ أنّ صوتي لن يقدر على الخروج من صدري. قبل أن يقول شيئاً قلت له:

– أنا بعكس السير؟ قال: لا. فعاجلته، «هني بعكس السير؟» قال: «إيه. بتعرفي؟ خليكي بأرضك».

مشى عائداً صوبها، ثمّ تخطّاها إلى السيّارات التي بعدها. غاب هناك بينما ظلّت بين فينة وأخرى تضمّ أصابعها في شكل قمع صغير وتتوعّدني من بعيد. كان وجهي قناعاً من خشب. بدأ سائقو السيّارات الواقفون قرب أبوابها خلف الرانج يدخلون إليها، ثمّ عند أقصى ما تطاله عيني من الشارع، رأيت السيّارات ترجع إلى الخلف، وتلتفّ يميناً. حين رجع الدركي، كنّا قد عدنا إلى سابق عهدنا، بيكانتو

في مواجهة رانج روفر. لم يكن صوتها يصلني لكنّ الواضح من نشاط ذراعيها وأصابعها ورأسها أنّها استشاطت غضباً... تحكي وتشير إليّ. ثمّ صعدت إلى الرانج. خبطت الباب بما استطاعت من قوّة، ورجعت بسرعة، وغابت عن وجهي الذي يحترق.

قبل أن أتابع طريقي، كان الدركي قد وقف بدرّاجته قربي: عالم دمها أزرق. مفكرينّا برغش.

ابتسمت له ممتنة، لكن دموعي كادت تغلبني.

– أوعك تبكي. ما قصّرتي فيها. بس إذا ولا بدّ بدّك تبكي خليني إنزل وقفلك السير لبين ما تخلصي.

ضحكت.

– لا خلص مشي الحال.

قدت السيّارة بقلبٍ مغلق، لا أعرف أين أذهب به، أو كيف أفتحه.

الأربعاء 9722

باقية في الضيعة حتى الأحد. إجازة أنا بحاجة إليها.

كنا في قلبي المغلق. أخذته إلى البحر. هناك، كتبت لحسن: «صار معي شي كتير بشع قبل شوي». اتّصل. قلت ألو وأجشهت بالبكاء. «شو صار؟» سأل فشتمت أخت اليوم كله، فقال: «خلص خلص. تعي أنا بالبيت». ارتحت. كنت بحاجة إليه وسابقت نفسي حتى وصلت إلى فرن الشباك. دخلت وجلست وتنهّدت وحكيت، وبينما أحكي، تحوّلت الدراما في قصّتي إلى مهزلة، كما عادتي. بدلاً من التعاطف، راح يضحك على وصفي للمرأة والمصوّرين والوجوه الملتصقة بزجاج سيّارتي. هنّأني على ما فعلت فشكرته، وعاتبته لأن ليس من حقه ألّا يردّ على اتّصالاتي عقاباً لي لأنّ الهاتف كان بعيداً عنّي. وبينما الهواء يصير أطرى بيننا، ارتخيت، إذ ظننت أنّ الحظ السيّئ لهذا اليوم انتهى، وقمت لأستحمّ بينما يحضّر هو عشاءً خفيفاً.

وفي طريق العودة من الحمّام إلى غرفة النوم، وجدته ممدّداً على الكنبة رافعاً هاتفي أمام وجهه. «شو؟ ما عملت عشا؟» لم يجب. بقي ينظر إلى الهاتف، ثمّ رماه على الكنبة الثانية. «شو فيه؟». لم يحكِ.

– حسن شو باك؟

– ما بني شي. شو هيدا على تلفونك؟

قفز قلبي إلى فمي. فكّرت بأنّه فتح هذه اليوميات. وأنا لا أعرف الجرائم التي ارتكبها كل يوم فيها.

– شو في على تلفوني؟

– مين هيدا أبو عضل يللي باعتلك فيديوهاتو اسم الله عليه وبدو رأيك فيهم؟

– مين قصدك؟ حملت تلفوني فإذا بها صفحة واتس آب. نقرت على فيديو، وكوابيسي تسير في اتّجاه واحد: زياد كادر يحكي مع جماهيره على الكاميرا ويؤدّي حركات رياضية شبه عارٍ.

العرص!

كيف أبرّر للأخ الممدّد أمامي، وقد ضبطني بالجرم المشهود، هذه الفيديوهات، وليس ما يدعمني في قضيتي إلّا أنّها عامّة وليست موجّهة لي بالتحديد. لم يكن أمامي إلّا البرودة التامّة:

– إيه هيدا السئيل اليوم درّبني بدل الكوتش جو وقال بدّو يصير يوتيوبر وطلب رقمي كرمال شوف الفيديوهات تبعيتو، واستحيت قلو لا. وهول شكلو بيبعتهم لكل يللي بالجم. بس يا لطيف ما أزنخو هو وريحتو...

– أوكي أوكي. خلص.

– شو أوكي؟

وكما لو أنّني كبست على زرّ فيه، فانفجر.

أدّى وصلة من الصراخ بدأت بنعتي بأنّني أكذب مخلوق عرفه، وبأنّني معجونة بالكذب، وجبانة، وأنّني لو كنت صادقة لأخبرته من يكون أبو عضلات، وأنّه غير مقتنع بأنّ مدرّباً التقى فتاة لأول مرّة في حياته يأخذ رقمها ويرسل إليها فيديوهات بلا ثياب من دون أن تكون أعطته إشارات إعجاب.

من إشارات الإعجاب التي اتّهمني بها، تسلّل إلى أنّني لم أعد أجد فيه ما يعجبني، وأنّني مستعدّة للاستغناء عنه عندما أجد بديلاً. لحظة! هل يحكي عنّي أم عن نفسه، سألته، فازدادت فورته، قنّينة البيبسي الغاضبة هذه. «إنتي بس بدّك تتزوّجي. وصرتي مستعدّة تشوفي خيارات تانية كمان. وأنا بضل احتياط. زهقتيني».

بعدها ضربني الضربة القاضية: «بدّي أعرف هلأ ليه بعدك محجبة؟ ملحدة وبتشربي وبتحشّشي وبتنتنا...»

هل قال الكلمة كلها أم لم يفعل. لا أذكر. أذكر أنني سمعتها كلها ثم سمعتني أقول من بعده:

- «بتنتاكي؟»

بصوتي، كان لها وقع آخر عليّ. كأنّه رماني في بركة أوساخ. هكذا يسمّيه؟ هكذا يراني؟ هكذا يرى أربع سنوات بيننا؟ محجّبة بس بتنتاك؟ ألم يكن يقول إنّها حرّيتي الشخصية، وأن لا دخل لأحد في حياتي، وأنّني لست مضطرّة لأن أبرّر لأحد حجابي وطريقة تفكيري وطريقة حياتي؟ أليس هو الذي كان يتطرّف في دفاعه عنّي حين ألقي اللوم في حجابي على تردّدي وجبني. ألم يكن يقول إنّ قراراً مثل هذا يحتاج إلى اقتناع تامّ آتٍ من الداخل، وليس أن يكون هو أو المجتمع المحيط السبب. هذا هو المتفهّم المتنوّر الذي لن يقبل إلّا الزواج المدني. هذا هو العصري؟ بتنتاكي؟

أظنّني بدأت ردّي المسهب بـ«يا حيوااااان» كأنّي أبدأ الموّال بأوف. واكتفيت لفترة بهذا التعبير وحده، أكرّره بهستيريا وقد امتزج بكائي بصراخي باندفاعي مثل جاموسة بين المطبخ وغرفة النوم والحمّام أجلب كيس نفايات أسود كبيراً وأفتحه وأرمي فيه كلّ ما تطاله يدي من أغراض لي في الحمّام، فرشاة شعر وكريم، وغرفة النوم حيث ثيابي وقمصان نومي وكيلوتاتي وسوتياناتي القليلة. وأظنّني

حاولت تحطيم ما استطعت من جوارير الخزانة وأبوابها، وكنت على الأرجح أهذي صارخة بنفسي أنّها حمارة لأنّها انتهت هكذا، مع حمار كلّ ما يراه فيها هو أنّها محجّبة بتنتاك. قلت له إنّه وسخ وحقير وكلب لكن غليلي لم يُشف خاصّة أنّه استمرّ على صمته المدقع. ولأنّه لم يعد هناك ما أفعله وقد ارتديت ثيابي ولملمت معظم أغراضي، ظننت أنّني سأموت إن لم أجرحه كما جرحني. وقفت أمامه حاملة الكيس والجزدان في يد واحدة. وقلت: خلصنا ما هيك؟

ظلّ ساكتاً.

– ما بدك تقول شي؟

– ...

– على كلٍّ...

فكّرت بأن أقول له إنّني الآن لا بدّ سأجد من يعرف كيف ينيك، لكنّي لم أجرؤ. كنت، بعد فورتي، وقد بدأت أهدأ، أحسب حساب خط الرجعة. ظلّ ساكتاً، وعادت الكلمة لتضجّ في رأسي... فقرّرت أن يكون حسن الختام:

– ما بدّك تقول شي؟ أربع سنين بيخلصوا هيك. إنّي بنتاك؟ يا عيب الشوم عليك بس.

لا أعرف لماذا جلست أمام المرآة حين وصلت إلى البيت. نظرت فيها، فوجدت كلّ ما قاله عنّي صحيحاً. رحت أبكي وأتفرّج على وجهي كيف يبكي. وكنت أسمع صوتاً واضحاً في رأسي يقول لي: إيه اشفقي على حالك. صوت آخر مضادّ كان يقول: وقفي كذب. صوت ثالث: صرت وحدك. رابع: أيمتى رح تشلحي حجابك. خامس: رح تشلحي حجابك؟ سادس: ليه سكتي للشرموطة تبعيت الرانج روفر. سابع: عم تتبشّعي كتير. بتنتاكي. ثامن: قومي اطلعي على

الضيعة. تاسع: روحي اضهري. عاشر: دقي لريما خليها تجي تنام عندك. حادي عشر: إنتي ما بتغاري من ريما؟ ثاني عشر: مبلى بتغاري منها. بتنتاكي. ثالث عشر: ما بتتمنّي انو يصير معها شي ما منيح؟ تموت؟ نفضت رأسي لكي أرمي الفكرة خارجه... رابع عشر: إنتي بتعرفي إنّك ما بتنتحري صح؟ إنتي أجبن من إنّك تنتحري. بتنتاكي. خامس عشر: يعني مين بدّك يشفق عليكي إذا بتبكي قدام المراية؟ حسن؟ الله؟ مين؟ سادس عشر: خلص. سابع عشر: خلص. ثامن عشر: خلاااااااص.

كلّ ما كنت أحلم به تلك اللحظة هو أن أنام، لعلّ هذا اليوم المشؤوم ينتهي. نمت على هذه الضجّة في رأسي. أفقت عليها مراراً خلال الليل، وما زالت حتى الآن، في الجنينة، على الأرجوحة التي أتكوّم عليها معظم النهار ومعظم الليل، أنوح على حياتي وعلى حسن.

اسمعي يا سلمى. علينا أن نفعل شيئاً. لن نبقى هكذا إلى الأبد.
لقد قلت هذا الكلام ألف مرّة من قبل يا سلمى.
طيب. خلينا نجرّب. ما بدي جرّب. ما رح يتغيّر شي. زهقت.

الأحد 9726

الرابعة و56 دقيقة عصراً في الجنينة.

قالت ريما «لازم تقبعيه متل ضرس خربان». لا أعرف من أين تأتي بتشابيهها. ها هي جالسة مع قمر وغاية المنى وتضحكهما. جاءت منذ نهار الجمعة لتكون بقربي. لكنّها بقرب الجميع ما عداي. تمضي وقتها مع أبي وأمّي وشقيقتيّ وأولادهما. غريبة قدرة هذه البنت على بثّ البهجة في أيّ مكان تحلّ فيه. تعرف كيف تجعل الناس يحبّونها. إنّها تجد ما تقوله لكلّ واحد. ربّما العكس. هم يرتاحون إذ يخبرونها عن أنفسهم. تسمع لهم فيقعون في حبّها. عبد الكريم ينتعش بوجودها، وإلهام تتسلى برفيقة الأركيلة والقهوة والشاي. قمر تحبّها. تتوتّر قمر حين يأتي عماد ويرتبك لوجود عارضة الأزياء الفريدة من نوعها، فيصير صوته أرفع ويحاول تقليد لهجتنا البيضاء. تقطر نظرة قمر سمّاً: ما عدش يعرف يحكي جنوبي ابن الحجّة زهرا. لكنّها تحبّ ريما، ولا تكتفي من الاستماع إلى قصصها، تريد التقاط شكل الحياة التي تعيشها موظفة البنك المتحرّرة الجميلة التي تصاحب في العلن وبعلم عائلتها. أقول أحياناً إنّ غاية المنى اختارت حياتها بملء إرادتها، لكنّ قمر كانت لتنجو من الخط المستقيم المرسوم سلفاً

لحياتها، زوجةً وأمّاً فقط. كانت حالمة وتريد الانعتاق من الضيعة، لكنّها خافت من أن تحيد عن ذاك الخط. وكعادته، لم يتدخل عبد الكريم.

ها أنا نجوت من استقامة الخط، تقريباً، فماذا استفدت؟ في هذه اللحظة أنا أفكّر في كيف أحوّل حسن إلى ضرس ميت أقتلعه وأرتاح. الحكي سهل في الغالب. أمحو كلّ ما يذكّرني به. صوره وصورنا والتشات ورقم هاتفه. هداياه قليلة أصلاً. لكن ليست هذه التفاهات ما يذكّرني به. لا. إنّها تلك العبارات التي حين ترد إلى ذهني أظنّ أنّه وحده سيفهمها. الفيديو الذي أول ما أفعله هو أن أشاركه فيه. العادة. صباح الخير والقبلة صباحاً. الاتصال بعد فنجان القهوة. النسكافيه التي يجلبها إلى السرير حين أنام عنده. البحر والمقاهي وميشاز. العمر. أين اختفت سنواتي الأربع الماضية؟ انتهت بإعلانٍ منه أنّه يراني عاهرة. هذه هي؟ عليّ أن أبدأ من جديد الآن. سنة وتسعة أشهر مع وسام، وأربع سنوات مع حسن، والآن من جديد؟ من الصفر بسنوات لا يبقى منها إلّا الذكريات السيّئة؟ ربّما أنا لا أصلح لعلاقة. لا يقع الرجال في حبّي. ماذا لديّ لأعطيهم؟ عاديّة. في السادسة والعشرين وما زلت حين أضع المكياج أشوّه وجهي. ثيابي لا يمكن تمييزها. جينز وقميص وكونفرس ومنديل. لا أضع قلائد ولا حليّاً. لديّ خاتما ذهب لا أنزعهما من يدي. شعري لم أصبغه في حياتي. لا أعرف من لبنان غير جبيل وبيروت والنبطية. لم أسافر إلى سوريا حتى. ما هذه الحياة الخاوية يا سلمى؟ لماذا تعاقبين نفسك هكذا؟ ثمّ ستبكينه لأنّه قرّر الانفصال عنكِ؟ أسبوع في بيت أهلك ولم تجلسي مع أبيك لنصف ساعة وتحكيا؟ ولا مع إلهام ولا أحد؟ ستبقين هكذا؟

الاثنين 9727

في المعتقل... منذ ساعة أكتب وأمحو.

الثلاثاء 9728

في البيت. أنظر إلى السقف وينظر إليّ. فكرت بالذهاب إلى ميشاز وإلى الجم، وطلبت منّي ريما أن نتعشى معاً، لكنني عدت إلى البيت. السقف أحلى.

الأربعاء 9729

في المعتقل. إنّني أنجز الكثير. إذا اشتريت علبة دخان صباحاً، أشتري الثانية ظهر اليوم التالي. أنا، رسمياً، أدخن علبة في اليوم، وأعيش على ماكدونالدز والبيتزا والسندويشات الديلفري. لا أذكر أنّني حكيت اليوم. على الأقل لا أتذكّر ما حكيت. الألم في كتفي لا يطاق. أجرّ نفسي جرّاً في دروب الحياة. يجب أن ألتقي بريما. أنا بحاجة إلى ريما.

الخميس 9730

صباحاً، في السرير. كيف أخرج من غروب الفاميلي؟ لن أخرج. أنا مازوشية بما يكفي لأن أظلّ أنظر إلى صورهم وصلواتهم وأدعيتهم ونكاتهم. ولن أمحو الشات مع حسن.

ثمّ، يبدو أنّك تخسرين قدرتك على الثرثرة في هذه اليوميات. أعرف. ستنقطع فجأة ولا تعودين إليها. هكذا أنت. لا تنهين عملاً في حياتك.

الجمعة 9731

في المعتقل.

طيّب. سأسهر في ميشاز اليوم مع ريما وأحمد.

السبت 9732

السادسة وسبع دقائق مساءً... الآن حتى ارتحت قليلاً.

أناي الآتية في المستقبل، هذه قصّة سأوثقها بما استطعت من هدوء، لعلك تتقين.

إذا بحثت عنّي الآن في هذا السطر، فستجدينني جالسة في القعر، أنظر إلى أعلى. أنا في قعر نفسي. لقد وصلت إلى عمق الهوّة. مبروك عليك قعرك يا سلمى. ألف مبروك.

دعينا نخبرها بما حدث معنا أمس.

البارحة مرّ عليّ أحمد وريما وأخذاني إلى ميشاز. كان الجوّ ملائماً لأن أتوهَم أنّني سأتسلى، وأبدأ رحلة نسيان حسن. زاد في افتتاني بنفسي أنّ ميشو لازمني من بداية السهرة، إضافة إلى شابّ رصدني بعينيه، فتبادلنا النظرات.

كانت البداية خاطئة. أكلت ستايك مع بطاطا بوريه وجزر وخضار أخرى مسلوقة، وقرّرت تغيير عادتي في الشرب، فطلبت نبيذاً أحمر. جلب ميشو قنّينة قال إنّها فرنسية، وزقزق كعصفور شارحاً كيف يُصنع هذا النبيذ ومن أيّ أنواع عنب وعطور فواكه

وسبع بهارات وخلافه ممّا لا أعلم ولن أعلم. قال إنّها على حساب المحلّ. أحسست بالفخر أمام ريما وأحمد اللذين قرّرا أن يشربا ويسكي. هكذا بقيت القنّينة لي وحدي تقريباً. ومع أنّ المحلّ مزدحم، قرّر ميشو أن يجلس معنا. لاحقاً في السهرة سيخبرني أنّه فهم من عينيّ أنّني مكسورة لا شكّ بسبب انفصال. قبل أن نصل إلى هنا، كنّا قد بدأنا نحكي في العموميات. أخبرني مجدّداً عن البوذية التي يعتنقها كفلسفة وحياة. قال إنّ التأمّل هو الذي يساعده على فهم سبب وجوده والتأقلم معه، وابتلاع إحباطات الحياة والتطهّر من شرور النفس البشرية الأعمق، الغيرة والحسد والكره والجشع، وحتى الخوف من الموت.

وبينما يملأ كأسي، وأسكر ببطء، رحت أتحوّل من حالة الاستمتاع بالحديث إلى حالة المبالغة الصادقة بالاندهاش. حين أتيت على القنّينة الفرنسية، كنت قد انطلقت بسرد قصّة حياتي. بدأ بضعة سكارى بالرقص ومعهم ريما وأحمد، وطلب ميشو من مارو قنّينة كسارة وكأسين نظيفتين. أذكر أنّني بدأت أشرح له حبّي لأبي، وكم هو جبان لأنّه كان يمكن أن يقف بوجه أمّي وجبران رافضاً أن أتحجّب، لكنّه لا يتدخّل في شيء. ومن أبي إلى حسن الذي فجأة صار وجهه مضيئاً كأنّه ملاك بحلقة فوق رأسه. استنتجت أنّني أنا من خنقه بحبّي له، وأنّني فعلاً أريد الزواج به لأنّي أحبّه، وأنّ كلّ هذا بات ماضياً الآن. وأنّه قبل بي كما أنا، بحجابي. فسألني ميشو ما دخل الحجاب، ولماذا ينبغي عليّ الإحساس بالامتنان، فغبت في انهيار آخر لكلّ ما صنعه معي حسن. فهو الذي عرّفني بالفعل إلى بيروت وأدخلني إليها وهو حتى الذي جلبني إلى ميشاز أول مرّة، وهو الذي لا أعرف كيف أعيش يوميّاتي من دونه، لكنّني أنا المخطئة، ربّما كان

عليّ أن أكون أكثر حذراً ولا أعطي زياد الأحمق رقم تلفوني. لكنّي كعادتي لم أعرف كيف أقول لا.

شعرت، أو ربّما أشعر الآن، بأنّني أعلك كلامي نفسه مرّة بعد مرّة. وقد صرت أردّد «معليه»، «سكرانة»، «زهّقتك بعرف»... وأكمل، ولا أعرف إن كان فعلاً ضجر منّي أو كان مهتمّاً لما أقوله، ولا أذكر متى أتت ريما وسحبتني لأرقص معها.

نادراً ما أرقص. في أعراس رفيقاتي في الجامعة أرقص مع النساء، وأكتفي بهزّ كتفين خجولتين جاهلتين بهذه الحرفة. لكنّها حين سحبتني، ما كانت الأغنية؟ سرت إلى منتصف المحلّ تنقصني فقط الصاجات والثريّا على رأسي. لم أوفّر أيّاً من حركاتي المحفوظة. وريما جارتني وصرنا كمن نتنافس. أحمد السكران اكتفى بالتصفيق. وأنا همت بالأغنية هياماً فوق العادة. هيام يجعل كفّيّ تتعرّقان الآن وأنا أتذكّر. عيب! أعلم. هذه أول مرّة أرقص في ميشاز. أسكر في العادة لكنّني لا أرقص. كان من غير المنطقي على من هي في شكلي أن تتهوّر إلى هذه الدرجة، إلى التجرّؤ على الوقوف في وسط حانة في بدارو وهزّ خصرها والتلويح بساعديها في محاكاة لسامية جمال. عيب! ثمّ إنّني كنت أكذب، وأظنّني كالعادة بالغت في التعبير بوجهي السكران. ماذا لو أنّ أحدهم صوّرني!

لا تسكري حين تكونين حزينة، هذه نصيحتي لك صديقتي المستقبلية. حتى إنّني لم أكن سعيدة حقاً، ومتحرّرة حقاً. كنت أظنّ أنّ العيون تلتهمني وحدي، وكلّ أنواع الرهاب طافت في رأسي، وصرت أكيدة من أنّ حسن تعرّف إلى واحدة أخرى، أو قرّر أن يصاحب شيرين، واستيقظت كلّ السليمات الصغيرات في دماغي وبدأن يحكين ويشتمن بعضهنّ بعضاً ويشتمنني ويضحكن ويبكين

ويقرّعنني كأنّني سأرمي بهنّ بعد لحظة من أعلى صخرة الروشة. هذه صور غير متّصلة. فيها رقص، وفيها ريما تسحبني إلى الحمّام، وفيها واحدة بتنورة قصيرة ترمقني من فوق إلى تحت وريما تسألها: «بكي شي؟»، ثمّ أنا أضحك وأشتمها وأقول لريما إنّني لست سكرانة، ثمّ أرفض أن تغسل وجهي، وأغسله وأبلّل طرف منديلي، وأنظر في وجهي على المرآة وأرى التواء فمي فأحاول أن أعيده إلى طبيعته لكنّني أنساه حين أحدّق في عينيّ وأراهما تنظران إليّ بسخرية وحقد وريما تقف بقربي، وأضع رأسي على كتفها وأهمس في أذنها: قال لي بتنتاكي يا ريما. بتنتاكي. يا عيب الشوم.

وبينما أتحضّر لأن أبكي أسمعها تقول بجدّية: شو بدّك فيه حبيبتي هيدا واحد كذاب. هوي يللي بينتاك.

كدت أضحك لكنّ معدتي سارعت إلى الصعود إلى عنقي الذي التقطتني ريما منه بينما أفرغ نوعين من النبيذ مع لحم وخضار وبزورات وكبيس في كرسيّ الحمّام، على دفعتين، وأستسلم لها تماماً بعدها، وهي تنظف وجهي، وتمسح دموعي بكفّ يدها.

لا أذكر شيئاً بعدها. فتحت عينيّ كأنّ أحدهم ضربني بمطرقة. رأيتها نائمة بقربي. كنت أرتدي بيجامتي. كان السقف يلفّ بي وكان طعم فمي حامضاً. تناولت هاتفي وكان مطفأ، جرّبت أن أقوم وما استطعت. بقيت عائمة على وجه النوم وقتاً أظنّه الأبشع في حياتي. كانت الأصوات واضحة في ذهني وكان الذنب ساطعاً وجليّاً. بهدلت نفسي. هذا ما كنت أظنّه. لم تكن أحلاماً تلك التي كلما غفوت رأيتها. كانت تأتي في طبقات، كأنّني أركض وأجلس وأنام وأحلم وآكل وأعمل في الوقت نفسه. رأيت الجميع. أهلي وزملائي في العمل وحسن ووسام وأحمد وريما. كانوا إمّا يحدثونني أو تقترب وجوههم لتلتصق بوجهي وهم يكرّرون الكلام ذاته. لا أعلم في أيّ

ساعة قمت ودخلت إلى الحمّام وحشرت إصبعين في فمي محاولة إيصالهما إلى آخر حلقي. بدأ السائل المرّ يتدفق على موجات، وكنت أختنق ومستعدّة لأن أموت في هذه اللحظة لأنهي هذا القرف وهذا التعذيب. غسلت أسناناً رأيتها في وجه امرأة أخرى عيناها غير عينيّ وشعرها ليس شعري. مجرّد التفكير بالنسكافيه كان يشعرني بالغثيان لكنّني كنت أريد أن أدخن. حملت قنّينة مياه صغيرة صرت أرتشف منها بينما أدخن، منتظرة هاتفي كي يشتغل. كانت الساعة السابعة والربع حين اشتغل. نظرت في الشاشة خائفة من لمسها. حين فتحتها ذهبت إلى الاتّصالات. 37 مرّة. اتّصلت به بين الثانية والثانية و43 دقيقة 37 مرّة. صارت يداي ترتجفان، وما زالتا حتى الآن. فتحت الواتس آب. لقد أرسلت إليه فويس ماسج عند الثانية و23. طولها 54 ثانية. الإشارة بقربها زرقاء. سمعها إذاً! كيف تركتني أفعل كلّ هذا يا ريما؟

وضعت الهاتف على الكنبة، ووضعت وجهي في يدي. لم أسمعها. عدت إلى النوم بعد أن ابتلعت حبّتي بنادول. كان نومي أعمق هذه المرّة. استيقظت وكانت ريما قد غادرت، تاركة رسالة على الواتس آب. صفعني خجلي من نفسي مجدّداً. فكّرت بأنّ تأجيل الاستماع إلى الرسالة لن يجعلها تختفي. يمكنني أن أمحوها بالطبع... لكن عليّ أن أعرف على الأقلّ ما قلت له.

شغّلتها. جاءني صوت آخر، عريض كأنّه صوت رجل، وأجشّ وبطيء. يمكنني أن أقول إنّ البكاء أنهكه. بليز ردّ. بليز. بليز. أنا بحبّك. بليز ردّ. بليز... ما بدّي عيش بلاك... 54 ثانية من ترداد هذه الكلمات ومن انقطاعات بينها، كأنّني أبكي، ومع عبارات غير مفهومة.

ماذا أفعل؟ صفعت وجهي بكفي. ماذا أفعل؟ أوّل ما فعلته هو أنني محوت الرسالة، وفكّرت ثمّ قرّرت أن أسجّل رسالة. عدلت عن

الفكرة. كتبت له: بعتذر. وبوعدك إنو يللي صار ما رح يتكرّر. أنا رح إمحي كلّ هيدا التشات. ويا ريت إنت بتعمل نفس الشي. وبعتذر مرّة تانية.

أرسلت وجاء الرد بسرعة لافتة فعلاً: أوكي.

وهكذا كان. محوت التشات، ومحوت اسمه ورقمه عن الهاتف، وجلست في القعر، وبدأت بكتابة ما ورد أعلاه.

سامحيني يا سلمى.

الأحد 9733

11 و33 دقيقة صباحاً، في ميشاز!

سأتعافى.

هذه الطمأنينة في قلبي تقول لي إنّني سأتعافى.

أيّ ساعة نمت البارحة؟ أنهيت ما كنت أكتب ونمت. حلمت بالبحر. كنّا جالسين متقابلين، أنا وحسن. بيننا طاولة، وفوقنا شمسية كبيرة. وكنت أسمع صوت الموج. «سلمى، هيدا أنا»، كان يقول، كأنّه يكمل الحديث الذي بدأناه قبل أن أشرع برؤية الحلم. «هيدا أنا، حسن». كانت ذراعه ممدودة أمامه على الطاولة، وكنت أتأهّب للوقوف. لم أكن أحسّ تجاهه بشيء محدّد. لا ضغينة، ولا كره، ولا حبّ، ولا رغبة، ولا شفقة، ولا نفور. لا شيء. كنت، فقط، عاجزة عن مساعدته. كأنّني فتحت ذراعي علامة على أن ليس بوسعي شيء. كنت أبتسم له بودّ. لكنّني كنت حقاً قد تأخّرت، لا أعرف عن ماذا. بالي كان مشغولاً بهذا الأمر بالتحديد، ألّا يفوتني ما كنت أريد الذهاب إليه، وحسن يؤخّرني. «هيدا أنا» كان يقول حين فتحت عينيّ. بقي إحساسه بالانكسار في بالي. حين استيقظت، لم

أشعر بأنني انتقمت منه، ولو في الحلم. حاولت أن أفهم لماذا كان هذا الحلم. ما الذي تأخرت عنه؟

حياتي. تأخّرت عن حياتي. أعلم الآن.

كان واحداً من تلك الأحلام الجليّة الراسخة التي لا تُنسى أبداً. تظلّ محفورة في داخلي إلى الأبد. ما زلت أعيشه حتى الآن. قمت كالمسحورة. قرّرت ألّا أذهب إلى البحر. قلت آتي إلى ميشاز. فتحت باب السيّارة وأغلقته قبل أن أدخلها. قلت أمشي. ومشيت، من رأس النبع إلى بدارو. وجدت ميشال جالساً مع رجل مسنّ على الرصيف، يشربان القهوة. دعاني لأجلس معهما فجلست. أبو جورج، جاره في البناية. كان يخبره عن سيّارته الشيفروليه، وكيف كان دخولها أول مرّة إلى الحيّ، وكم كان يحبّها. ولمّا قام ميشال ليصنع لي فنجان إسبرسو، تابع يخبرني كيف احترق قلبه حين احترقت في ليلة قصف مجنون. قبل يوم كان ينوي تهريبها إلى الجبل. واحترقت. وصفها بتفصيل كئيب. لونها وفرشها الجلد والنيكل اللامع والراديو والفخامة. ووصفها بعد الاحتراق، كان يحكي عن جثة لا عن هيكل معدني. كان يحكي عن جثته نفسها.

لماذا أخبرك بهذا الآن؟ لا لشيء. لأتسلى. تعرفين؟ ذكّرني بأبي. لقد استمعت إليه أكثر من نصف ساعة، قبل أن أقوم إلى الداخل. متى كانت آخر مرّة جلست فيها مع أبي وحكى واستمعت إليه؟ أنا حقيرة. حين أكون في الضيعة أمضي وقتي مسمّرة أمام شاشة تلفوني. يحاول أن يحدّثني، يقول لي إنّه يتابع الموقع ويمازحني بأنّه يجد أخطاءً كثيرة. يسألني عمّا أقرأ، وقبل أن أجيب يقول إنّ على باله زيارة بيروت لتصفّح الإصدارات الجديدة وشراء بعض الكتب. لم أعرض عليه مرّة زيارتي لنمضي وقتاً معاً ونذهب إلى المكتبات

والمقاهي. لا يمكنني أن أتخيّلنا جالسين في كاريبو أو نمشي على البحر. لماذا لا نكون صديقين؟ أمّي وغاية وقمر لسن صديقاتي. هنّ كما هنّ ونحن نتسلى بعلاقتنا كما هي. جبران بعيد. أبي أيضاً بعيد. هذه ليست مشكلته، إنّها مشكلتك، أنانيتك المفرطة... أين هي لائحة قراراتك الأخيرة. انتظري. ها هي:

1- يصير جسمي أحلى.

2- أنال شهادة ماجستير.

3- أقلع عن التدخين وعن الفاست فود.

4- أسافر.

5- أخلع حجابي.

6- أجد عملاً جديداً.

7- أحسم علاقتي بحسن.

علاقتك بحسن حسمها حسن. اشطبيها. ما هذه اللائحة التافهة يا سلمى؟ يصير جسمك أحلى، وتسافرين؟ هذه أنت؟

ضعي لائحة ثانية، أكثر ابتكاراً. جرّبي.

– كوني صديقة لأبيك.

– أحبّي نفسك. تصالحي معها.

– اسمعي نفسك. لا تمضي وقتك في جلدها وتقريعها وتأنيبها ورميها بالأوامر (مثلما تفعلين في هذه اللحظة بالذات). اسمعيها. اسمعيني. لا شكّ في أنّ لديّ ما أقوله لك. أصغي إلى صوتي الأول، ذاك الذي أعرف أنّه صادق وحقيقي. ماذا أريد؟

– حاولي، كل يوم، أن تفعلي شيئاً واحداً تتذكّرينه. تقولين إنّك البارحة ابتسمت لامرأة مرهقة تجرّ طفلين. إنّك قرأت قصيدة لم تقرئيها قبلاً. إنّك رسمت سمكة على ورقة وصنعت من الورقة سهماً

ورميته من النافذة. ليأتِ خبر كلّ يوم إلى ذاكرتك من دون موعد فتفرحي. خبر صغير.

ماذا يكون خبرك لهذا اليوم؟ الآن؟ في هذه الساعة من النهار، في ميشاز؟

– أريد فقط أن أسمع صوت أبي.

هاتفه يرن.

– إيه سلمى.

لا. أمازحك. لم أتّصل بأبي.

السبت 9739

حول غرفتي في الضيعة. العاشرة ليلاً.

رائحة ورد جوري.

تطاردني الرائحة مذ أتيت في الصباح. تلحقني من الجنينة إلى الصالون إلى المطبخ إلى غرفة الجلوس. سكبنا ماءً أنا وأمّي وشقيقتي وشطفنا البيت. طردنا أبي وأحفاده إلى الجنينة وفتحنا الماء وشطفنا. ارتفعت أصواتنا ونحن نشطف، لا نعرف لماذا. أنا وقمر غنّينا عبد الحليم، اتّخذنا من أطراف المساحات مايكروفونات. ضحكت أمّي، لكنّها لم تسمح بأن يغنّي عبد الحليم شخصياً. لا تحبّ الموسيقى في البيت لأنّها حرام وتنفر الملائكة وتجلب الشياطين.

لعبت معهنّ. اقتربت من إلهام من الخلف، وطوّقتها بذراعي وعصرتها. «يا مشحّرة فلتيني فلتيني إسّا بزحط». ركضت قمر وحضنتنا معاً. ولا فلتوني إسّا بوقع... بدناش. صرنا نقول لها، ولم نفلتها حتى رشّتنا غاية المنى بالماء. أخذت الخفّة قمر فسألت إلهام: إمّي بعدو بيّي بيعبطك؟ فصرخت إلهام: «عيب وليه يخلع نيعك خلع. بتستحيش؟».

تدخلت: لوين راح فكرك يا مشخرة. قمر قصدها عبطة عادية. بتولعوش شموع وبترقصوا تانغو تخمين يا حجّة؟

قرّعتني إلهام مجدّداً. لاحقاً جذبت وجهي بكفّيها وسحقت شفتيها على خدّي في قبلة عنيفة رطبة وضمّتني إلى صدرها. مسحت القبلة متصنّعة قرفاً مبالغاً فيه، فصرخت: عم تقرفي يا بنت عبد الكريم؟ ما تكنش مرتو التانية يللي كانت تشطفك وتحفضك؟

هكذا إذاً. يكفي أن أحكّ جلدها بقليل من الاهتمام حتى يظهر فرحها. إنّها مطمئنة. بيتها كبير وبناتها وأحفادها وحفيداتها حولها. وابنها الذي في الغربة ناجح وسخيّ ويحبّها. باقٍ أنا، لن ترتاح قبل أن تراني قد تزوجت. غالباً ما تجد طريقها إلى أزمة زواجي. هي تظنّ أنّني لن أتزوّج ما دمت أعمل وفي بيروت. وما زالت حزينة على رفضي لعلي ابن خالي أكرم. يوماً ما سأقولها كما هي: علي بدّو بنت جديدة بالعلبة يمّي، وأني طلعت من العلبة من زمين. بتظبطش معي يا طاهرة.

أنهينا التنظيف واحتشمنا قبل وصول حسين وعماد، وأكلنا فاصوليا عريضة تسبح فيها قطع من لحم ودهن الغنم... وأحسست بالدهون ستقطر من عينيّ كالشمع الذائب.

أبي أيضاً. كان ممدّداً على كنبته يشاهد التلفزيون ويدخن ويشرب الشاي. جلست على الأرض وأخرجت مجلّات المختار أتصفحها وأتفرّج على الأغلفة. «ضيعانها» قال. أخبرته أنّه ما زال بإمكانه قراءة النسخة الأميركية أونلاين. صار يضحك. لا بحب الحرف اللاتيني ولا بحبّ اقرا إلا ورق. سألته إن كان لا يزال يكتب الشعر. محاولات، قال. فيني شوف هل محاولات أستاذ عبد الكريم؟ أومأ بلا مبتسمة. فجأة قال: شعرك حلو كتير يا سلمى. تصنّعت عدم الفهم: وين عم تقرالي شعر ليش؟ ما تكون عم تبحبش تحت التخت؟

– شعرك مش شعرك. إنت شاعرة طبعاً. بس شعرك كمان طويل وناعم وحلو.

سكتّ. لم أعرف من أين أتته كلماته، ولا قصده منها. لا يقول لنا مثل هذه العبارات الرقيقة أبي. إنّه يتصرّف برقة بالغة. يمدح أفعالنا حين يراها تستحق، لكنّه لا يمدح شكلنا. خجله من النساء انسحب علينا أيضاً. كان يجب أن أسأله لماذا قال ذلك، لكنّي استحيت. لا بل خفت. خفت أن يقول لي مثلاً إنّني أظلم نفسي بالحجاب، لأنّني كنت سأقول له إنّه يتحمّل كلّ المسؤولية لأنّه لم يتدخّل ويقنعني بألّا أضعه، أو يمنعني حتى. الآن أفكر بأنّه لو منعني لغيّر حياتي، ولكنت شكرته لاحقاً. لكنت سألته لماذا لم يتدخّل في حياتنا كما كان يجب عليه أن يتدخل.

لم أجد ما أقوله إلّا: وشعرك كمان طويل وحلو وناعم... ضحكته باغتت رئتيه المدخنتين فاختلطت القهقهة بالسعال.

– أدّيه عم تدخن بالنهار؟

– علبتين. وإنتي؟

هكذا إذاً يا عبدو. أخذك المرح وقررت أن تحرجني بسؤالي عمّا يُفترض به أنّه سرّي المخبّأ عنك. أعلم أنّه يراني أدخّن في زاوية الجنينة، وأنّ أمّي لا شكّ أخبرته مع أنّها غالباً ما تردّد أنّه هو وجبران «بيخوتوا إذا عرفوا». لكنّنا نتواطأ أنا وهو على هذا السرّ.

«حسب... إذا فيه سهرة وشرب أو أفش!».

قلت له بينما وجهي في مجلة المختار، وأظنّ أنّ لوني امتقع. أنا ألعب لعبته، وأفترض أنّني أمازحه. لكنّ لسان الأفعى الذي في فمي ذهب في المزاح بعيداً. هذا أبي. رفعت عيني كأنّني أتلصّص عليه، فرأيته ينظر في التلفزيون، كأنّه لم يسمع، أو سمع ولم يعلق. وجهه لم يكن حانقاً. حينها قلت له: عجبك آخر مرّة سكرت ورقصت

بالخمّارة واستفرغت واتّصلت بحسن 37 مرّة وما ردش قمت بعتلو بليييز رد بليييز رد.

حسناً سلمى المستقبل، تعرفين أنّني لم أفعل ذلك. لكن ماذا لو فعلنا؟ هذا الرجل مليء بالمفاجآت. سأسبر أغواره لاحقاً. سألته: بأيّ ديوان قارئة الفنجان؟ قصائد متوحّشة قال، تاني واحد بكتب نزار. بحثت إلى أن وجدته وسحبته.

– بعدك عند رأيك إنو القصيدة الأصلية أحلى من يللي غنّاها عبد الحليم؟

– طبعاً!

معه حق عبد الكريم. حليمو لم يغنّ العبارة الأحلى في القصيدة. وتموت كثيراً يا ولدي. رأي أبي أنّ المغنّي كان متطيّراً وتشاءم من فأل سيّئ كهذا. لكنّ الأغنية من حرفها الأول إلى الأخير نذير شؤم. لماذا يقف عند هذه العبارة بالذات؟ لأنّها نبوءة بلا غبار عليها. رصاصة مصوّبة إلى قلبه. لن يقولها.

حملت هاتفي والكتاب وعدت صوبه. «قعّدني حدّك». اعتدل من تمدّده فدفعته إلى طرف الكنبة ووضعت رأسي على ركبته. كتبت في خانة البحث على يوتيوب «نزار قباني عبد الحليم قارئة الفنجان»... تتالت الفيديوهات. منها لنزار يقرأ ومنها حوار بين نزار وحليم جعل أبي يأخذ الهاتف من يدي ويضع نظارته ليتفرّج عليه لأربع دقائق. راقبت تجاعيد كفّيه وعنقه وجلده المتهدّل أسفل ذقنه المحلوقة طوال تلك الدقائق الأربع. حين انتهت، رفع رأسي عن ركبته وقرّب المخدّة حتى صارت تحته، وقام بينما أتفرّج على قامته القصيرة، تمشي صوب المكتبة، تجثو على ركبتيها باحثة بين الكاسيتات، ثمّ حين تجده، تخرجه من بيته وتضعه في الستيريو

الخشبي، الذي أظنّه خامس أولاده. شغّله، وبعد قليل من الصمت، انطلقت الموسيقى.

«أحلى الأقداار يا ولـدي... يا ولدي» كان حليم يقول لاحقاً، لا أعلم متى، بينما رأسي بين الحلم واليقظة، يرتاح على ركبة أبي الحريصة على ألّا تهتزّ طرباً للأغنية كي لا توقظني. أظنّني كنت أبتسم للورد الذي لفّني من كلّ جانب، وأسكرني.

نعسانة ورائحة الورد الجوري ما زالت تحملني. في يدي كتاب نزار. رائحة ورق عتيق مصفرّ، ليس بين طيّاته وردة يابسة. يحلو لي أن أفكّر أن فيه واحدة أهدتها له امرأة أحبّته. قد تكون أمّي، وقد تكون غيرها.

الخميس9749

في البيت.

عشرة أيّام مرّت ولم أكتب. لا بأس. أفترض أنّ حياتي ستكون طويلة أمامي، وسأكتب. وإن متّ فجأة، فلن تكوني موجودة لتقرئي عزيزتي الآتية. أنا علّة وجودك كما تعرفين، وإن أنا فنيت، فستفنين معي. لا خسارة. وهذه فكرة تافهة من حرفها الأول إلى هذه النقطة.

جدّياً، دعيني أقلْ إنّني بخير. لا. بالعامّية أحلى. أنا منيحة.

أنا منيحة. ما دامت أم كلثوم تغنّي فأنا منيحة. في عشرة أيّام أنجزت كثيراً. حاولت ترويض خوفي من مستقبل مجهول. واقتنعت بأنّني لست مضطرّة للحقد على حسن واقتلاعه من حياتي بطريقة شائنة. لن أخسر أربع سنوات من عمري لأنّ علاقة ما انتهت. سأظلّ أتذكّر دفئها الذي لا يُمحى. سأظلّ أذكر وجهه الطيّب. اهتمامه بي حين أمرض واهتمامي به حين يمرض. أطبخ له ويطبخ لي. يدي على شعره ويده على عنقي. حاجته إليّ حين يضعف وحاجتي إليه حين أضعف. سأترك فيّ ما تعلمته منه، وسأحاول أن أخسر الأذيّة التي حفرها في جلدي أحياناً، عن قصد أو عن غير قصد. والأذى الذي قد أكون حفرته فيه. سأنسى. سأجرّب أن أنسى.

قصص الحبّ تنتهي، أليس كذلك؟ تموت مثلنا وتصير دوداً وتراباً أحمر ووروداً وعصافير. موتها حياة ثانية. أحلى من خلودها. سيكون لحسن حياة ثانية. يتزوّج فيها، ويولد له صبيّ وبنت. يسمّي الصبيّ يحيى على اسم ابيه، ويسمّي البنت جولي، لأنّه يحبّ الاسم. زوجته يكون اسمها سلمى أيضاً. يقع في حبّها لأنّ اسمها سلمى. غريبة هذه الصدف. أن يلتقي بفتاة ليس فيها ما يحبّه غير اسمها، سلمى. لكنّها ليست محجّبة. مهذبة. مغلفة. زوجة مرسومة بأنامل مهندس. يفكّ عنها اللصاق ويعبر بها رجلاً دون الرجال. يفضّها ويصرخ: النصر لي النصر لي... أنا البداية والنهاية أنا. أنا ذكرها، قضيب حياتها ومماتها... أنا من هندسها.

أظلمه. طيّب. سأقبل أنّه لم يعد يحبّني. أحبّني لا أدري لكم من الوقت ثمّ توقف عن حبّي، كان يجب أن نقطع ما بيننا حينها. وسأحاول أن أعترف بأنّني لا أطيق ألّا أعود مرغوبة، على الرغم من غواية أنّني المحجّبة المتحرّرة. إذا جرّدته ممّا يغويه فيّ، فما الذي يبقى له؟ إنّه واقع في غواية حجابي، هذا النذل اللعين. لولا القماش على شعري لما أحبّني ولولا القماش نفسه لما ضجر منّي وهرب. ها أنا أهذي الآن.

ماذا عنك يا سلمى؟ هو ليس أساساً، أنت، في عيني، الأساس. أيّ حبّ تحملينه لنفسك ولا يمكنك أن تحمليه لأيّ رجل مفترض آخر؟ مطلق رجل! هل تحبّينني يا سلمى؟ أنا؟ أناك الماضية والحاضرة والآتية في المستقبل، والميتة بعد أجل قريب أو بعيد، قصير أو طويل؟ هل تحبّينني؟

ما بعرف.

دعيني الآن من حسن. سأقول إنّه يمكنني أن أقع في حبّ غيره، ويمكنني أن أبقى بلا حبّ، ما همّ؟ ليست أول علاقة تنتهي ولن تكون الأخيرة. وما دمت لم أفكر بالانتحار لأنّه انفصل عنّي، فسأكملها، حياتي هذه التي على ظهري.

ها أنا أكملها. أقول كان ينبغي أن تنتهي قصّتنا بطريقة ألطف، لكن من قال إنّ الناس يتمتعون بالنضج؟ إنّني، في مخيّلتي، أرسم مساراً وردياً للأحداث. في مخيّلتي، نجلس ونحكي وننهي العلاقة بالاتفاق على البقاء صديقين. ويصير بالفعل صديقاً وأحبّ غيره ويحبّ غيري ونلتقي وحدنا ونشرب القهوة ثمّ نتعانق ونغادر من دون أن ننشر بذور مشاعرنا وأحزاننا في إسفلت الطريق وعشب القلب الصريع.

هذا يمكن في مخيّلتي ولا يمكن في الحياة. إنّها ليست ورديّة. إنّها أقرب إلى الرمادي حيث لا شيء ينتهي تماماً ولا شيء يستمرّ تماماً. لم أر وسام منذ أكثر من خمس سنوات، ربّما، لم أعد أذكر. ووجهه ما زال يقفز إلى ذاكرتي. غابت عنّي ملامحه. أحتاج إلى إغماض عينيّ كي أستعيد وجهه ورغم ذلك لا أستطيع. وجهه ضبابي في ذهني وغالباً غير واضح المعالم. وما زال مع ذلك يمرّ في أحلامي. الناس لا يختفون بمجرّد أن يرحلوا. يبقون. مثل جدّتي التي ماتت. يبقون مثل الموت. حسن موتي الثاني. ستحبّ كثيراً يا ولدي وتموت كثيراً يا ولدي. يا نزار يا نزار!

يجب أن أكون بخير. لا خيار آخر لي. لكنّ الوحدة ترهقني. أو هو الخوف من البقاء وحيدة. ربّما أكثر من ذلك. الخوف من البقاء في مكاني. الناس يمرّون بي، وأنا باقية، كالواقفة على رصيف في علبة زجاجية. أراهم جميعاً. يمرّون بي ويمضون. يعيشون حياتهم

ويتطوّرون ويفرحون ويكبرون وإذا اقترب منهم الموت هربوا منه إلى ذكرياتهم الجميلة عمّا حققوه. عن الأماكن التي سافروا إليها. عن البحار التي رأوها. عن الناس الذين عشقوهم وناموا معهم. عن الأيّام لا بصفتها أرقاماً، بل تجارب تترك أثراً من رائحة وصور وصوت مطر.

أنا واقفة في صندوق من زجاج. لا أجرؤ على فعل مجنون واحد. عشرة أيّام مرت مذ كتبت آخر مرّة، ماذا أتذكّر منها؟ مشيت في شوارع بيروت. أكلت فلافل من محالّ شعبية وصوّرت قططاً شاردة ووروداً ومشيت بمحاذاة جدار الجامعة الأميركية وجدار الجامعة اليسوعية. تفرّجت على بنايات وعلى وجوه سائقي سرفيس وعلى محشورين في فانات. جلست في مقاهٍ وشربت مع ريما بيرة في مار مخايل وبدارو. ضعت في أزقة ووصلت إلى محالّ في البسطة التحتا تبيع مفروشات وأغراضاً عتيقة من السبعينيات. لم أشترِ شيئاً لكنّني تفرّجت، من خلف الزجاج. إنّني مزجّجة. شيء ما يغلّفني يمنع عنّي الانغماس في الغبار وفي رائحة العوادم. إنّني مغلّفة. لا يمكنني الفكاك من هذا النفور العميق في قلبي من المحيط. لا في الضيعة ولا في بيروت ولا في الجامعة ولا في المكتب. ولا حتى في سيّارتي. كيف يذوب الناس في الأماكن وينتمون إليها؟ هل أنا بحاجة إلى لندن مثلاً، أو باريس؟ ماذا لو بقيت كذلك. لو أنّني أعجز عن الانتماء؟ عن الوجود في هذا المكان وفي غيره؟ ماذا أفعل؟ ماذا لو خلعت حجابي الآن واكتشفت أن لا شيء تغيّر؟ ماذا يا سليمى؟

اخلعي حجابك. هذه خطوة مجنونة. ابدئي بها.

لكنّ جبران سيأتي هذا الاثنين. ربّما بعد العيد، يكون رمضان قد مرّ وجبران سافر. حينها...

الأحد 9754

عند السادسة وسبع دقائق فتحت عينيّ. كأنّني رأيت حلماً. ظننت بعدها أنني سأعود إلى النوم لكنّني لم أقدر. داهمتني فكرة صندوق الزجاج. ممدّدة على ظهري، تخيّلتني فيه. والزجاج يلتصق بوجهي، كأنّني في تابوت، أنتظر.

أنا أنتظر. حياتي مرتبة تماماً، كبيت لا يعيش فيه أحد. أنتظر الليل كي أنام وأنتظر الصباح كي أذهب إلى المعتقل. أنتظر الساعة الخامسة حتى أقوم عن مكتبي، ثمّ أعود فأنتظر الليل، فالصباح. أنتظر فرصة عمل أخرى. أنتظر نهاية الأسبوع كي أذهب إلى الضيعة وأنتظر مساء الأحد كي أعود منها. أنتظر حسن كي يقرّر ما يشاء من علاقتنا وأنتظره كي ينفصل عني ويختفي. أنتظر رجلاً جديداً لأبدأ علاقة جديدة. أنتظر في السيّارة. أنتظر في الحياة. أنتظر سرطان الثدي كي أستأصل ثديي وأنتظر سرطان الرحم كي أستأصل رحمي. أنتظر مرور الأيام كي أستأصل عمري. إنّني أنتظر. ما دمت هنا، فالحياة آمنة، ولا قلق فيها. لا شيء سيحدث في قاعة الانتظار، وها أنا أنتظر. في القاعة شاشة تعرض فيلماً عن حياتي. أراني في الفيلم جالسة في

قاعة انتظار أتفرّج على فيلم يعرض قصّة حياتي. أراني فيه جالسة في قاعة انتظار أتفرّج على فيلم عن قصّة حياتي...

إنّني، في الأفلام المتداخلة إلى ما لا نهاية، أدرك كم هو مملّ هذا الفيلم. مع ذلك نبقى كلنا حيث نحن. نتكرّر في الانتظار. لا نريد أن نخاف وأن نقلق. سنبقى هنا، جالسات في مقاعدنا، نتفرّج على تكرارنا في المرآة. ليس في الخارج ما يستحق قلقنا. قد يكون هذا أفضل ما سيحصل لنا في الحياة. لماذا نغامر؟ لماذا أغامر؟ سأبقى هنا.

أفضل ما يحدث في الحياة هو ألّا تحدث، تقول المنتظرات.

صرت أرسم أسماكاً على لوح الزجاج. ساحرة يدي اليسرى في رسم السمك. كلما رسمت سمكة، اتّسعت ابتسامة فكرتي: ما الذي سأخسره إن قمت الآن وخرجت من انتظاراتي. غيّرت مشهداً واحداً في فيلم حياتي؟ «ما شي»، سمعتني أقول. فقمت من السرير.

لم أصنع قهوة، ولم أدخن. أردت الاحتفاظ بهذا الصوت الصافي بالتحديد في ذهني، والذي قد يتعكّر ويتلاشى حين يسقط عليه المنطق البليد المتردّد بعد استرداد وعيي كاملاً. ارتديت ثيابي. بنطلون جينز وبلوزة زرقاء. مشطت شعري وربطته إلى خلف. نظرت في المرآة فضحك لي وجهي.

وضعت حقيبتي على ظهري وفتحت الباب. باقِ الخطوة الأولى. خطوتها. نزلت الدرج ببطء كأنني أتعلم المشي. ثلاثة طوابق. أحسست أنّها عشرة. إنّني كثيرات، وقلبي يرف. إنّني كثيرات، لكنّني، في الأصل اثنتان. واحدة تخرج من شقتها من دون حجابها، وثانية تمشي بجوارها لتراها وتسمعها وتختبرها. أيّهما أنا؟ لا أدري. خرجت من المبنى إلى الرصيف. أشغل وجهي الساخن بالهاتف عن أناس لا يرونني. السادسة و53 دقيقة. الشارع كله نائم. أمشي، وذراعاي العاريتان تمشيان معي. إنّهما ما أراه من جسمي. البلوزة

الواسعة بالكمّين القصيرين تشعرني بالبرودة. جسمي رطب. تخيّلت هذا النهار طوال عمري. الآن لا شيء ممّا عشته في خيالاتي يحدث. لا أحسّ بأيّ اختلاف. مع أنّه لا أحد هنا. بلى. هذا جبران ينظر إليّ، وأمّي وأبي وغاية وقمر وحسين وعماد وأخوالي وخالاتي ومعلماتي ورفيقاتي في المدرسة والجامعة. الضيعة كلها تمشي معي وتتفرّج عليّ. بيروت أيضاً. هذه تظاهرة خلفي أنا سببها. موضوعها. ما الذي يقولونه؟ ما الذي سيقولونه لي إذا ظهرت غداً في العمل هكذا؟ غداً أيضاً سأكون في المطار لاستقبال جبران وخالي أكرم. وستكون أمي وخالتي. هل سأضع المنديل على رأسي؟ لن أذهب. سأضع المنديل في الضيعة وحين... سأعود الآن إلى البيت. سأقرّر خلع الحجاب في وقت أفضل. لا. سأمشي.

ماذا اختلف؟ كنت أنزله عن رأسي في آخر الليل حين أكون سكرانة على الكورنيش. حينها كنت أفرح بالهواء ولا أفكّر. تغريني فكرة أنّني أسترق لحظتي في العراء من دونه. وتغريني فكرة المؤقت في خلعه. الآن أنا خائفة. ليس خوفاً. إنّه هذا الفراغ العميق في صدري، كأنّني أنهيت لتوّي الامتحانات وليس لديّ ما أفعله. كأنّني اقتنعت بأنّ حسن لن يعود وقد صرت وحيدة. كأنّني أقف أمام جبران بالحجاب لأول مرّة وتصفعني فكرة أنّني هكذا سأكون إلى الأبد.

إنّه التغيير. أنا خائفة من التغيير. الآن بينما اكتب أفكّر بهذا. بينما أمشي رحت أفكر بخيبة الأمل. هل كان الأمر يستحق كلّ هذا التفكير والتردّد، وهل يستحق الآن؟ لن أتغيّر لأنّني خلعته. سأظلّ كما أنا، وحياتي ستبقى كما هي.

ولست محجّبة الآن، فأين المحجّبة؟ لا يعبطر الناس فجأة. وما دمت أنا هنا الآن فأين تلك؟ أنا أعرف المحجّبة. تلويحها بيديها وتعديلها للمنديل على رأسها حين يصير رخواً. مناديلها التي بالعشرات. حبّها لشكلها فيه، ذاك الذي انقلب حقداً. ملمسه على أذنيها وشعرها ورقبتها. تحايلها عليه وتحايله عليها. شكله الزائد أسفل قبّعة التخرّج. رمي طرفيه فوق الكتفين. السخرية منه وهو يذهب معي إلى صناعة الحرام والانغماس فيه. سنوات الإنكار الطويلة. موجود كأنّه غير موجود. غير موجود لكنّه موجود. علاقتي به كعلاقتي الغريبة بالله. بالقدر. بالطبيعة. هذا لون عينيّ وهذا شكل أنفي وهذا حجابي. إنّني محجّبة. كان هذا إقراراً. العالم ينقسم إلى صنفين: محجّبات وغير محجّبات. أنا من الصنف الأول. سيكمل حياتي معي. أنا المحجّبة. أنا العسراء. أنا الملولة. أنا المحجّبة.

أين المحجّبة؟ تلك التي تلهو بالفرجة على من يتلصّصون عليها ويسألون عمّا تشربه في الكأس التي في يدها. تلك التي تتلذذ بتقطير المفاجآت قطرة بعد قطرة حين تبدأ بالحكي ويبدأون بتخبئة ذهولهم، أو كشفه، وهم يرون أنّها ليست صورتها التي أمامهم. تلك مرحة. هذه التي تمشي الآن خائفة وخجولة ووجهها في الأرض كمن تبحث عن غرض أضاعته. أعرف تلك وأراها وأتذكّر مناديلها كلها. هذه لا أعرفها. لقد عشت مع المحجّبة 14 سنة وكنّا صديقتين. من هذه؟

يجب أن أحسم أمر هذه التي تمشي في الشارع الآن. الانطباع الأول هو الأصل، وأنا أؤجّل انطباعي. وقفت أمام واجهة محلّ، ونظرت في الزجاج.

عادية. شعرها مربوط وتضع حقيبتها في ظهرها. أراها في مرايا البيت وفي خيالاتي عنها. إنّها تتحقق الآن، لكنّني أستعجل مصيرها.

لقد وُلدتُ قبل دقيقتين. اصبري عليها ريثما تكتشف هذا العالم. لماذا تستعجلين؟ رحنا ننظر بعضنا في بعض. كنّا مذهولتين. ما الذي اختلف فيّ؟ شعري وذراعاي. ماذا أيضاً؟ رقبتي. وضعت يدي عليها. إنّها هنا. دافئة. تتنفس. كأنّني اكتشفتها. كأنّني من قبل كنت أعيش بدونها، وها هي تتشرّب الفضاء من حولها. إنّها مرتاحة. ليس أنّها تحرّرت أو عتقت. لا. إنّها عنق من حقه أن يُرى. أن يكون مرئياً. أنا مثله، مرئيّة. وهذا الزجاج دليلي. وهذا جسدي. إنّه أنا التي أحلم بها منذ سنوات.

هذه التي أمامي هي أنا. هذه أنا. التقطتها من يدها، ومشينا.

تابعت، بخفة هذه المرّة لكن بتصميم. انبسطي قلت لنفسي. انبسطي يا سلمى. لا ماضي لك ولا مستقبل. لك هذه اللحظة بالتحديد. هذه الخطوة. فكّري بهذه الخطوة. بالتي بعدها. خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة بعد خطوة...

ثمّ ماذا؟ ثمّ خفّفت الوطء يا سلمى، على الأرض وعلى قلبي. نظرت إلى زجاج روحي، كان يمضي قبالتي، عليه أسماكي التي رسمتها صباحاً. باغتّه ودخلت فيه فتحطّم وتناثر من حولي، وبقيت الأسماك سابحة في الفضاء، مررت بها فالتصقت على ذراعي وعلى عنقي وبعضها تعلق بشعري كفراشات... وحملتني الأسماك فارتفعت قليلاً في الهواء، تابعت مشيي من دون أحد معي. المحجّبة اختفت، واختفت التي تراقبها، واختفت العيون التي كانت تلفّني من كلّ اتّجاه، واختفت الجالسات في الفيلم ينتظرن بعضهنّ بعضاً. لم يبقَ لي إلّا أنا. عدت سلمى واحدة فقط. أنا.

هل قلت إنّني ارتفعت في الهواء؟ لا. أظنّ الأسماك أخذتني نـزولاً. غصت عميقاً في البحر وسبحت، وحيدة، كسمكة زرقاء. صرت سمكة.

الأحد...

طيّب. أعلاه كان دفقاً عاطفياً لطيفاً. لطالما كنت بطلة الإنشاء. دعيني الآن أكمل توثيق النهار من دون فيض المشاعر.

مشيت من رأس النبع إلى بدارو. إلى ميشاز طبعاً. لا مكان آخر يفتح في هذه الساعة المبكرة، كما أنّ رغبتي عارمة بإعلان نفسي. كان ميشو على عادته جالساً على الرصيف مع رجلين أحدهما أبو جورج. دلفت إلى ميشاز من دون إلقاء تحيّة. رأتني مارو. حدقت لثوانٍ ثمّ فتحت فمها وعينيها على اتّساعهما، مثل إيموجي. ورسمت دائـرة حـول وجهها ثـمّ دوّرت أصابعها في نصف كـرة علامة شو؟ فرميت كفّي وراء ظهري، وقلت: راح! شفتاي ترتجفان.

مارو تخاف من فقدان السيطرة على برودتها إذا تأثرت. وكأيّ فتاة كوول، حافظت على طبقة صوتها المنخفضة العريضة وهي تسأل: «فينا نقول مبروك؟»، «إذا بدّك» أجبتها. «مبروك»، قالت، وأضافت: «مبيّنة غير».

– كيف غير؟

– ما بعرف. غير. بعدين شعرك حلو. أميركان كوفيه؟

ضحكت. لقد تكرّمت مارو بالإطراء الأول. لكن ما هذه الـ«غير»؟ من يراني أول مرّة من دون حجاب يقول لي إنّني أبدو أصغر سنّاً أو أحلى. لكن «غير» من دون شرح؟ سأنتظر ميشو.

في الانتظار، سجّلت فيديو لريما وأرسلته على الواتسآب. البار خلفي. «نقل مباشر من ميشاز... يلّا تعي». شاهدت الفيديو بعدها. أنا حقاً غير.

بعد دقيقة رأيت ميشال آتياً صوبي فاتحاً ذراعيه بأعرض ضحكة ممكنة لشفتيه الصغيرتين. بدا كفنّان يطلّ على جمهوره ولا ينقصه إلّا الميكروفون في يده. لم أعرف إن كان عليّ أن أقف وآخذه بالأحضان، أو أختبئ تحت الطاولة.

وقفت ومدّ يده مصافحاً. «شو هالمفاجأة؟ كيف؟ ليه؟ أيمتى. اقعدي اقعدي خبريني».

آه! لديّ ما أخبره الآن! لم أعد محجّبة. ثلاث كلمات. مازحته: نسيتو بالبيت.

– وواثقة من قرارك؟

– واثقة من قراري إني إنساه بالبيت؟ إيه!

لكنّ سؤاله أخافني. نبّهني إلى أنّ ما فعلته مصيري.

– ما بعرف إذا واثقة.

– مش مهم. يمكن كان لازم إسألك إذا مبسوطة.

– كمان ما بعرف.

ساد صمت محرج شعرت معه بأنّني كنت فظة، مع أنّني لم أقصد. كسرت الصمت بأن شرحت له أنّني منذ سنوات طويلة أفكر بالموضوع، لكنّني هذا الصباح قرّرت وخرجت من البيت راكضة قبل أن أتردّد، وجئت إلى ميشاز، وأنّه ومارو أول العارفين، إضافة إلى ريما التي لا شكّ ما زالت نائمة.

– نحنا أول عالم؟ هاي بدها سلبرايشن. خلص. عازمك على الترويقة.

قام بخطى مستعجلة. راقني اهتمامه. وبدأت أسترخي وأفكر بعملية. فتحت الواتسآب وكتبت لغروب العائلة أنّني لن أستطيع أن أكون في المطار غداً لأنّهم لم يعطوني إجازة من العمل، مع وجوه حزينة. وقلت لجبران إنّني سأكلمه وسأكون في الضيعة الجمعة ليلاً، فنفطر معاً.

كان أول من ردّ، كاتباً «مش إشكال». أثار التعبير غثياني كالعادة. أظنّ أنّ ما أثار غثياني أكثر هو أنّني لا أعرف ما الذي سأفعله الجمعة. حاولت دفع الفكرة جانباً بالكتابة، لكنّ الهاتف رنّ، وخرج صوت ريما مسعوراً: وليييييه! وليييييه! يييييه! وليييييه!

التتمّة كانت ضحكاً متصلاً لم ينتهِ بقولها: يلّا جايي جايي. بدنا نحتفل.

احتفال آخر. كأنّني رأس السنة. جلب ميشو صينية عليها صحون صغيرة كثيرة كأنّها عيّنات. مكدوس ولبنة وجبنة حلوم وزيتون وبيض مقليّ مع قاورما وحمّص وفول وأشياء أخرى من التي يقدّمها صباحاً نهاية الأسبوع. تكاد تشبه السحور. بينما يفلشها على الطاولة ونساعده أنا ومارو دوّى صوتها آتياً من الباب: وليييييييه! وهجمت فاتحة ذراعيها كأنّها تستقبلني في مطار بيروت... «زيحولي زيحولي» ومرّت بينهما ورمت نفسها فوقي ورمتني تحتها على المقعد الطويل.

– عيب وليه جرّصتينا!

– بدي جرّصك. كيف بتعملي هيك من دون ما كون معك؟ يا عيب الشوم عليكي. اخست تفوه. ولييييه متل القمر طالعة يؤبششششش.

جلست لصقي وأصابعها في خاصرتي، تهجم بها وأدفعها ونضحك، بينما ميشو يسند ذقنه بكفّه ويبتسم.

تابعت تشدّ شعري وتقرصني في خاصرتي، وتلفّ ساعدها حول ظهري وتطبع قبلاً على خدّي. اطمأننت إلى أنّني لست وحدي. عاصفة الفرح التي اقتحمتني بها جعلتني أحسّ أنّني فعلت الصواب. لاحقاً سنحكي بتفصيل مملّ في طريقنا إلى جبيل ونحن نأكل جنارك ونشرب بيرة وننوح مع كاظم الساهر. لكنّني أعرفها. الآن هي تظنّ أنّني خائفة ومتوترة، وتعلم أنّ عليها أن تضحكني لتخفف توتري.

وهكذا كان. أكملنا ما بقي من وقت نفطر، نحن الثلاثة. معظم الحديث كان بين ميشو وريما، أنا كنت صامتة معظم الوقت. أمرّر يدي على يدي الأخرى وأهمس لي: روقي. روقي.

في الطريق إلى جبيل بسيّارة ريما، أفلتُّ شعري. فتحت النافذة إلى آخرها فصار يطير كأنّه في عاصفة. فرحت به قليلاً لكنني عدت فأغلقتها بسرعة حين لم أعد قادرة على ضبطه. أوعك تربطيه أمرتني ريما. ما صدّقنا. خليه ينبسط.

خلعت حذائي ووضعت قدمي على التابلوه، إمعاناً في الوقاحة المستجدّة. مع البيرة، كأنّي بحياتي ما كنت محجّبة، قلت لريما فردّت: «شعور مميز بهنيكي عليه». سدّي بوزك، أجبتها بالطبع. بينما أنظر من النافذة، صارت عيني تلتقط المحجّبات دون غيرهنّ من الناس في السيّارات المارّة، وكفّ يدي على عنقي، خائفة عليه من الاختفاء مجدّداً. قارنتني الآن بهنّ، وفرحت لأنّني محظوظة.

قبل قليل فتحت الدرج الذي فيه الإيشاربات. نظرت فيها كلها، مطويّة في مربّعات. لم أفهم حقيقة شعوري نحوها. قد أعود إليها. قد يكون هذا اليوم حلماً انقضى.

سأنام الآن، قبل أن أعود إلى وصلة إنشاء أخرى. غداً فصل آخر.

ملاحظة لأنا الآتية في المستقبل القريب، أي في الأيّام القليلة المقبلة. لاحظي أنّ اهتمام ميشال بنا بات لافتاً. الرجل معجب. ودعينا نعترف بأنّنا، في المقابل، نحبّذ اهتمامه.

الاثنين 9755

في المعتقل.

إنّني أتسلى.

قام قلبي من النوم هادئاً. ونزلنا مشينا على البحر، وكانت المحجّبة بعيدة. ثمّ رجعت وتحمّمت وجففت شعري ومشطته وسشورته ودلعته، وأفلتّه. ارتديت القميص الأبيض لكنّني طويت كمّيه، وفتحت زرّه الأعلى. وضعت السلسلة الفضّة بمفتاح النيل في عنقي. ووضعت إسوارتي البيضاء. تردّدت ثمّ لم أضع مكياج.

عند التاسعة والربع كنت أفتح باب المصعد وأمشي إلى الباب الزجاجي للمعتقل. نظر إليّ موظف الأمن الجديد بينما أضع جزداني على الآلة كي يفتح لي الباب. هزّ برأسه ولم يقل شيئاً. لم ألتق أحداً في الممرّ إلى مكتبي. دخلت واصطدمت عيناي بعيني إلسي. أظنّها صرخت لأنّ منصور وسامر جفلا. صنعت جلبة شديدة وهي تقوم من كرسيّها وتهجم صوبي وتلتقط طرف شعري وتحكي بصوت عالٍ وتضحك ثم تركض خارج المكتب. سامر ومنصور كانا يضحكان مرتبكين. ارتباكهما أعداني وأظنّ أنّ وجهي صار بلون الدم. قبل أن أجلس كانت إلسي قد عادت تجرّ جاكلين من يدها. «واو»،

قالت هذه ولم أعرف ماذا تقصد. «قلت لك متل القمر طالعة»، قالت إلسي، ووافقتها جاكلين، وزادت: «بس هيدي خطوة كبيرة كبيرة ولازم تخبريني بالتفاصيل». أيضاً لم أعرف ما دخلها بالتفاصيل ومن قال لها إنّها خطوة كبيرة كبيرة. بقيت مرتبكة لكنّني قلت لها. «طبعاً طبعاً رح أمرق لعندك خبرك».

– أوكي ناطرتك. بس يعني منقول مبروك؟

ما الذي يجب أن يقولوه في مناسبة غريبة كهذه، لم يصادفوها من قبل؟ ربّما هذا هو الهمّ الأكبر بالنسبة لهم. مبروك أو الحمد لله على السلامة أو إن شاء الله بتتهنّي. لا بأس بمبروك بالنسبة لي، لكنّها لا تفي المناسبة حقها. ومع ذلك، لن أخوض مع جاكلين في هذا الشأن الفلسفي المعقد. مبروك منيح، قلت، فانطلقت كمن تحرّرت: «إيه ألف ألف مبروك. صرتي متلنا؟».

أصدرت إلسي جلبة تؤكد موافقتها.

«متل مين يعني؟» سألتها، «متلي أنا وإلسي»، قالت ضاحكة واختفت.

مستحيل ألّا تفرز سمّاً. مستحيل. من تقصد بـ«متلنا» ولماذا على شكل سؤال؟ أنا قبل الحجاب وبعده لست مثلهما. هما مسيحيتان أليس كذلك. كيف أكون مثلهما؟ عبارتها ما زالت تدور في رأسي حتى اللحظة. ربّما أبالغ وربّما هي أفعى أكثر ممّا ينبغي.

تكفلت إلسي بمعظم الأسئلة، ولم تترك لسامر ومنصور أن يقولا شيئاً. «أيمتى؟ وعرفوا أهلك؟ وشو حاسّة؟». أجبت باختصار لكنّني فجأة سمعتني أقول بما استطعت من ودّ: «إلسي. يعني مش كأنو كنت ما بشوف وفجأة صرت شوف. إنو عادي».

ضحك منصور وسامر معاً، وقالت إلسي «شو بكي مبسوطين فيكي.. يفضح حريشك». لم أملك إلّا أن أضحك. هذه اللبنانية

الوحيدة التي تقول «يفضح حريشك»، معطية حرف الشين وقعه الكامل في الفم. غرق سامر بالضحك وبدا أنّ الأمر يتّجه نحو مهزلة لم أمانعها لأنّها تخفف العبء. منصور كعادته قرّر أن يعطي عمقاً للموضوع فقال إنّ الحجاب لم يكن في الأصل ظاهرة لبنانية، وإنّ الستينيّات والسبعينيّات تشهد على تحرّر المرأة. لم يشجّعه أحد على أن يكمل فتجعّد وجهه ضاحكاً. يلّا الحمد لله عالسلامة. استحسنت التعبير. أفضل من مبروك.

خفت الحكي بينما عاد كلٌّ إلى شاشة كمبيوتره، وبعد لحظة ساد الصمت الذي كنت أنتظره. أظنّ أنّ الأمر قضي. أمّا جاكلين، فكلتانا تعرف أنّني لن أدخل إلى مكتبها لأخبرها «بالتفصيل»، وكلتانا تفضّل هذا. ولن أصير مثلها. فشرت.

الاثنين...

في البيت.

اشتقت إليه.

يتسلل الحنين إليّ حاملاً قصصنا من دون شوائب ولا أحزان. لا أذكر إلّا ملمس صدره على خدي.

اشتقت إليه وأفكر في أنّه لا يستحق منّي هذا الاشتياق، وأعود لأقول إنّها مشاعري وهي لي أنا. ليست له.

أعرف أنّني سأظل أشتاق إليه ما حييت. سيخف الشوق مع الوقت، لكنّه لن يختفي. أعلم. هذا الشوق وحده، هذا الفقد، مؤلم إلى حدّ أن أقرّر عدم الدخول في علاقة مرّة أخرى.

لكنّني بخير. عموماً وفي الإجمال، أنا بخير. معدتي تقول لي إنّني بخير. ليس قلبي الذي يعكس حالتي النفسية. إنّها معدتي.

حين أغمض عينيّ لأركّز على عضو داخلي ما، لا أجد قلبي ولا كبدي ولا رئتيّ، غالباً ما أجد معدتي، وهي التي تحدّد كيف أكون.

شكل يومي يرتبط بمزاجها. ولأنّني أعاملها بطريقة جيدة فهي الآن تكافئني. من الصباح أنا أشرب الماء. بعد العمل تغذّيت مع ريما صحن سلطة، وشربت المزيد من الماء. ورافقتني في رحلة التسوّق الرسمية الأولى من دون حجاب. لم أخرج من المول حاملة عشرات الأكياس مثل بريتي وومن. لا. اشتريت بلوزتين واحدة بيضاء بورود ذهبية مطرّزة على كتفيها وعلى طرفها الأسفل، والثانية زهرية، حفر. واشتريت بنطلون قماش أزرق فاتحاً. سماوياً. لكنّني جرّبت الكثير من الثياب. استمتعت بالتجريب. حتى إنّني قست تنانير وفساتين فوق الركبة ولم أحزن حين نظرت في المرآة. وجرّبت سكربينات. كأنّني أول مرّة اشتري ثياباً. كأنّني أول مرّة أرى هذه الثياب. عيني تعوّدت على الأكمام الطويلة، أراها دون غيرها. دماغي لا يرى الفساتين بلا أكمام. لا يرى التنانير. كل ما هو «لو كت» كان خارج مدى الرؤية. فجأة صارت الاحتمالات مفتوحة، لانهائية، حتى إنّني لم أعد أعرف ماذا أشتري. ريما تصرّ على جمال عنقي وكتفيّ وما بينهما. «كيف كان إلك قلب تخبّي هيك جلد مش حرام؟» العكس صحيح. كشفه هو الحرام. فاتني الكثير من هذه الحياة يا ريما. ما يحزنني هو عمري الضائع سدى في السنوات العشر الأخيرة من حياتي. في السابعة عشرة كان رفضي لحجابي قد اكتمل. وبقيت عشر سنوات أخرى فيه. هذه كانت أحلى سنوات عمري. سنوات بيروت والجامعة والحياة. من البارحة يراودني هذا اليقين بأنّني وصلت متأخرة. تأخرت عن كلّ هذا. كان يجب أن أخلعه مع نزولي إلى بيروت. لماذا بقي حتى الآن؟ أسأل نفسي الآن لماذا أبقيته؟ لأنّني جبانة. لا أملك سبباً آخر. ولأنّني جبانة، فالحياة بدأت من دوني وها أنا أصل متأخرة كثيراً على

الموعد، وعلى البهجة بالمرّات الأولى. إنجازي الكبير لا يُذكر عند ريما التي لم تتحجّب. ليس شيئاً عند كلّ من لم تتحجّب في حياتها. إنّني كمن تكون فخورة بأنّها حققت حلمها بالإقلاع عن المخدّرات. التراجع عن خطأ ليس إنجازاً يا سلمى.

طيب. ما هو الإنجاز؟ لقد خلعت حجابي وأهلي لم يعرفوا بعد. دعيني على الأقل أستمتع بالأيّام الأولى.

الخميس 9758

العاشرة و14 دقيقة ليلاً. على البلكون.

يا قلبي آه... الحبّ وراه.

يا لها من بيروت. لذيذة هذه العبارة. يا لها من بيروت. يا له من ليل هذا الربيع الهابط على شرفات الأبنية. أفطر الصائمون بعد أول يوم من شهر رمضان. واتسآب الفاميلي يمطرني بالصور السعيدة للمائدة وأمّي وغاية وقمر وجبران. غاية تحمل سيخ اللحم المشوي وتقرّبه من فمها المفتوح كأنّها ستلتهمه. قمر تطلّ من خلف جاط الفتوش العملاق بعينين ساخرتين. جبران لا يتفاعل مع الكاميرا. جالس بقميص قطني ألماني فاقع الاصفرار. طويل عريض المنكبين، بلحية. والدي يبدو جالساً في ظله، بذقن حليقة، أعلى رأسه يصل إلى كتف ابنه. ضئيل كعادته. أرسلت إيموجي باكية. «خلولي شوي جايي بكرا».

إنّه يومي الخامس من دون حجاب. كل يوم أصل إلى البيت، أركن السيّارة وأمشي إلى الجم. 45 دقيقة من البربير إلى كورنيش المزرعة إلى مار إلياس. الازدحام بين السادسة والثامنة مأساوي.

مأساوي إلى درجة مضحكة. وجوه تذوب في السيّارات. أناس يهرمون ويتجعّدون وتغور عيونهم في محاجرهم ورويداً رويداً يترمّدون وينفخ عليهم أطفالهم من المقاعد الخلفية فيتلاشون في الهواء.

كلهم. لا فرق بين سائق سرفيس وبين امرأة لا تشرب الماء كي لا تسمن، وجهها كله يختبئ خلف نظارتها الشمسية العملاقة داخل سيّارتها العملاقة فوق شفتيها العملاقتين تحت أنفها الضئيل.

الناس يترمّدون، وأنا أمشي، حقيبتي في ظهري وشعري في ذيل خلفي وأم كلثوم في أذني. كما كنت أحلم أن أكون. يا لها من بيروت. أشفق على الناس في السيّارات، وأبتسم للأطفال يتسوّلون بينها، وأبتسم لعيون الشبّان المحدقة، في تكتيك وجدته نافعاً. فحين أردّ على تحديقهم بابتسامة محايدة، يرفعون عيونهم عنّي، لأنّهم على الأرجح لا يتوقعون مثل هذا الفعل منّي ولم يستعدّوا وهم يوقفون شعر رؤوسهم عالياً لأن تبتسم لهم التي ينظرون إليها. ربّما يظنّونني مخبولة. من التي تبتسم لبشري أو حتى لهرّة بين السادسة والسابعة على كورنيش المزرعة. أنا أبتسم. أوزع الابتسامات. أنا بائعة الابتسامات المجّانية. خذوني واصنعوا منّي تمثالاً واعبدوني.

لكنّني أتسلى. في الجم اضطررت إلى التعريف بنفسي مجدّداً للكوتش جو الذي نسيني تماماً. اضطررت لأن أقول إنّني رفيقة ريما وكنت محجّبة فقال آه. بدا لسبب ما محبطاً ثمّ قال: «بلا مؤاخذة إنتي من الجنوب ما هيك؟» أومأت بنعم، فصمت قليلاً، ثمّ قال: طيّب. خلينا نبلش.

هكذا، لثلاثة أيّام، أتدرّب ساعتين كل يوم. أركض وأؤدّي حركات ما أنزل الله بها من سلطان. وللأمانة، فإني فرحة بشعري وهو يقفز وراء ظهري يميناً ويساراً بينما أركض. وأفرح حين أمسح العرق

عن عنقي. وأفرح ببيجاما الرياضة الضيقة، وقد بدأت أحسّ بجسمي يتغيّر. وأنا أتسلى.

يا لها من بيروت، أليس كذلك؟ أمس بعد الجم ذهبت إلى ميشاز وحيدة. جلست إلى البار، ومع أنّ ميشو تحمّس وقرّر أن يسقيني نبيذاً، قرّرت أن أقلد شيرين، وطلبت بيرييه. كانت كأس الماء أطيب من أيّ كحول شربته في حياتي، ربّما لأنّني آتية من النادي، وربّما لأنّني لم أكن مضطرّة إلى هذا التحدّي الذي كنت أجبر نفسي عليه بأنّني محجّبة تشرب. لا أعرف.

ميشو كان يرتدي قميصاً أبيض ضيّقاً، بدا فيه بأناقة أجمل مثليّ في العالم. لكنّ اهتمامه الشديد بي ينفي عنه مثليّته. الرجل يحيط بي من كلّ الجهات. يستخدم كلّ طبقات صوته ويجول بينها بخفة وهو يحكي عن اهتمامه بأشجار البونزاي وأنواع الشاي وطرق تحضيره وطقوس شربه. بدّي إعزمك شي يوم على التراس عندي فوق على الشاي. عالم تاني. أهدى لي سواراً قال إنّه من صنع الهنود الحمر. أين وجد هنوداً حمراً في بيروت لا أعرف، لكنّه قال إنّ السوار يلتقط أحلاماً جميلة حين أنام. ثلاثة خيوط صوف كل واحد بلون، ملفوفة بعضها ببعض، تنتهي بصدفة صغيرة، يمكنها أن تلتقط أحلاماً جميلة؟ ربما. على كلّ، البارحة نمت بها ولم أر شيئاً.

حسناً، قد أقبل دعوته على الشاي، لكنّني الآن ألعبها ببراءة تامّة. إنّني أستمتع بوقتي معه. أظنّني ذهبت وحيدة إلى ميشاز عند التاسعة ليلاً لأكون معه. لكنّه كبير. 42 سنة. بيني وبينه 16 سنة.

أف! سلمى! إنّه أول يوم في رمضان. أول رمضان من دون حجاب منذ 14 سنة. ماذا عن غد؟ ماذا سأفعل؟

دعيني أسمع أم كلثوم. غداً نقرّر.

الجمعة 9759

الكورنيش، 11 و35 ظهراً. أكتب على التلفون.

جالسة في السيّارة. ارتديت قميصاً بكمّ طويل. هذه ثالث سيجارة على التوالي. ستمشي بي السيّارة بعد قليل إلى الضيعة. إنّني أماطلها. نفسي ضيّق ويداي ترتجفان لكثرة ما دخّنت وشربت قهوة. لو أنني لم آخذ اليوم إجازة. لو أنّني لا أذهب إلى الضيعة بعد اليوم. يلتقط أحلاماً سعيدة قلت يا ميشال؟ لم أنم طوال الليل. كابوس في طيز كابوس. ربّما لم أنم نوماً حقيقاً لأكثر من ساعتين. عيناي الآن ترقصان مع أطراف أعصابي. وهذا المنديل على المقعد بقربي.

يلّا يا سلمى. اتّكلنا على الله. إلى الضيعة. ولا تلحقني مخطوبة. ويا ناظراً إليّ نظرة حسد، أشكوك إلى واحد أحد.

الجمعة...

من أين أبدأ قصّة هذا اليوم؟

دعيني أبدأها من الأول.

وصلت إلى الضيعة واحدة ثانية، هشّة ترتعش من الخوف. تجنّبت كل الوجوه من الطريق العام حتى مفرق البيت. في الطلعة، أبطأت السيّارة لأنّ جسدي ثقل فيها. صار جسداً داخل جسد داخل جسد. صرت بسبب رعبي أثقل. ليس أنّهم سيلتهمونني لكنّني الآن أواجه المواجهة، وهذا رعبي.

ركنت السيّارة في مدخل البيت خلف سيّارة أبي وسيّارات أخرى، لعماد وحسين وواحدة ثالثة جديدة. كلهم هنا ما شاء الله! تناولت المنديل عن المقعد. حملته، ثمّ نظرت إلى مرآة الباب. رأيت وجهاً شاحباً، يكفيه أن يضع المنديل على رأسه كي يعود اللون إليه، وتنتهي قصّته. أضع المنديل الآن وأؤجّل المواجهة. بقيت أحدّق في وجهي. رفعت ذقني ونظرت إلى عنقي. تركت المنديل وفتحت الباب وخرجت. الآن خلعت حجابي فعلاً.

أحاول أن أتذكّر بماذا فكرت وأنا أمشي من بوابة البيت حتى الجنينة. لا أذكر شيئاً. لا أذكر كيف عبرت هذه المسافة ولا أذكر كيف عرفت أنّهم جالسون في الجنينة. ربّما أتاني صوتهم فلحقته. صرت فجأة أمامهم أو هم فجأة صاروا أمامي، كلهم. أمّي وجبران وغاية وحسين وقمر وعماد وخالي أكرم. بنظرة واحدة رأيتهم كلهم لكنّني لم أر أبي. كان فمي جافاً لكنّني كنت أبتسم، وشفتاي ترتجفان. أول ما رأيته كان وجه أمي. كان منديلها على كتفيها وشعرها مربوطاً كعادته إلى خلف. مثلي. سمعت صوت ضربة كفّها على أعلى صدرها، وسمعت شهقتها العالية وصرختها: يه! ثمّ تابعت أنظر إليها تطوي نفسها على فخذيها وكتفيها تهتزان، ونشيجها يعلو. أطلقت إلهام إشارة انطلاق مهرجان التراجيديا الآتي.

فجأة صار صوتي في رأسي بطيئاً. ينتظر طويلاً بين كلمة وأخرى، ومع ذلك فهو لا يقول شيئاً. صفحة بيضاء.

تحرّكوا كلهم دفعة واحدة كأنّ زلزالاً وقع للتوّ. صمتنا جميعاً بينما إلهام تكمل بكاءها الذي صار لسبب غريب يعلو بدلاً من أن يخفت. أظنّهم كانوا يحدّقون بي وقد بقيت أحدّق في ظهر أمي، متجنبة ما أمكن عينيْ جبران.

– بشهر رمضان كمان يا سلمى. حرام عليكي يا خالي!

قال الخال الطويل قوله، مثل العظماء والزعماء والقادة والأنبياء، ومشى مارّاً لصقي، بعدما ربّت ظهر أخته. «أستغفر الله العظيم»، ختم مغادراً. قد يكون لاحقاً، في ظلام الليل، تسلّل عائداً إلى ألمانيا المؤمنة التي كلّ نسائها منقبات، كي لا يعود يسقط نظره الشريف ثانية على سفوري اللعين الحقير. قد يكون هرب تحت جنح الظلام درءاً لعاره. لعله الآن واقف يبكي ما آلت إليه حاله، فابنة أخته، حريمه، شالت عن رأسها. يا لهول المصاب. هذا الجحش.

بدأت أعود إلى وعيي. نظرت في الوجوه الواجمة حولي. كانت غاية وقمر حول أمي، ورأساهما المحجّبان يحيطان برأسها الملقى في حضنها. وكان عماد وحسين ينظران بارتباك إلى جبران، الذي يحدّق في وجهي.

أين أبي؟

تسمّرت في مكاني، لا أجد ما أقوله وعاجزة عن الدخول إلى البيت. كان يسلخ ثيابي عني. يعرّيني ويحدّق فيّ وكلّ همّي أن أخبّئ خجلي المكشوف بين ساقيّ. فجأة وقف وصرخ: يا أستاذ عبد الكريم. تفضّل شوف بنتك. «يا إستاذ» التالية كانت صرخة طويلة

فتحت باب البيت ليطلّ أبي نصف نائم. لم يسمح لوالده بالكلام: «تفضّل شوف منظر بنتك كيف جايي عالضيعة».

«منظر؟ ليه عم تحكي هيك جبران؟ بدّك اتحجب... »

كنت أظنّني أرتقي بالوضع المزري الذي نحن فيه إلى مستوى نقاش بين شخصين. «بتسدّي بوزك وبتاكلي خرا وولا كلمة». وهجم وفي لحظة صار أمامي، ونفر جسمي إلى الوراء بينما يده تجرف الهواء أمام وجهي وتصيبني أسفل ذقني.

أظنّني شهقت. لو ملأت صفعة هذا الكلب وجهي لرماني أرضاً. كنت سأضع وجهي في الأرض، وأبكي. لكن لا. شددت عنقي إلى أعلى، وفتحت عينيّ على اتساعهما في وجهه. وأطبقت فمي. وقف عماد وحسين بيننا يدفعانه إلى خلف بينما ينطلق في صراخ التقطت منه: بدّك تجرّصينا. يا عيب الشوم. حيوانة.

– خلصنا يا جبران!

صرخ أبي فيه وقد صار بقربي.

«مبسوط فيها؟ بدل ما تفقعها كف تعمي خلقتها؟»».

سأله أبي سؤالاً قدّرت أنّه من النوع الجيّد: «شو رأيك ألزقك كفّ إلك إعميلك خلقتك...» ثمّ أفلت صوته منه عالياً: «يا كلب يا ابن الكلب».

جاء صوت أمّي: «اصحك تمد إيدك عليه. بدّك تضربو كرمال هيدي؟»».

شكراً أمي حبيبة قلبي.

تابع أبي وابنه الكلب حوارهما البنّاء:

– هيدي تربايتك يا أستاذ. مبسوط هيك ببنتك تجرّصنا وتفضحنا.

– تربايتي بتشرّفك يا كلب.

– معش تقلي كلب. بنتك الكلبة. جايي على الضيعة شايلة عن راسها وأبصر كيف عايشة ببيروت.

– بتسد بوزك ما دخلك فيها ما تكون انت يللي مخلفها يا كلب يا حيوان عم تمدّ إيدك على إختك يا حيوان...

– بمد إيدي عليها وبلعن منظرها كمان.

– بتلعن إجري أنت وإمك. شو ما تكون سلمى يللي قتلت الحسين. روح انقلع رجاع على ألمانيا جايي بدّك تربّينا يا حمار.

هذا ما التقطته، أو ما أتذكّره من المعركة غير المتكافئة. الابن لن يشتم أباه، والأب، بعد صمت شبه أبدي، عاد فجأة أستاذ المدرسة الذي إن أراد أن يقرّع فإنّه يجيد سحق الذي أمامه. أمي التي كانت في صف جبران هالها الصراخ وصارت جالسة على الأرض تضرب فخذيها وخدّيها بكفيها بينما عماد وحسين لا يفعلان شيئاً محدّداً عدا عن أنّهما يشدّان ساعديْ أبي وجبران كأنّهما يريدان إبعاد كلّ منهما عن الآخر، وأنا لصق أبي وأثر أصابع جبران يلسعني.

– لمين بدها تطلع؟ كافرة متل الأستاذ بيها. هذا الشبل...

– سد بوزك انقلع. خلص. تاركلك الإيمان إلك ولأمك. سلمى. امشي قدامي نازل معك على بيروت.

شدّني ومشى بي صوب البيت، ولفّ حسين ذراعه حول كتفه ودخل معنا. راح يطيّب خاطره بينما أبي صامت يدخن، وأنا أستميت على سيجارة، أتخيّل نفسي أدخل الصالون وأسرق واحدة لأدخنها في الحمّام.

حين ضجر حسين من الصمت، وقف مستأذناً بالخروج، مطلقاً ككلمة أخيرة حكمة لا معنى لها: القضيّة كبيرة وبدنا كلنا نطوّل بالنا حتى نعرف كيف نتصرّف يا عمي.

حين اختفى هو والقضيّة الكبيرة، التفت إليّ أبي وحدّق في وجهي، فابتسمت له. ابتسم، ثمّ أسقط الهمّ وجهه. أظنّه خاف من موقفه المستعجل بالنزول إلى بيروت. بالخروج من صومعته. كيف يذهب إلى بيروت وأين يسكن وكيف يعيش؟ لقد خاف المسكين أن يحاسب على كلامه. المسكين. واجه ابنه لكنّه ندم. وتلك أخذت ابنها والبقيّة البقاية وذهبوا إلى بيت غاية أو قمر كي تترك له مساحة للعدول عن قراره. أظنّها تعلم أنّه لن يذهب إلى مكان. لقد أحرج نفسه وأنا السبب.

أبي! كنت أنتظر منه أن يواسيني. أن يشجّعني. أن يقول لي لا دخل لأحد برأسك. أن يحكي. لكنّه ظلّ صامتاً حتى قمت ودخلت إلى غرفتي، ودخنت فيها، متيقنة من أنّه لن يدخل عليّ. وحتى لو دخل...

صرنا ما بعد منتصف ليل السبت 9760

سأكمل حياتي على هذه الفكرة: كنت قد بلغت 9760 يوماً حين ضربني أخي وأهانني.

ولأنّني أعرف نفسي، فلن أنسى. ستلتهمني هذه الذكرى. ستأكلني من داخلي. لقد وجد أنّ من حقه اختراقي هكذا. اختراق طبقات تلو طبقات من أيّامي وعمري وحياتي وأحلامي وحبّي وكرهي لنفسي وضربني، وعجزت عن الدفاع عن نفسي، وسكتّ. ضربني. أبي لم يضربني يوماً. أمي توقفت عن ضربي حين صرت في العاشرة. لم يكن ضرباً أصلاً. كانت تصفعني على مؤخرتي حين أقلب البيت. ضربها لم يكن مؤلماً. كان كل ما تستطيعه حين أخرجها عن طورها وأصيبها بالجنون. تلحقني وترميني من بعيد بالشحّاطة ولا تصيبني وإذا وصلت إليّ يكون صراخها أقوى بمرّات من ضرباتها الخفيفة على المؤخرة.

هو لا. كان كمن يحاكمني وينفذ حكمه في آن واحد. «إنتي عذبتي إمك ولازم تتعاقبي». هكذا فعل حين كنت في السابعة. التقط يدي وضربني على ظهر كفي ضربات متتالية يمكنني أن أحسّها الآن وأسمع صوتها. لم أنس. ظلت معي كلّ عمري. ما زالت

تلاحقني. ذكرى أظنّها تافهة لكنّها ما زالت تلاحقني. تظهر في أسوأ لحظاتي. كأنّها أبشع ما حدث لي. الآن، مرّة ثانية. إن لم أنتقم فلن أنسى. لكنّني لا أجيد الانتقام.

ولن أسامح...

داخلي يطفح بالشتائم، لجبران وأمي وخالي الحمار. لكنّني لن أشتم. سأترك حقدي في داخلي، وسأصوّب به عليهم. سأكرههم.

هذه بلاهة يا سلمى. ماذا يعني أن تكرهيهم؟ كيف يُصرف هذا الكره؟ تقفين وتقولين بكرهكم بكرهكم. اكبري قليلاً. كان عليك أن تدافعي عن نفسك حين هجم عليك كبغل، لا أن تصمتي كمذنبة. خفت منه. خفت أن يهجم عليك ويضربك. لذا صمتّ. كان كافياً أن تفتحي عينيك في وجهه؟ يا جبانة. يا حقيرة.

ها أنت صنعت لهم حدثاً مسلياً. أمك أخرجت فائض الدراما المكبوت، وجبران ضربك لأن الموقف يتطلب منه أن يضربك أمام نسوة البيت، لأنّهنّ دجاجات وعليه أن يكون ديكاً، أن ينفعل بما يتلاءم مع اللحظة التي أبكت أمك. وخالك أطلق حكمة تافهة كوجوده لترنّ في سماء الضيعة إلى الأبد، ووالدك دافع عنك لكنّه لم يجرؤ على ردّ الصفعة بمثلها. هل كنت سترضين لو صفعه؟ هذا حقك أنت. واجبك. أن تردّي الصفعة بصفعة.

لكنّني لا أعرف. لا أعرف كيف أدافع عنّي. لا أعرف. لا أعرف كيف أردّ يده ولسانه. ليست لي هذه المهارة في صدّ البشر عنّي. قد أكون ضعيفة. بلى. أنا ضعيفة لكن عليك أن تقفي معي لا أن تسحقيني بكلامك. لا. لن أضربه. طيّب. لماذا لم تديري له الأيسر؟ لماذا لم تسقطي عند قدميه وتعتذري منه وتهرعي إلى أول منديل وتلفّي به رأسك؟

اتركيني لشأني الآن. أرجوك. أرجوك.

ماذا سنفعل الآن؟ إلهام وجبران لم يأتيا بعد. أظنّهما سيناما هناك. أفكّر بأن أغادر إلى بيروت. لا. ليس في منتصف الليل. انتظري حتى الصباح. لا تودّعي أحداً. لملمي كلّ ما استطعت من أغراضك وغادري بلا عودة. خذي دفاترك أيضاً.

سأنام الآن. تعرفين ما الذي يلحّ عليّ؟ إنّها تلك اللعبة التي ألعبها حين أختنق من شخص ما، لتساعدني على النوم. أتخيّل أنّه يقف في زقاق معتم، كأنّه بين جداري بنايتين عاليتين. يقف هناك وأنا أمشي من الخلف، وأصل إليه وأضع مسدّساً في رأسه. نظلّ هكذا، لا أطلق النار. أعاقبه بأن ينتظر فقط. أفرّغ ما في قلبي من حقد عليه بتصويب المسدّس إلى رأسه. أميته رعباً ريثما أغفو وتتلاشى الصورة.

إنّني أتخيّل أنني أضع مسدّساً في رأس أبي.

الأربعاء 9764

عزيزتي أنا،

تحدث أشياء كثيرة وبسرعة، وأنا مضطربة.

قد تكون كلمة مضطربة غير دقيقة. أنا هادئة الآن. كأنّني على مسافة منّي، أفكّر ببطء وبرودة وأقرّر.

كأنّني أخسر عاطفتي. استيقظت السبتَ من دونها. فتحت عينيَ على صوتي يقول لي إنّني لست مضطرّة إلى من يشدّني إلى الخلف. إلى من يزعجني. جبران وإلهام؟ يمكنني الاستغناء عنهما. أبي؟ يمكنني الاستغناء عنه. غاية المنى وقمر؟ خالي أكرم وأخوالي وخالاتي وعمومتي وعمّاتي والضيعة. يمكنني الاستغناء عن كلّ هذا. وليس أنّ شيئاً ما سينقصني. بالعكس. سأكتسب فراغاً زائداً في حياتي أنا بحاجة إليه ويمكنني أن أملأه بما يفرحني. ولن أكرههم، لكنّني لن أحبّهم أيضاً. سأتركهم حيث هم، وحيث تركت المحجّبة. وأمضي.

حتى جبران. لن أكرهه. لن أشفق عليه لأنّه ضربني عجزاً منه عن القيام بتصرّف أرقى وأذكى، أو لأنّه سيبقى في صندوقه حتى يموت. لن أشفق عليه لكنّني لن أدع صفعته في قلبي. إنّها تحرق

وجهي وقلبي معاً، لكنّني لن أبقيها. سأؤجّل الانتقام وقد لا أنتقم. لا أريد أن أعيش على أمل الانتقام. هذا مؤذٍ أليس كذلك. سأنسى.

لم أودّع أحداً. غادرت إلى بيروت وهم نيام. غادرت وأنا أفكّر بأنَ حياتي لن تبقى على حالها بعد الآن. أمّي لن تعطيني حصّتي من كرم جبران الشهري، بل لن أقبله بعد اليوم. سأعيش براتبي. وسأبحث عن عمل آخر وعن رجل آخر وعن حياة أخرى. لن أعود إلى القرية، على الأقل حتى يسافر جبران. مجرّد أن فكرت بأنّني لن أراه بدأت الروح الإيجابية تحيط بي.

كنت بحاجة إلى صديقتي لكنّها كانت بعيدة مع أحمد. لم يبق إلّا الجم. لم أحتمل ابتسامة زياد وهو يقترب صوبي. تودّد بشكل فائض جعلني أحزن على نفسي لأنّه كان سبباً تافهاً لانتهاء علاقتي بحسن. لاحظ أنّني غير مهتمّة بعضلات كتفيه فانسحب وتركني لشأني. ركضت على التردمل. أعني، ركضت على التردمل. ربّما كانت هذه المرّة الوحيدة التي أركض فيها بهذه السرعة طوال ٤٤ دقيقة. كنت أركض هاربة من الصور في رأسي. من كلّ الصور التي صارت تتوالى عليّ بإرادتي. كلّ الصور المحفوظة. جاكلين وهي تقاطعني بينما أحكي، «طيب طيب» وتنفض الهواء بكفّها كي أخرج من مكتبها، وأخرج. حسن وهو يقول لي بتنتاكي، وصوتي سكرانة أتوسّل إليه. وسام وهو يضرب بقبضة يده على تابلوه سيّارته صارخاً، خنقتيني، خنقتيني. ما عاد قادر شوفك. شوفير السرفيس وهو يطردني من سيّارته لأنّني تجرّأت أن أقول له إنّ اللتين صعدتا لتوّهما ذاهبتان في غير طريقي. بدك تركبيني بألفين، قال محدّقاً في المرآة، افتحي الباب والله معك.

هذا ما أتذكّره الآن. هناك تذكّرت قصصاً أكثر. بحثت عنها في ذاكرتي كي أستعيدها وأركض بعيداً عنها، فتصغر... لا تتلاشى، فقط

تصير أبعد. وعلى العكس من الحياة، الركض يبدأ مرهقاً في اللحظات الأولى، ثمّ كلما أركض، يخفّ التعب، حتى يختفي ولا يبقى إلّا صوت الشهيق والزفير وضربات القلب والإحساس الطاغي بالحرّية. كنت مستعدّة لأن ينفجر قلبي ولا أخسر هذا الإحساس. كنت واثقة. كنت واثقة بأنّ حياتي تتغيّر في تلك اللحظة. بأنّني أتغيّر. أخطو خارج تلك المتردّدة. كنت واثقة بأنّني أركض بعكس وقتي. إنّ عمري يصغر وأيّامي تكثر. حتّى أيلول، سأكون ما زلت في السادسة والعشرين. ما زلت صغيرة. وما زالت حياتي أمامي وسأركضها كلها. سأستمتع بالركض فيها. سأستمتع بها. ما بي؟ أظلّ خائفة، وأظلّ نادمة وأظلّ غير راضية عن نفسي. ما بي؟ سأصير اليوم ما أريد. الآن. سأديرها بنفسي دفة حياتي هذه وسأفرح بها. من الآن. الآن، بعد أن أوقف هذه الآلة الجهنّمية لأنّ نفسي بدأ ينقطع ولأنّ الضجّة التي تثيرها قدماي على الآلة تخترق الموسيقى التي في رأسي. الآن، ريثما ألتقط نفسي.

أوقفتها ونزلت عنها، كانت ساقاي خفيفتين. مشيت على قطن. أخذت حمّاماً طويلاً. خرجت بشعر مبلّل وتركت سيّارتي في مكانها. عبرت الطريق إلى الرصيف المقابل، ودخلت وسألت إن كان يمكنني قصّ شعري. كان الصالون شبه خالٍ أيضاً. بيار، صاحب المحلّ بالشاربين الرماديين اللذين يخبّئان شفتيه. أقصر شي، قلت له. تباحثنا وأراني ألبوم القصّات وانتقيت واحدة قال إنّها ستليق بوجهي المدوّر. قصير من الخلف وطويل عند الطرفين. «متل الفيل يعني؟» أضحكته. «هلأ بتشوفي. روعة رح تكون». بينما ندردش، قلت له إنّه أول رجل يقصّ شعري، وإنّني كنت محجّبة. لا أعرف من أين أتتني الرغبة في الثرثرة لكن من الواضح أنّها حمّسته. رفضت تلوينه، ورفضت الاحتفاظ بخصلاتي الطويلة، فشكرني لأنّه سيستخدمها إكستنشن. أثنى مراراً على نوعية شعري. استغرب أنّني

قرّرت أن أقصّه قصيراً بعدما خبّأته طويلاً كلّ عمري. استغربت معه، لكن بينما يجفّفه، كنت أنظر في شعري الجديد ووجهي الذي اصطبغ بأحمر السعادة.

رأيتها في المرآة تنفصل عنّي، هذه الخصل الطويلة. لقد خبّأتها طويلاً ولما حرّرتها قتلتها. قطعت أعناقها المستدقة. لكنّني، بينما تسقط، كنت سعيدة بأنني أتحرّر من اثنين، حسن والحجاب. سيطول مجدّداً، كنت أقول. هو ليس حسن، وليس الحجاب. هو شعري.

لديّ العمر كله، أليس كذلك؟ خرجت من الصالون بحسم جيد على فاتورتي، ألمس رقبتي من الخلف حيث كان شعري القديم، وأخاف على شعري الجديد. هذا شعري وأنا أحبّه. في البيت، ارتديت الجينز الممزق والتي-شيرت الصفراء. وضعت حمرة خفيفة هي أفضل ما يمكنني صنعه بالمكياج. أنا الجديدة أستحق لوك جديداً. صوب التاسعة وصلت إلى ميشاز، أنا ونواياي. تدحرجت عينا ميشو من وجهه على البار أمامي. شربت نبيذاً أبيض ودخنت سيجارة. مع الكأس الثانية كنت قد حدّدت وجهتي لهذه الليلة. ليلتي. أخبرته عمّا حصل مع جبران والعائلة. قال لي ما لم أفكّر به قبلاً. قال إنّ جبران يغار منّي. إنّني أصغر منه، وأقوى منه، بدليل جرأتي على ديني وعلى أهلي، وإنّني متعلمة وأذكى منه، وأكثر حرّية. هذا على الأقل ما يدور في لاوعي جبران. أنا أسوأ ما يحصل له في حياته المملة، زوجاً وأباً وتاجر سيّارات. لم يضربني لأنّني سأجرّصه في الضيعة، ضربني لأنّه لم يستطع تحمّل الحسد في قلبه.

نزل كلامه عليّ مطراً ناعماً. قد تكون حيلته ليقنعني بأنّني انتصرت في مواجهة خسرتها مسبقاً لكنّني أحببت اللعبة وقرّرت أن أصدّقها، وأن أعمل على تمتينها في نفسي. وقرّرت أن أكافئ ميشو.

مددت جسمي صوبه، فمال إلى الأمام، وطبعت قبلة على خدّه، ثمّ مرّرت ظاهر كفّي على لحيته النابتة. ها أنا خطوت خطوتي الأولى، وقد وقف جامداً للحظة بعدها وعيناه في عينيّ. صبّ كأساً ثالثة لم أكن بحاجة إليها، وغاب من خلف البار، ليعود بعد قليل من وراء ظهري: بدك نفل من هون؟

شربت ما بقي من الكأس وقمت وخرجنا. أنعشني هواء الرصيف. لوين؟ سألته، فقال منكمل السهرة عندي فوق على التّراس؟ في المصعد، ملت صوبه وقبّلته على فمه. كانت قبلة قصيرة استغلها بسرعة ليحيطني من خصري ونتبادل قبلة طويلة ورطبة. لم نقتحم البيت ونحن نمزق ثياب بعضنا ونحطّم الأثاث كما في الأفلام. دخلنا بهدوء ودلني إلى التراس ودخل يعدّ صينية أجبان ونبيذ. التّراس جنينة كاملة بخيمة ومقاعد وأشجار صغيرة وشتلات وورود وجدار حجري مضاء ومياه تنزل عليه. كنت أتلمّس طعم قبلته في فمي. لم أفهمها. لم تكن محبطة لكنّها كانت غريبة. قبلة أولى بعد أربع سنوات من شفتي حسن. لذيذة لكنّها بلا أثر واضح. كماء ليس بارداً بما يكفي لكنّه ليس فاتراً. سنرى تتمّة هذه الليلة. كنت فعلاً مشتاقة إلى رجل، وإلى الفكرة نفسها، بأنّني مشتاقة إلى رجل. سيكون ثالث رجل أنام معه في حياتي. لنر.

أكلت عنباً وبعض أنواع الجبن والكثير من كبيس الجنارك واللوز الحامض. سألني ماذا نسمع فقلت أم كلثوم. أعطاني هاتفه لأختار أغنية على يوتيوب، فاخترت الرباعيات. لم تخرج الموسيقى من التلفون بل أتت من الجدران. بلوتوث موفق قلت له. بدك ندخن؟ طبعاً، طبعاً قلت. جلب صندوقاً خشبياً محفوراً عليه «ويقول لي سلّم على ليلى». مسمّي سعاد ليلى؟ سألته فضحك. إنتو بتسمّوها سعاد؟

– طبعاً. كلّ بيروت بتسمّيها سعاد.

- إيه هون اسمها ليلى.

دخنّا سيجارة ملفوفة بأناقة. تمدّد فوقي على الكنبة في التراس. لكنّنا عدنا فدخلنا إلى غرفة نومه. تخلّينا عن المعاملة الرسمية بعد تدخل الحشيش، لكنّني لم أنزل إلى أسفل. هو، في المقابل، زرع أنفه المروس في كلّ مكان من جسمي. كان يشمّني مستكشفاً. حتى إنّه قلبني على ظهري وتابع يشمّ. ضحكت لفكرة أنّني أمارس الحبّ مع كلب. من الجليّ والواضح أنّه يعشق في المرأة جلدها. بداية جيدة. أنا أيضاً أحببت ملمسه. دعيني أقول إنّ عضوه لم يكن كبيراً لكن يمكنني أن أصفه بأنّه عضو وسيم. مؤخّرته، في المقابل، هي بالتحديد النوع الذي نحبّه، وأظنّني ملأت يدي بها طوال الدقائق التي مارسنا فيها حبّاً يمكن أن نعطيه ستة من عشرة، قياساً إلى أنّه فوق الأربعين، وهذه مرّتنا الأولى، والحشيش لم يأخذ مفعوله التام في رأسي.

لا بأس، لا بأس. شربنا نبيذاً ودخنّاً في سريره الكبير في غرفة نوم معظم ما فيها أسود، وآخر ما أذكره هو أنّنا كنّا لا نزال نحكي حين فتحت عينيّ ولم أعرف أين أنا. بعدما تذكّرت، نظرت في هاتفي فإذا بها الخامسة صباحاً. نظرت في وجهه النائم على خدّه، وكلّ ما فكّرت فيه هو أنّه يبدو مسنّاً. لصقت صدري العاري بظهره وأدخلت ساقي بين ساقيه المضموتين، وحضنته، ونمت بلا أحلام، ولا أوهام، حتى انبلج الصباح، وزقزقت العصافير، وطلعت يا محلا نورها.

الخميس 9765

وجدته جالساً على أرض شرفته، جامداً. يمارس اليوغا. ذهني الصاحي لـتوّه، خالٍ من الكحول والحشيش، أحسّ بغربة مقيتة عن المكان والرجل. وصرت بحاجة عميقة إلى حمّام وثياب داخلية نظيفة. كنت قد ارتديت ثيابي وصرت حاضرة للخروج. جلسنا نتناول الفطور، توست ومربّى وزبدة ولبنة وجبنة حلوم. أكلت بصمت ووتّر خجلي الهواء، ومعه توتّر الأخ الذي لم أفهم ما إن كان يستعجل خروجي أم هو لا يعرف كيف يتصرّف بعد ما حدث. تصرّفنا كصديقين يتناولان الفطور معاً. هكذا ببلاهة وضيق أفق. بعدها غادرت، تاركة قبلة على خدّه.

هذا كان الأحد. اليوم الخميس. لم أذهب إلى ميشاز ولم نتراسل. لا شيء. قد تكون هكذا. وان نايت ستاند. لا مشكلة لديّ. ما يعنيني هو أنّني بحثت في أصواتي الداخلية عمّا يقول لي إنّني كنت رخيصة. لم أجد هذا الصوت. إنّني متصالحة مع ما فعلت. ولا يهمّني الآن ماذا يفكّر ميشال بي. ما يقرّره الآخرون عن صورتي شأنهم ولن أنشغل به. يصطفلوا. من جبران إلى حسن إلى ميشال إلى آخره. هذا جسدي، وقد خضت به تجربة لذيذة بينما كنت بكامل قواي العقلية، ومن دون أن أحاول إرضاء من معي. نمت مع رجل من دون دراما

وقد اتّضح أنّ الأمر مريح. لكنّني لا أعرف كيف أكمل حياتي الآن. أذهب إلى ميشاز لأكتشف كيف سيتصرّف، أم أنتظر؟ لست أدري.

أقول قولي هذا وأضيف عليه أنّني انقطعت تماماً عن العيلة. كانت فرصة ملائمة حقاً للانسحاب من الغروب. هذا اعتراض يتيم سجّلته. على أمّي أن تعتذر منّي. لن أقبل بأقلّ من ذلك. أمّا جبران فانتهى أمره اعتذر أو لم يعتذر. لقد سجّل أنّه صاحب أسوأ ما حدث لي في حياتي. ضربني.

غير ذلك؟ لا شيء البتّة صديقتي.

الأحد 9768

اتّصل حسن، قاطعاً شكّي حيال شيرين باليقين.

كأنّني لمحت سيّارتها البارحة وأنا أمشي إلى الجم لكنّني لم أتأكد إن كانت هي.

اليوم وصلتني رسالته: مبروك.

لم أردّ. قبل قليل اتّصل. تركته يرنّ في المرّة الأولى ولم أجب. بعد دقائق عاود الاتصال. أعترف بأنّ مقاومة الردّ مستحيلة. «هاي» قلت له. هاي سعيدة لكن محايدة. بدأ يحكي بالجمع. «ولو، ما بتردّي علينا؟». مين إنتو، مازحته فعاد إلى صيغة المفرد.

– شو... مبروك؟ شلتي الحجاب؟

– إيه. خلصت منو أخيراً.

– ألف مبروك.

– الله يبارك فيك.

لم أتطوّع لأحكي. أنا ممدّدة على الكنبة ولديّ ما يكفي من الوقت لإرباكه ما دام هو المتّصل والجهد يجب أن يقع عليه.

– سلمى فيني شوفك؟

– ليه؟

– ما شي. حابب نحكي. على القليلة شوفك كيف صرتي بلا حجاب.

– ببعتلك صورة.

ضحك.

– جد عم إحكي بدي شوفك. خلصت غلط بيناتنا وبعرف إنو الحق عليّي. خلينا نحكي.

اضطررت إلى الشرح. قلت له إنّني أختبر تحوّلات كبيرة في حياتي، وأحاول تخطّيه على مهل، وعودته قد توقظ مشاعر لا أريدها في الوقت الحالي، فقال جملة سوريالية:

– يمكن فيني ساعدك تتخطيني.

– عم تحكي جدّ أو سوريالي؟ سألته.

– إنو سوريالية جدّية. نحنا رفقة ما هيك؟

– إنت بتعرف إنو ما بتظبط هيك.

– كتير حابب شوفك.

– شفت. هيدا قصدي.

– شو هيدا قصدك؟

– قصدي إنو إنت حابب هلأ تشوفني. بس بعد هيك شو؟

– ما شي. نشوف بعض ونشرب قهوة. فيه بيناتنا أربع سنين.

– ليك ما بدّي إحكي عن شو صار آخر مرّة. بس يمكن أحسن بلا ما نتلاقى.

– طيب متل ما بدّك بس ناطرك تغيّري رأيك.

لم ينتظر. بعد قليل من الاتّصال وصلتني رسالته الأولى: غيّرتي رأيك؟

أمضينا وقتاً نتراسل. اهتمّ بأن يعرف تفاصيل خلع الحجاب وأخبرته عمّا حدث مع جبران. وشرحت له أنّني أعيش فرح التجربة

الجديدة وأكتشف نفسي بهدوء وبطء. أبدى فرحاً واعتذر عن غيرته وعن تردّده في حسم العلاقة، وقال إنّه لا يريد أن يعيش حياته مع شعور بالذنب تجاهي، أو من دوني. قال إنّه نادم، لكنّه لا يريد أن يخسرني كصديقة على الأقل.

رقّ قلبي، وقبلت أن ألتقيه. اقترح ميشاز يوم غد. وافقت بسرور وحبور.

الثلاثاء 9770

الآن عدت إلى البيت. الساعة 10:53 ليلاً.

سأنام.

الأربعاء 9771

في المعتقل.

أرفع صوت الموسيقى إلى الأعلى. ينقذني سامر دائماً بهذه الموسيقى الغريبة التي يرسلها إليّ... أفكّر برفع ساقيّ على الطاولة أمامي والتمدّد على الكرسيّ والاستماع إليها. وبما أنّ هذا الأمر ممنوع في سجون العمل، أفكّر بتمرير ما بقي من وقت في الكتابة عن أمس.

كنت شرّيرة. وصلت متأخرة عن موعدنا، ومشيت مباشرة صوب البار، ودخلت خلفه وعانقت ميشال وقبّلته على خده. أعلم. هذه الحركة مبالغ فيها، لكنّني لم أستطع منع نفسي. ميشو اللطيف بدا مرتبكاً. قال لي: «وينك اختفيتي؟»، «شغل» قلت، «هلأ منحكي. حسن هون ما هيك؟ ما بعرف شو بدو بس كان مصرّ...» لم أكمل. لست بحاجة لأن أبرّر أو أشرح، وقد لا يعنيه الموضوع أصلاً. وأنا أبالغ في التمثيل.

تلفتّ حولي حتى وجدته، كان ينظر إليّ. مشيت صوبه بينما وقف مبتسماً. «كيفنا؟»، سألت وقد ارتفع ضغطي لا شكّ. مذ

يده ليصافحني، لكنّني عانقته عناقاً خفيفاً وسريعاً ثمّ جلست في مواجهته.

فجأة أحسست أنّني واحـدة غيري. ليس أنّني أكثر ثقة أو انطلاقاً. فقط واحدة ثانية، وهو، كما هو.

قطعنا ارتباك الصمت بأن ضحكنا في وقت واحد.

– وهيك منخبرك إستاذ حسن...

– صايرة وحدي تانية!

– لا تالتة... خلص اعمل حالك ما سمعت.

– لا لا منيحة.

– هاي منيحة؟

– إنو بتمرق.

– ممنونتك.

بينما يشرب ويسكي، وأشرب الماء، فاض حسن بالعسـل، حتى صار دبقاً. محلوّة، ومغيّرة. واشتقت لك. وبدّي اعتذر منك. لكنّه كان يحكي من موقع الواثق. الـذي يعرف أنّه القويّ وأنّني الضعيفة. أنّه التارك وأنّني المتروكة. أنّني المكسورة التي اتصلت به 37 مرّة، وبعثت إليه صوتاً سكرانَ ذليلاً. وكانت كلماته تدخل من أذن وتخرج من الثانية، إلى أن سألني: سلمى، بصراحة، إنتي شلحتي حجابك كرمالي؟

لو أنّني فوجئت كنت سأضحك طويلاً. لكنّني كنت أتوقع سؤاله. وكنت أتوقع جوابي الذي أظنّه نابعاً من عمقي: لأ. شلحتو كرمالي... بس شو رح تفرق عليك؟ قصدي ليه فكرت إنو معقول إشلحو كرمالك؟

– لا خلص.

– لا جدّ. بيهمّني أعرف.

– ...

– يعني كنت مفكر إنو شلحتو كرمال ترجع؟

– لا ما هيك قصدي.

– شو قصدك لكن؟

– إنو ما شي. مجرّد سؤال.

طيّب. ها نحن نتبادل الأدوار. بات هو الضعيف وأنا القويّة. في الأصل، هو من يصرّ على اللقاء. يمكنني الآن أن أقسو عليه. أن أقول له إنّني نمت مع الرجل الذي يقف وراء البار، وإنّني تخطيته، مع أنّني لم أتخطَّه، وأقول له إنّ أفضل ما يمكن أن نتّفق عليه هو ألّا نرى بعضنا بعضاً بعد الآن، وليمشِ كلّ في طريقه. لكن لماذا أفعل ذلك؟ ما الذي سأخسره؟ الآن أسأل نفسي ما الذي سأربحه. كان عليّ أن أقفل هذه العلاقة لحظتها. لكنّني ضعفت. بل أكثر، استمتعت باللعب.

حين أحسّ أنّه قال كلّ ما لديه، وأن ليس لديّ ما أضيفه، ولو مزاحاً، قرّر أن يغادر، فقلت له إنّني سأبقى قليلاً. جلست إلى البار، وجاء ميشو وسألني ماذا أريد أن أشرب، ثمّ في نصف الساعة الباقي، تجاهلني تماماً، العكروت.

مش إشكال، كما يقول جبران. مش إشكال.

الخميس 9772

ها قد مضت خمسة أيّام، لم يتّصل بي أحد منهم. لا أمّي ولا أبي ولا غاية أو قمر. لقد تخلوا عنّي. تبرّأوا منّي. نفوني من حياتهم. قذفوني في قاع العدم وسدرة اللاجدوى. مزقوني إرباً إرباً على جدار الصمت المستحيل. كأنّني لم أولد. كأنّني لم أكن. كأنّ 26 ربيعاً لم تمرّ بي. يا ويلاه.

طيّب خلص بلا زناخة. أنا في حيرة من أمر نفسي. إنّني أتحوّل. أخسر عاطفتي. إذا أغمضت عينيّ وفكّرت في من أحتاج إليه دون غيره من الناس، لا أرى إلّا وجه ريما. هي تكفيني. الوحيدة التي أشتاق إليها. أكتفي بها دون أيّ مخلوق آخر. أفكّر بأنّه يمكنني أن أعيش من دون أن أراهم مجدّداً. هذا ليس صحّياً يا سلمى. هذا شعور مرضي وعليك أن تعالجيه. لن أعالج شيئاً. إنّني أمضي بما يدلّني عليه حدسي. الدراما الفائقة أرهقتني. دراما حسن ودراما أمي وجبران ودراما أبي الصامت الذي يقتات من إحباطه بأنّه لم يحقق أحلامه في الشعر، وهو لم يكن شاعراً يوماً. الدراما. كلما فقدت الاحتكاك بشخص ما، فقدت الدراما التي يحملها ويوزعها على من حوله.

ثمّ ماذا يعني أن أكون وحيدة؟ لا ضير في الوحدة. أرق وأخفّ وأحلى. أوفررايتد هذه الحياة. الموت والمرض والحبّ والصداقة والتديّن والإلحاد والحاضر والمستقبل والماضي والأهل والجنس. كله أوفررايتد. العمل أوفررايتد أيضاً. أوفررايتد أن أظلّ محجّبة كلّ هذه السنوات وأوفررايتد أن أصاب بالندم على ما مضى. أوفررايتد هذه الكتابة نفسها. أنا أوفررايتد. لا ترجمة عربية لهذا التعبير الرائع. أوفررايتد. حتى هذا التعبير، أوفررايتد، يمكن أن يكون أوفررايتد.

زهقتيني. الوحدة الكثيفة تجعلك تهذين طوال الوقت، بكلام لا طائل منه. ماذا تريدينني أن أفعل؟ أتعلم رقص الباليه واليوغا وأعيش على غيمة؟ ماذا؟ أثقب الجدار وأعبر منه إلى العالم المثالي الذي أحلم به؟ أسجّل ماجستير في آداب اللغة العربية؟ أكره الجامعة أشدّ ما أكره. وأكره عملي. وأكره حياتي. حسن يتّصل.

الأحد 9775

هذا سرد سيكون طويلاً. هيّا بنا نلعب من جديد.

كنّا في حسن الذي كان يتّصل. بدا سكرانَ وحنوناً ويريد أن يراني. قلت له إنّ الوقت تأخر، وسأنام. بعد لأي، اتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي، بحضور ريما وأحمد. سألته عن شيرين تحسّباً، فقال إنّها في شهر رمضان لا تسهر خارج البيت. قلت الحمد لله.

بكرت في الهروب من المعتقل الجمعة، وأخذتني ريما لأشتري فستاناً. تشكيلة أزيائي ما بعد عصر الحجاب ما زال ينقصها الكثير... وأنا واضحة. سألبس فستاناً قصيراً، أصفر. أخذتني ريما إلى محلّ في مار الياس. لم يطل الأمر بي حتى خرجت بفستان حريري بسيط بلا كتفين ولا قشاط. انسدل على جسمي برقة وراقني عنقي وصدري وركبتاي فيه. صوّرتني ريما بجذل وحبور وأنا أجرّبه. أصفره فاقع. اخترنا له سكربينة ذهبية بكعب عالٍ، وبما أنّنا في أول الشهر، أضفت قنّينة غوتشي غيلتي، وليكن ما يكون. تدرّبنا لساعة في الجم، وتحمّمنا في شقتي وساعدتها في شعرها وساعدتني في شعري، ثمّ تركت لها أمر المكياج، فلوّنتني باحتراف قلّ نظيره. وبذلت جهداً

كي لا آكل الحمرة ولا تحرقني عيناي من المسكرة. وحين جاء أحمد وحسن لأخذنا، كنت صفراء كحامضة طازجة. لكنّني كنت أشعر بأنّني، كيف أقولها، في أحلى حالاتي، ولأول مرّة.

كنت جميلةً. كنت أريد أن أكون جميلة. عليه أن يعرف ماذا خسر. هذا تجميل انتقامي، وهو من حقي.

حين نزلنا فتح حسن بابه ليجلس ريما على المقعد الأمامي ويجلس بقربي في الخلف، لكنّني دفعتها إلى المقعد الخلفي والتصقنا طوال الطريق. أخذنا أحمد إلى مطعم من تلك المطاعم التي يفتتحونها في بيت لبناني قديم بالسقف العقد الحجري، وتناولنا مازات خرافية لم أتذوّق مثلها في حياتي، مستمعين إلى المطربة النحيلة التي اتفقوا جميعاً على أنّها تشبهني والتي أمضت السهرة تعزف على العود وتغنّي لمحمّد عبد الوهّاب.

نوافذ المطعم المفتوحة على نسيم شجر الصنوبر، السقف الحجر، الإنارة الخافتة، الناس المبتسمون جميعاً، رائحة اليانسون الشهيّة تفوح من العرق البلدي وتختلط بالأطايب الساحرة التي رُصفت في صحون الفخّار، بعضها يغلي وبعضها الآخر تبرق عليه حبّات الرمان، جاط الخضرة الملائكي وصوت الصبيّة الناعم الذي يترك للناس أن يحكوا ويضحكوا. بدا لبنان على قلبي كصومعة مسحورة، أحلى من بيتي الموعود في الجزيرة اليونانية. وصرت أكتفي عن الحكي بالتذوّق وتسامحت مع يد حسن على الكنبة الحمراء خلف ظهري، وضحكت لنكات أحمد ورحت أصعد على غيمة بيضاء رقيقة من العرق الحلو الذي أرتشفه بطرف شفتي وكان العالم جميلاً وفستاني أصفر ودنياي ريشة بهوا، إلى أن بدأت أنتبه إلى أنّ حسن يسكب كأس عرق بعد أخرى، ويزداد حكيه، ثمّ، وبسرعة...

وقعت الواقعة وانهار السقف العقد، وتجمّد صوت المغنّية الشابّة وانكمشت الصحون ويبس الخبز الذي كان قبل قليل ساخناً تضحك له الوجوه، وذهبت رائحة الصنوبر، وذبل الأصفر في فستاني، بينما حسن يقع في أسوأ أنواع السكر، ذاك الذي من بعده لا يعود يسكت، ولا يعود يسمع، ولا يعود يرى، ولا يعود يفهم ما يقال له، ويعود إلى العبارات نفسها، مرّة بعد مرّة، ويشرح المشروح عن شخصيته، وعن أخطائه ويعنّف نفسه، ويشتم أحمد كلما قال ذاك كلمة، ويقهقه بلا سبب، ويدخن، ويرمي العرق الذي كان جميلاً في جوفه، فيصير العرق وحشاً كاسراً. وحسن يحكي، وريما وأنا نتبادل النظرات، وتستغلّ ريما لحظة صمت قصيرة لتسحب أحمد إلى الخارج على وقع صوت حسن يهرّج: إيه خديه... خديه... اسم الله عليكي وعليه. أوعي يوقع... ويميل صوبي ويضع وجهه في وجهي، وتهطل عليه تلك البلاهة التي لا تُحتمل، وسامحيني، وبحبّك، وكس إختو بيي خاربلي حياتي. وما عارف عيش بدونك. وهلأ. هلأ. مستعد أتزوجك بس اقبلي. وفمه يلوك الكلمات وقدرتي على الاحتمال تهبط بسرعة قياسية، وإنتي بحجابك أحلى. وكس إختك ليه قصّيتي شعرك. أحلى شي فيكي شعرك... ويشتم العزة الإلهية في الشهر المبارك، وشو عملتي بشعراتك، هول كانوا إلي، وحين أخبرته بأنني تركته للكوافير أكّد شتم العزة... هول إلي. بدّي ياهم. إلي شعرك. هول إلي... ويبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً...

ولأنّ وضعه راح يسوء بسرعة قياسية طلب أحمد من النادل ألا ينزّل المشاوي التي كنت أشتهي لحظتها المباركة، ولم نأكل الحلوى وأحرقنا أجوافنا بفناجين القهوة العربية، بينما حسن يرفض أن يغادر إبريق العرق الطاولة. خرجنا نجرّ أذيال الخيبة وكان لا بدّ من أن يجلس بقربي على المقعد الخلفي، ورائحة اليانسون الشهيّة تفوح من

وجهه المحشور في عنقي كمبيد الصراصير، وظللت متأهّبة للصراخ في أحمد كي يتوقف إلى جانب الطريق كي لا يغسلني حسن بما في أحشائه من قرف. وبقيت أسأله «منوقف على جنب؟» ويقول لي «ما بني شي» إلى أن أجاب في مرّة، إيه خليه يوقف الحمار، فسمعه أحمد وضحك وفتح حسن الباب ورمى رأسه على بعد شبر من الإسفلت وترك فيه بقعة لم أرها لكنّني من تعاقب أصواته فوقها كان بإمكاني تخيّلها، ودبّت حالة طوارئ في السيّارة بحثاً عن علبة المحارم. شرب قنّينة الماء التي كنت أحملها، وبعد دقائق عاد ليترك كثيراً ممّا كان في معدته على بقعة أخرى من إسفلت جبل لبنان. رجوت الله أن تنتهي هذه الليلة، ليس مهمّاً على خير أو على شر. كنت فقط أريدها أن تنتهي، لكنّ مفاجأة سارّة كانت بانتظاري إذ إنّ حسن كان قد ركن سيّارته قرب بيتي، وكان أحمد وريما مرتبكين يريدان الهروب إلى حيث يكملان ليلتهما بمجون ويستيقظان ضاحكين كطفلين معاً من أبيها وأمّها اللذين يظنّان أنّها نائمة عندي. لم يكن أمامي إلّا أن أقبل بأن ينام هذا المسكين عندي، فاجترحت حلّ اللحظة الأخيرة وهو أن أقود سيّارته إلى بيته ويلحق أحمد بي ثمّ يعيدني إلى بيتي. وهكذا كان. وصلنا إلى مبناه وركنت السيّارة في موقفها. كان ممدّداً على المقعد بجانبي. جدّد نشاطه وعاد يحكي ويهذي ويرجوني أن أصعد معه ملتقطاً كفّي بيديه، ونص ساعة بس وأنا برجع بوصلك، وهو أصلاً عاجز عن الرؤية وأحمد وريما يرتجفان إلى أن لم يعد بإمكاني إلّا أن أطلب منهما أن يغادرا وأن أصعد معه إلى شقته، وقد ندمت لأنّ أحداً لم يجترح فكرة توصيله إلى بيته من دون سيّارته، وليأخذها، أخذه الله برحمته، حين يفيق من الخراء الذي يغطس فيه.

غسلت له أسنانه ووجهه بدلاً منه تقريباً، ومدّدته في سريره، وخلعت ثيابه عنه، وأشعلت له سيجارة وجلست على طرف السرير

خائفة من سقوطها على الشرشف وإشعالها نار الحبّ في البيت. ظننت أنّه بدأ يستعيد وعيه بينما يدخن وينظر إليّ ويمرّر إصبعه على فخذي. كانت رغبتي في الانتقام قد ذهبت أدراج الرياح، ولم يبق فيّ إلّا الشفقة الممزوجة بالنفور. أدخل يده بين ساقيّ. سحبتها. ليه؟ ليه؟ ووقع بالطبع ما كان منتظراً. التقط يديّ وضمّهما معاً ثمّ وضع وجهه فيهما وانفجر باكياً. كنت أودّ أن أسحب يدي لأصفع وجهي، لكنّني بدلاً من ذلك تركته حتى أنهى وصلته ورفع وجهه الباكي إلى وجهي محاولاً تقبيلي، ليفوح مجدّداً ذاك الخليط من الروائح التي أحبطت عمري.

وضعت يدي على فمي وجرّبت أن أدفعه برفق إلى خلف لكنّه أصرّ ودفعني فوق السرير وصار فوقي وحشر فمه في فمي، بينما يده تعصر خاصرتي حتى صرخت من الألم وصددته بعنف عنّي هذه المرّة. إذا بقينا كذلك فلا شك في أنّه سيغتصبني، لكنّ شكل البوكسر لم يكن يوحي بأنّ رمحه قادر على طعني طعنة نجلاء ينشقّ لها الليل على وقع صرخات لذتي. ومع ذلك بدأت أخاف من أن يؤذيني. فقد لا يطول الأمر معه قبل أن يتحوّل إلى الشتائم والعنف. وأنا عالقة في هذا الليل وحدي، لا سيّارتي معي ولا مستعدّة لأن أنزل وأمشي بفستاني الجميل في شارعه المرعب كي أصل إلى الطريق العام كي آخذ تاكسي ما بعد منتصف الليل في الشهر الفضيل. قلت أسايره قليلاً. تركته يهذي وقمت أصنع له اليانسون، كأنّه بحاجة إلى مزيد منه. وجدت كاموميل فصنعت لنا فنجانين، وعدت بهما. راح يرتشف ببطء، ويكلم البلاط بكلمات غير مفهومة، ثمّ يصمت كأنّه يسمع البلاط يجيبه. وقلت في نفسي إنّني لا أسمع صوت البلاط، فلا شك في أنّ حسن يحكي مع بلاط شقته عبر الهاتف.

أعلم يا سلمى. لم أكن مضطرّة إلى كلّ هذه المشقة. كنت في البداية أريده فقط أن يكتشف خسارته بفستانها الأصفر ووجهها الجديد. لكنّ الشرور راحت تتفاقم في داخلي بينما حالته تتدهور. الشفقة. الذنب. المسؤولية. الوقوف إلى جانبه في انهياره. هذا خليط من المشاعر الشرّيرة التي أمتعني أن أوجّهها إليه كي لا تكون موجّهة إلى صدري. تلذذت بالتفرّج عليه جالساً في القعر، لأنّني رأيته من فوق. لا. لم أكن أتلذّذ بالانتقام منه. كنت أرمّم ثقتي بنفسي. أتيقن من أنّني لم أعد في القعر.

في هذيانه حاول استنطاقي إذا نمت مع أحد مذ انفصلنا. قلبي حاسس إنّك نمتي مع حدا. مع مين نمتي. بعرف ما خصّني بس حابب أعرف. نمتي مع اللوطي ميشال؟ نمتي معو ما هيك؟ بعرف. نمتي معو للأخو الشرموطة بدي نيك جمجمتو.

أضحكتني صورته وهو منكبّ على مضاجعة جمجمة ميشو، وقد اقتبسها من فيلم شاهدناه معاً. لكنّني لم أعد خائفة منه. إنّه مرهق وفي طريقه إلى كوما. لم أغضب منه، لكنّه فعلاً أضجرني وقد نعست، وعدلت عن قراري بالذهاب بسيّارته إلى بيتي. تركته حتى نام، وارتديت تي شيرت وشورت اخترتهما من جارووره، وافترشت الكنبة في الصالون بعدما علّقت فستاني بكلّ عناية على حافة الباب، وفركت المعجون على أسناني بسبّابتي لأنّني لم أجد فرشاة أسناني. لقد رماها صديقنا. لم يكن في الشقة ما يدلّ على مرور أنثى في غيابي. ولم أشمّ رائحة امرأة في الهواء. هو في المقابل شمّ رائحة ميشال على جسدي. مش فارقة معي للأمانة.

عند السابعة استيقظت، وكان مرحاً شكلي في السرفيس، جالسة في المقعد الأمامي، بفستان من دون كتفين، متوجّهة من

فرن الشباك إلى رأس النبع، أفكّر في ما إن كان ميشال يظنّ حقاً أنّني مجرّد ليلة عابرة، وهذا حقه. لكنّني على الأقلّ يجب أن أخبره أنّها لم تكن ليلة عظيمة، وأنّه خيّب أملي بعدما كنت أنتظر منه أكثر ممّا حدث في أرض الواقع، أو بالأحرى في سرير الواقع.

أطيب النوم هو الذي تعودين إليه صباحاً. وقد نمت واستيقظت صوب الواحدة على اتصالين من ريما. كنت قد أبقيتها على اطلاع على مجريات الليلة في بثّ شبه مباشر على واتسآب. وحين تأكّدت أنّه نام تابعت حياتها حيث هي في الشاليه مع عشيقها.

كانت تريدني أن ألاقيها. لكنّي رفضت لأنّ المايوه البائس الذي لا أملك غيره لن يكون رفيقي في أول مرّة أنزل فيها إلى مسبح مختلط. ولا أعرف أين هو أصلاً. استخدمته لساعتين في حياتي، في تجربة كئيبة في الكوستا برافا. أطبقت يومها أثداء النساء وأردافهن وأراغيلهن على أنفاسي، أحسست أنّني في فيلم زومبي. لم أستمتع بشبه عربي في الشمس والهواء. شعرت بأنّني أرتدي طبقتين من الحجاب. وهربت بكلّ ما أوتيت من قوة. لم يتبلّل جسمي حتى. المايوه ما زال جديداً أسفل جارور ما. البحر ما زال بعيد المنال، لكنّني سأشتري بيكيني قريباً وأغزوه، والله الموفق.

رأيت أنّ من واجبي حسم بعض الأمور العالقة. هكذا، شددت الرحال إلى ميشاز. وضع يده على ظهري وقبّلني في طريقي إلى حيث سأجلس، وتابع يحكي مع واحدة. جلست متوقعة أن تأتي الصبيّة الجديدة لتسجل طلبي، لكنّه أتى بنفسه.

جلس أمامي. قهوة؟ سأل. أميركانية أضفت، فأشار من بعيد للصبيّة الجديدة.

كان على أحدنا أن يحكي، أليس كذلك؟ ولم عليّ عناء البحث عن زاوية للعبور إلى الحديث المحرج، بأن قال إنّه يحسّ بالذنب، وهي واحدة من البدايات غير المشجّعة، ولا أعرف أصلاً من أين يأتي الرجال بكلّ هذا الذنب، لولا سوء النيّة الدفين في نفوسهم العفنة. وفكّرت بأنّ شعور الذنب مقدّمة لأن يقول إنّه أخطأ بالنوم معي لأنّه لا يريد الالتزام بعلاقة. لكنّ تبريره جاء معاكساً. فهو معجب بي مذ رآني. لكنّ إعجابه يعنيه وحده، وليس مهمّاً أن يعلنه للآخر، خاصّة أنني مصاحبة، وفارق السن بيننا كبير. بعد انفصالي عن حسن، رأى الفرصة سانحة أمامه. لم يفكّر. لحق قلبه، وتسرّع. ببساطة، استغلّني. لم يقل إنّني بادرت وقد استحسنت فيه شهامته. ثمّ إنّني اختفيت بعد الواقعة، وعدت يرافقني صاحبي. قاطعته، ليدور بيننا الحديث التالي، بتصرّف طبعاً:

– بس أنا بقيت بعد ما فلّ وإنتا زبلتني.

– كنت محرج. ولما شفتكم سوا ما انبسطت. هلأ بما إنّك وحدك قلت بقول يللي عندي. بدي اعتذر إذا كنت...

– له يا خيّي ما تعتذر. ليك. يللي صار إنت ما جبرتني عليه، ولا ضحكت عليّي. وأصلاً كان حلو وأنا ما كتير محمّلتها دراما.

– بس أنا محمّلها.

– شو قصدك؟

– قصدي إنّي من وقتها بفكر فيكي. ولمّا شفت حسن معك... قولي هلأ خلص.

– بس أنا ما رجعت لحسن.

لم يهبط نور من السماء ليضيء وجهه. بقيت ملامحه على حالها.

– طيب إذا هيك، خليني إسألك. إنتي شو رأيك فيني؟

لم أحر جواباً. المشكلة تكمن في أنّنا بدأنا بالعكس. نمنا معاً قبل أن نتبادل عبارة إعجاب واحدة حقيقية. وأنا كان لديّ من الجرأة ما

جعلني أستسهل النوم معه، لمّ التفكير بالموضوع لاحقاً. المشكلة أنّه حين سألني لم يكن لديّ رأي واضح فيه، أو على الأقلّ لا أعرف ما الذي أقوله لرجل في الثانية والأربعين. وفقني الله بثلاث كلمات فقط:

– إنت كمان بتعجبني.

انشرحت أساريره، باطنياً على الأقل، فوجهه ما زال على غموضه.

– حلو. خلينا نبلش من هون.

– من هون لوين؟

– ما بعرف. ما عندك مشكلة تحكي مع واحد بعمري؟

– ليه بدو يكون عندي مشكلة؟

– إنت 26 ما هيك؟ يعني بيناتنا 16 سنة.

– رح صير 27 قريباً. بس شو لازم نعمل دراسة عن الموضوع قبل يعني؟

– معك حق، هيك البداية غلط. رح إعزمك عل عشا اليوم، شو رأيك؟

– لا اليوم رح أطلع على الضيعة. بس منحكي.

– أوكي.

وضع يده على يدي وشدّ، ثمّ وقف دفعة واحدة مالئاً صدره بالهواء. أوجعتني معدتي. هل هذا الحديث يعني أنّنا ارتبطنا؟

أناي الآتية في المستقبل، أخبريني، هل ارتبطت بميشو؟

لن تجيبي، أعلم. على كل. لقد صفيت الحساب الأول مع ميشو.

باقٍ حساب الأهل.

بعثت برسالة صوتية مشتركة إلى غاية وقمر معاً، أردتها قاسية وحزينة ووجدانية، وكان من الأفضل أن يرافقها عزف ناي حزين:

مرحبا غاية وقمر. بتعرفوا أني مش زعلانة منكن. بس قلبي مكسور. ولو. شو عملت جريمة يعني. جبران ضربني وفليت من البيت زعلانة وولا حتى بعتوا مسج؟ هل أد قيمة اختكن الزغيرة عندكن.

نعم. استخدمت سلاح الـ«أني» الفتاك. انتظرت ريثما اكتمل النصاب وصارت العلامة زرقاء. أتى صف القلوب الأول من قمر، لحقه بعد قليل صف قلوب من غاية، ثم اتصلت قمر.

أتاني أثر بكاء خفيف في صوتها. «ولو يا قمر؟ إختك أني». «تقبريني حبيبتي سامحيني... بس هون الجو كلو مكهرب وبيك مش عم يحكي مع حدا وإمك مقضيبتها بكي وجبران بيضلوا عابس والضيعة كلها عرفت... خالك أكرم».

هكذا، تلت قمر نشرة أخبار مفصّلة للحدث الجلل الذي وقع في ضيعتنا، والذي تمثل في أنّ ابنة الأستاذ عبد الكريم رضا، يللي ببيروت، شلحت عن راسها وخيّها ضربها وزعبها من البيت.

هذا ما يجري تداوله بين ألمانيا ولبنان، حيث ينتشر جيش الخالات والأخوال والعمّات والأعمام وأولاد وبنات الخؤولة والعمومة وسائر مشرق الضيعة ومغربها. أنـه ضربني وطردني من البيت. وأمي وجبران، بحسب قمر، لا ينبسان ببنت شفة لأحد عمّا حدث. تخيّلتهم، متّشحين بالسواد، يجولون على غير هدى بين الغرف الخاوية، وصوت صفير الرياح، وكريات شوك كبيرة تتطاير في القرية التي وقع فيها الزلزال المدمّر، وهناك كلب يجول وحده في الشوارع الترابية، عظامه ناتئة، يبحث عمّا يسدّ به رمقه، تحت سماء ملآنة بغربان زاعقة. «شو فيه؟»

– حبيبتي إيه الوضع كتير مأزم.

هذه غاية التي أخذت التلفون من أختها... وحسين وعماد عم يشتغلوا عل قضية بس بيك مش عم يحكي مع حدا. كل النهار لحالو بالصالون دخان وقهوة.

لم أفهم كيف يشتغل حسين وعماد على القضيّة، ولماذا صارت تُسمّى الآن قضيّة. لكنّني إذا حاولت الاستفسار من غاية فسيزيد شرحها القضيّة غموضاً. وإن كان أبي لا يحكي مع أحد، فما هو الذي يشتغل عليه حسين وعماد إذاً؟ لماذا هذه التراجيديا؟ لم آتِ إليهم بطفل غير شرعي له ثلاث عيون وسبعة أنوف. شلحت حجابي. هذه هي القضيّة... هذه هي المسألة! معقول!

– دخلك غاية ما حدا سأل كيف بيسمح الإستاذ جبران لحالو يمدّ إيدو على إختو؟ ما حدا عمل منها قضيّة هاي؟

– بدك تهدّي البال إنتي كمان. معقولة عملتك بتنعمل يعني؟

– طيّب غاية. خبري إمي إنّي جايي. باي.

كان قراري متّخذاً من الصباح. لقد هربت من الضيعة لأنّني لن أحتمل الارتباك الذي سيسيطر على البيت، أليس كذلك؟ حسناً، فليرتبكوا هم. أنا سأكون الصامتة، العابسة المتجهّمة الساحرة الشرّيرة التي ستقلب حياة الجميع إلى جهنّم. لكنّني لن أسمح للقائد الآتي على صهوة حصانه من ألمانيا بأن يخرّب عليّ حياتي ثمّ يعود إلى الحضن الفضّ لزوجته المؤمنة الطاهرة النقيّة التقيّة. لا. سأخرّب عليه عطلته. ويا حبيبي يا جنوب.

ها أنا أمضي نهار الأحد في الجنينة، أدخّن وأشرب الماء على رؤوس الأشهاد، عابسة كأسد وحيد في البرّية. وهو خائف من رفع عينيه في عينيّ.

أستعجل هنا. هذه حكاية تستأهل أن لولق. دخلت البيت، بجينزي الممزّق في مطارح متفرّقة، وشعري القصير وقميصي الحفر. مررت في غرفة الجلوس فوجدت المحروس ممدّداً على الكنبة يتفرّج على التلفزيون. لم أنظر نحوه. رميت شنطتي على الأرض ودخلت إلى المطبخ. كانت تقلي بطاطا وإسكالوب دجاج. بشو بدّك ساعدك ست إلهام؟ سألتها وأنا أفتح باب البرّاد كي أخبّئ وجهي عن وجهها. لم تركض وتحضنّي فهذه أشياء تحدث عند الفرنجة. قصّيتي شعرك؟ سألتني. إيه ورح إصبغو أزرق وعلّق حلقة بمناخيري.

لم تحك. انكبّت على الكبّة تجبلها بينما وقفت أمام الغاز أتفقد البطاطا. صارت تبربس، فصرت أبربس بصوت خافت: جئت لا أعلم من أين... لكنّي أتيت... أبصرت قدّامي قادومية فمشيت. وتابعت مدمّرة إيليا أبو ماضي الذي يقع في قعر اهتماماتي ما دمت أردّ على البربسة بمثلها. خلطت الفتوش وأضافت إليه الزيت والحامض والسمّاق والملح، وكسرت الخبز المحمّص فوق الجاط، وأنا أقلب الإسكالوب والبطاطا. كنت أعرف أنّها لن تطيق هذا الصمت وأنّها، لا شكّ ستنطق. تركتها تستوي.

– شرّفتي يعني؟

– لا بعدني ببيروت.

– إيه إسّا بلا هضمنة الله يرضى عليكي. شو رايقة معك؟ والله ويمكن مش صايمة حتى.

– مش صايمة منوب.

– إيه الله يهديكي. أستغفر الله العظيم وأتوب إليه. ما إنتي بدك تموتيني قهر.

– إيه صح معك حق. لما تكوني نايمة حافوت اخنقك بالمخدّة.

– قومي يلعن أبوك كلب. أستغفر الله العظيم اللهم أني صائمة.

– إلي صائمة مش أني.

– سدّي بوزك يلعن بيَك.

– تعي افقعيني كفّين شو رأيك؟

– بتستاهلي صرماية بنيعك.

هبط مستوى الحديث بسرعة قياسية وكان عليّ أن أرتقي. وبكلّ ما أوتيت من توفيق الحكيم، درت حول نفسي دورة مسرحية كاملة، وقلت لها:

– ليكي. اتطلعي فيّي. هيدي أنا.

تركت ما في يديها ووضعتهما على خاصرتيها، تأهّباً لحرب.

– وأنا بحبّك أدّ البحر يا إمي. ليه عم تعملي هيك؟

ساعدتني عيناي. لمعتا بدمعتين من قلبي. خرّت شهيدة. لكنّها لم تكن تريد الاعتراف باستشهادها.

– يا أمي حرام عليكي ولله حرام. بدك تتخلدي بنار جهنّم... كش برا وبعيد يعني أستغفر الله؟

«كش برا وبعيد»، مع صوتها الذي تصاعد إلى البكاء، طمأناني. إنّها تناقش الآن في حيثيات الجنّة والنار، أي إنّها صارت في ما بعد عار خلع الحجاب، بالتوازي مع لعب دورها الأساسي كأم، وهو وتري المفضّل للعبث بعقلها.

– إمي ما عاد عمري 12. هلأ عمري 26. بدك تتقبليني متل ما أنا.

– تتقبليني؟ تحكنيش فصحى الله يرضى عليكي. بكفنيش الأستاذ وكتبو.

– طيب شو بدك فل وما تعودي تشوفيني؟

– يا الله! خلينا نفطر رح موت من الجوع والعطش. لنشوف شو بدنا نعمل مع خيك.

– إمي ما رح نعمل شي. أنا ما رح إحكي معو ولا حرف. وإذا حكي معي ما رح رد.

ألقت مجموعة من العبارات التي لامت بها نفسها على سوء تربيتها، والأستاذ على سوء تربيته، لكنّها على الأقل لم تغضب كما كنت أتوقع.

كربّة منزل، وكصغيرة العائلة، رحت أدخل وأخرج من المطبخ محمّلة بالصحون، أضعها أمام الألماني الصائم الذي قدّس سرّه. حين صارت السفرة جاهزة، وقبل الأذان بقليل، تناولت شريحة بطاطا ومشيت ألوكها بتلذّذ صوب الصالون الذي يعتصم فيه الأستاذ.

– جيتي؟ سأل وهو يعتدل من تمدّده.

– ولو يا بيي؟ تلفون على القليلة.

– تعي إسّا تعي. قصّيتي شعرك؟

– لا بعدو طويل.

ابتسم. على الأقل يقدّر ماي سنس أوف هيومر.

– شو عم تعمل؟

– تلفزيون. حطوا الفطار؟

– إيه حبيبي يلّا قوم.

– طيب.

خرجنا نجرّ أذيال السأم أنا وهو. جلست وأمي على الأرض، بينما احتلّ جبران الصوفا الطويلة وأبي الكنبة المفردة بجانبها، حول الطربيزة المستطيلة القصيرة القوائم كتلك الكلاب البنّية المضحكة.

لا أحد ينظر في وجه الآخر، ولا أحد يحكي. أنا أراقب يديْ جبران بتلصّص خبيث بينما تمزقان الخبز في دوائر كبيرة ثمّ يترف واحدة منهما من صحن الكبة وترتفع. تسقط مجدّداً على صحن البطاطا، وتتناول كمشة. أتخيّله غولاً، يرفع رأسه إلى أعلى ويفتح

مغارته المطبمة ويرمي فيها قطع البطاطا التي تصرخ مستغيثة وتلوّح بأذرعتها المقليّة وهي تهوي في الجحيم. لم أضف إلى صحن الفتّوش الذي أحمله شيئاً، ألتقطُ الصحن باليمنى وآكل بالملعقة باليسرى، نكاية. تناولت أمي بيدها قطعة إسكالوب ورمتها في صحني: رمّي عضمك. صايرة متل الخيط.

الله أكبر يا إلهام. الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً. لقد أتى العيد قبل ظهور الهلال. هذا أغلى وأحلى إطراء سمعته في حياتي.

التقطتها من خدّيها وشددتها صوبي وقبّلتها: ولك تقبريني.

– الله لا يقدّر بجاه سيدنا محمد. انشالله بموت... يا شحاري... ورمت لقمتها في صحنها.

– عم إمزح معك انشالله بتقبري الخطر التكفيري.

أتتني ضحكتهما معاً، أمي وأبي، كأنّهما مصوّبتان إلى وجهه. هذا أخي. لن أكرهه. لكن عليه أن يفهم. أن يدرك حجمه.

في ما بقي من ليل السبت، حين أتى جيش العائلة من أجل الأركيلة والشاي والكلاج وطوفان القطر، كنت قد عدت أنا، ينقصني حجابي، في حضرة صهريّ حسين وعماد، أو يزيدني شعري القصير، وبضحكتي الواسعة، وبتجاهلي التام للشقيق الذي سمّاه أبي على اسم جبران خليل جبران، ولم يأخذ من الأديب ولو فكرة.

غاية المنى لم تعلق بكلمة على شعري. قمر شدّتني من يدي في المطبخ صوبها، وهمست مع أن لا أحد غيرنا فيه: أني اشتغلت على إمك. وهيي بلشت تقتنع أصلاً إنو فيهاش تعمل شي. وخيّك جبران مش مسترجي من بيك بعد ما بهدلو. وليه يا كلبة شعرك بيخوت أد ما حلو. صايرة متل القمر. يعني متلي. وضحكت لنكتتها، مخبّئة بكفّها صف أسنان ساحراً.

الاثنين 9776

كاريبو، والكوكب يذوبو.

اسمعي. إنّني أتغيّر. إنّني أخلع الثوب تلو الثوب، وأتغيّر. حسناً، أحببت وقع الجملة فكتبتها. فكرتي هي التالية: لا أدري، هل تغيّرت فخلعت حجابي أم خلعت حجابي فبدأت أتغيّر. لست بيضة ودجاجة. لكنّني فعلاً واقعة في حيرة من أمري، والحيرة تتآكلني والصحراء تعصف بي من كل جانب، والرياح تشتهيني، وهرمونات الغبطة الشديدة مستمرّة في الارتفاع الملحوظ في دمي.

كنت قد فكّرت بأنّني لم أواجه جبران كما يجب. كان يجب أن أقول له رأيي فيه، وفي ما فعل. وكنت سأؤذيه. لكنّني لم أفعل. إلهام كان أمرها هيّناً. حتى إنّها ملأت لي كيساً عملاقاً بالطيّبات. وضعته بنفسها في السيّارة وقالت لي بينما أغادر: «تنسيش الأكلات بالصندوق. وديري بالك بالسواقة». كان صوتها جافاً وحادّاً كأنّها تصرخ بي. لا تريد إغضاب جبران، لا بأس. على الأقل صنعت مجدّرة حمرا وأمدّتني بمراطبين كبيس. أبي، حبيبي، فكّ اعتصامه بالصمت

حين انفردت به في الصالون. كان متشوّقاً لأن يحكي، وصار يثرثر في السياسة وفي غيرها. لكنّني سألته:

– إنت ضد إني شيل الحجاب؟

قال لا. لماذا إذاً لم يطلب منّي يوماً أن أخلعه؟ لماذا لم يمنعني من وضعه؟

– قلت لك تلبسيه؟

– لا

– منعتك تلبسيه؟

– لا

– أني يا بيّي ما فرضت عليكي شي من وقت كنتي طفلة. قلت خليها تجرّب. يمكن كنت غلطان. إنتي بتعرفي علاقتي بالدين. بس هيدا حكي صعبة قولوه لبنت عشر سنين. خيّك كان أقوى منّي. إجا وقنعك تتحجبي.

– احكيني كنت. يا ريتك حكيتني.

– لا ما تقولي يا ريت على شي. مش لازم تندمي. إنت ما غلقت دماغك متل غيرك. ضلّيتك تفكّري وكان عندك الشجاعة تاخدي قرارك لحالك. يعني يوم تحجّبتي كنتي مستقلة بقرارك ولمّا شلحتي كنتي كمان مستقلة.

وصار يحكي وصرت إسمعلو. والحكي كيف كان طايعلو. أبي الملتحف بالصمت، كان يبرّر ما اتفقت مع نفسي على أنّها غلطته التي لا تُغتفر بحقي: إهماله لي. إنّه مريض بالضجر. أنا أعرف. لقد أورثني المرض نفسه. ليس محارباً، وذلك ليس لأنّه جبان، بل لأنّه سئم باكراً من التعليم ومن زوجته ومن عائلته ومن قريته. المرض نفسه الذي جعلني أتردّد كلّ هذه السنوات قبل أن أقرّر أن أتغيّر.

إنّني أتغيّر. إنّني أمضي وقتي في مراسلة رجلين في الوقت نفسه. لا تطلقي أحكاماً الآن. ينساب الحديث لطيفاً مع ميشال. يرسل لي أغنيات بالإنكليزية والفرنسية، ونثرثر ويضحكني وأضحكه، أو هذا ما تعلنه الوجوه الصفراء الصغيرة. حسن بدأ ليل سبت ما بعد مذبحة العرق بالاعتذار، واستمرّ معتذراً عمّا فعل عموماً، وإن لم تسعفه ذاكرته إلّا بمشاهد متفرّقة كان يمكنني أن أوصل له الخطوط بينها لكي يرى صورة الإحراج الكامل. فضّلت أن أبقى طيّبة ما استطعت. لم أقل له إنّه تحرّش جنسياً بي، مع أنّني أظنّه يتذكّر. لم آتِ على تفصيل اغتصاب جمجمة ميشو. قبلت أسفه على ما فعل. وقبلت أن نتلاقى اليوم. هل قلت سابقاً إنّني أتغيّر؟ فعلت؟ حسناً، للتأكيد: أنا أتغيّر.

لكنّني لست سعيدة.

الثلاثاء 9777

في المعتقل.

يداي ترتجفان... لكنّي لست نادمة. لقد قمت بالواجب.

بعد ليلة طويلة من الحشيش والرذيلة الممتازين مع حسن، كان من الأفضل أن أدّعي المرض اليوم. في سريري، صباحاً، كتبت الرسالة مرّتين ومحوتها. وقمت متثاقلة وتحضرت وجئت إلى العمل. كأنّني كنت أعلم.

كنت في مزاج طيّب. حتى إنّني لهوت مع إلسي ومازحتها، واستمعت لرأي منصور في مقال، وأثنيت على قميص سامر الجديد وقصّة شعره، ونعم، تابعت العبث مع ميشو على الواتسآب. وكانت الحياة حلوة إلى أن دخلت جاكلين مثل ريح صرصر إلى مكتبنا، وراحت تصرخ في إلسي.

صوتها المقزّز راح يصطدم بالجدران ويرتدّ على وجه المسكينة الذي فقد لونه، ويرتدّ عليّ وأفقد أعصابي... إلى أن سمعت صوتي يقاطعها:

– مدام. جاكلين.

– شو بدك سلمى؟ سألت بين صرختين.

– إذا بتسمحي. إنتي عم تصرّخي ونحنا عم نشتغل.

– شو؟

– خدي إلسي على مكتبك...

– عفواً؟ شو؟ أنا المديرة عيني هون إنتي مين؟

– عم قول إذا بتسمحي، بعدين إذا مديرة ما فيكي تجي كل شوي تصرّخي علينا ماشي الحال.

– مبلى فيني. إنتي ممنوع تتوجهيلي بالحكي.

– أوف ليه خير؟ مين ماخدة؟

كدت أضرب يدي على فمي الذي نطق بهذا التعبير الغريب عن عاداتنا وتقاليدنا المحافظة الشرقية في المعتقل. ربما سحقتها السماء، صار التعبير محط كلام عندها وأصابتني عدواه وحين استخدمته لأول مرّة كان مع مديرتي.

– مين شو؟ مين شو؟ شو شلحنا وبلشنا ست سلمى؟

غلطتها كانت أكبر من غلطتي. جيّد. أطلقت العنان لانفعالي وشعوري بالإهانة. وقفت ووجّهت سبّابتي صوبها: «شو قصدك شلحنا وبلشنا؟ شو قصدك؟ شو رقّاصة أنا؟ ما بسمحلك».

– تسمحي أو ما بتسمحي. أنا مديرة التحرير. أصلاً رح إحكي مع مسيو إيلي. هيدا شي مش مقبول... هيدا...

وكالسحر، راح صوتها يخبو بينما جسمها يغادر مبتعداً من الغرفة التي ران فيها الصمت والذهول والدهشة، قبل أن أتلقى ابتسامات زملائي الثلاثة، وأنا واقفة أرتجف، أو أظنّ أنّني أرتجف.

هرعت إلى الشرفة لأدخن، وكتبت لريما: «قلت لجاكلين مين ماخدة! يلعن بيّك على بيّ مين ماخدة!».

وصلتني هههههههه طويلة، وعلامات استفهام. وعدتها بالتفاصيل لاحقاً لأنّ إلسي لحقت بي، وجلست بقربي.

انتظرتها أن تحكي وظلت صامتة. خائفة لا شك، ومع ذلك، وعلى ما يبدو ويظهر، ممتنة. أفهمتها أن لا دخل لها بما حدث، فهي قادرة على الدفاع عن نفسها، وأنّني كنت منزعجة من صوت جاكلين العالي، أمّا طريقة تعاطيها مع إلسي فهذا أمر تقرّر بنفسها التعامل معه. ظلّ وجهها على ما هو، وحلّ الضجر العظيم. وعدت إلى مكتبي وجلست أكتب، متوجّسة ممّا ستفعله الحيزبون. لكنّ بندقيتي ظلّت في يدي، وبقيت جاهزة للدفاع عن نفسي. شلحنا وبلشنا؟ شلحنا؟ وبلشنا؟ ماشي يا جاكو.

سأذهب إلى الجم، بعدها إلى موعد على العشاء مع الأخ ميشو.

الثلاثاء...

في البيت.

بالعكس تجري الحكاية مع ميشال. نمنا معاً واستيقظنا في شقة واحدة غريبين، ثمّ قرّرنا، على ما يبدو، أن نتعارف. في البار المطلّ على البحر، في أعلى طابق في أوتيل الخمس نجوم، داهمني شعور عميق بالغرابة. إنّه هذا التنميق المبالغ فيه والنظافة الهائلة والأشياء التي تلمع، جدراناً وبلاطاً وملاعق ووجوهاً. لا تسيئي فهمي. السوشي كان خرافياً. كلّ قطعة من عالم موازٍ لعالمنا. والسالاد بار ما شاء الله، لم أعرف معظم مكوّناته فقلت في نفسي أتعرّف. وكدت أبكي من لذّة النبيذ. لكنّ الجوّ كان حالماً أكثر من قدرتي على الاحتمال. لم أرتبك طبعاً. استطعت أن أتهكّم على هذا الكمّ من المبالغات في تأنق المكان والموظفين والشيف الياباني والأعواد المزخرفة التي لن أتعلم يوماً استخدامها. تهكّمت لأخفي ارتباكي؟ ربّما.

في طريقنا إلى العشاء، وحين رأيت أنّنا وصلنا إلى أوتيل، نظرت إليه مستفهمة، فقال: المطعم بالروف. حين أنهينا أخيراً العشاء،

انتظرته أن يقول لي إنّه حجز غرفة، وكنت مستعدّة لتقريعه. لكنّه لم يكن قد حجز غرفة. أو ربّما فعل وخجل من أن يدعوني إليها. حزنت لأنّني أحبطت مشروعه المكلف المتكلف، فطلبت منه أن نذهب إلى أيّ مكان عاديّ لنشرب كأساً عاديّة. معليه أنا شعبوية، قلت له.

في مار مخايل، عدت إلى طبيعتي، وصرت قادرة على الحكي. تنفست. سمحت له بالغزل وبأن يضع يده على يدي، وبأن يميل أحياناً ليقبّلني على خدّي، لكنّني لو عرض أيّ خدمات رومانسية عليّ ساعتها ما كنت لأقبل. أعني، البارحة، بعدما احتسينا فودكا الصداقة أنا وحسن في الحمرا، سألني إن كانت سعاد على بالي فوافقت بسرعة لأنّني كنت... حسناً، كنت وقحة. ما دام حسن غارقاً في عواطفه إلى هذه الدرجة، وما دمت متحرّرة من العودة إلى التزام معه، فلماذا لا أمضي ليلة مسلية. لكنّ الليلة تطوّرت إلى أكثر من حشيش وسكس. كانت كزيارة إلى أحاسيس أحبّها. إلى أساليبي في إثارته أو إضحاكه، وإلى ملمس قبله أسفل نهدي وعلى سرتي. الحشيش بالطبع يضخم الحنين، وقد نمت مع حنيني إليه. نمت مع ذكريات علاقتنا، ضاجعت أيّامنا معاً. لكنّني لم أعده بأكثر من ذلك. بينما يوصلني إلى بيتي، سألني «نحنا رجعنا؟»، ومع أنّني كنت شبه مخدّرة، كنت حاسمة: لا.

طبعاً كان بإمكاني أن أستعين بعبارات من أم كلثوم، من مثل «قول للزمان ارجع يا زمان...» لكنّني لم أكن في الوارد. ثمّ إنّني انتبهت إلى أنّ العلاقات المرنة أحلى. لا يسألني ولا أسأله، ولسنا صديقين حتى. رفضت أن أنام معه في المرّة الماضية بقراري، ونمت معه أمس بقراري، وأمس سهرت مع ميشال وقرّرت أنّني لن أنام مع رجلين في يومين متتاليين. ولا أظنّني أخون أيّاً منهما بعلاقتي مع الآخر، أليس كذلك؟

ذهني صافٍ، وأظنّني أفعل الصواب. على الأقلّ لم أعد أسمع أصواتاً كثيرة في رأسي. مع ذلك، وبينما أكتب الآن، بدأ حجر يطبق على صدري. لست سعيدة.

الاثنين 9783

في كاريبو، بانتظار ريما.

استقلت.

انكفاء جاكلين عن مكتبنا، ابتسامتها الواسعة حين نلتقي في الممرّات، تهذيبها الشديد حين تحكي معي، إشارات فهمتها خطأ، مع أنني كنت أظنّ أنّني أعرف مكرها.

هكذا، وبينما أنا أعمل بكل ما استطعت من ضمير وبراءة، وصلني إيمايلها، الذي أشركت فيها إيلي والموارد البشرية.

بلغتها العربية المبالغ فيها، والتي كان ينقصها تحريك الحروف فقط، كتبت ما يشبه محضر جريمة. في سجلّ حضوري إلى العمل هناك أكثر من ساعة نقص عن الدوام يومياً، وهو غير الوقت المخصّص للغداء. وأتغيّب كثيراً بداعي المرض، ولا أبلّغ عن إجازاتي الطويلة إلّا قبل يوم أحياناً، مع أنّه يجب عليّ طلب الإجازة قبل أسبوعين على الأقل.

أمضي وقتاً أكثر بمراحل من المسموح به على الشرفة أدخّن وأحتسي القهوة.

الأخطاء التي تُضطرّ إلى تصحيحها من بعدي، لا تُعدّ ولا تُحصى، وهي تتلقّى يومياً تعليقات قرّاء مستائين من الأخطاء النحوية في موقع يقدّس المهنية واللغة العربية.

غالباً ما تجدني منكبّة على الكتابة خلال الدوام، وهي متخوّفة من أنّني أستغلّ مكان العمل ووقته وتجهيزاته من أجل إتمام أعمال أخرى خاصّة، أو لوظيفة أخرى لم أصرّح عنها، وهذا ممنوع.

لا أحترم رئيستي، وأرفع صوتي في وجهها، وأتعاطى بسلبية شديدة مع الملاحظات والانتقادات البنّاءة التي توجّهها إليّ، وأشيع روحية الكسل والإحباط، وقد أصبت زملائي في الغرفة بالعدوى. وبينما ستوجّه ملاحظات شفهية لمن معي في الغرفة، فهي ستعتبر هذه الرسالة إنذاراً خطيّاً أول لي، وستنقلني إلى دوام الليل، وتنقل ماهر مكاني.

وأنهت رسالتها بـ«بكلّ تحفظ».

وبكلّ تحفظ استقلت. ليس قبل أن أصاب بدوار كدت أقع معه عن كرسيّي وأنا أقرأ وأعيد قراءة الرسالة. أولى الكلمات التي أتت إلى رأسي كردّ مكتوب على الرسالة كانت: الليل يا ليلى يعاتبني. ثمّ، لقد بلغ السيل الزبى. اقتحمت ذهني موجة عالية من السخرية لم أعرف سببها. لقد رضيت بهذا المعتقل والمعتقل لم يرض بي. جاكلين تنذرني وتنقلني إلى دوام يبدأ عند الخامسة وينتهي عند الثانية ليلاً. جاكلين عصفورة الشمس ووردة الساحات. جاكو. جاكلين تهيّئ الأرض لتنخسف بي. تلمّح إلى أنّني عالة على المكان وأنّ طردي بات ممكناً بعد أيّ إنذار، غلطة، أو تأخير. جاكو المتينة.

كتبت ما أعانني الله على كتابته في الردّ. أنسخه هنا للذكرى:

أستاذ إيلي، تحيّة طيّبة وبعد،

بداية، يؤسفني تلقّي مثل هذه الرسالة، من دون أن أتبادل قبلها أيّ تواصل شفهي مع مديرة التحرير حول ما ورد فيها، وهو حقي كموظفة وواجبها كمديرة.

دعني أقلْ إنّ اتهامات مديرة التحرير هي إمّا ليست دقيقة، أو مجحفة، أو ملآنة بالتمييز والتحيّز ضدّي، دون غيري من سائر الموظفين.

السيدة المديرة تتّهمني بأنّني أتلقى الملاحظات بسلبية، وللأمانة، فأنا أو غيري من زملائي في المكتب نفسه، لسنا سلبيين، لكنّنا في العادة مقموعون. فالمديرة غالباً ما يسبقها صوتها العالي إلى غرفتنا، وما إن تدخل حتى تبدأ بتقريعنا، حرفياً، كأنّنا في الخامس الابتدائي في مدرسة من أوائل القرن العشرين.

والمُقرَّع، أو المُقرَّعة، يعجز، والحال هذه، عن الدفاع عن نفسه، كما أن الباقين من الموجودين يصيبهم التوتّر ويجزعون من أن يأتي الدور عليهم، والمديرة عادة لا تقرّعنا فرادى، فهي تتناول في كلّ مرّة اثنين من أربعة على الأقل، وفي أحيان أخرى تدور علينا واحدة وواحداً.

أنا مدققة لغويّة صامتة، أنتظر وصول المقالات إليّ لأدقق فيها، هذا عملي. ليس ذنبي إن كان إنتاج الموقع اليومي قليلاً، ولا أقصد الإساءة إلى أحد هنا. قلة الإنتاج لا تعني ضعف النوعية بطبيعة الحال. ما لم يكن هناك جديد لأقرأه، أمارس هواية الكتابة التي أحبّها، أو أتصفح الإنترنت. أنا لا أستغلّ موارد المكان لأيّ عمل آخر. كلّ ما أفعله هو أنّني أكسب وقت فراغي

في الكتابة والاستماع إلى الموسيقى. لا أحبّ الثرثرة والنميمة وأعتبر أن لا دخل لي بكلّ ما يحدث في هذا المكان من العالم، أو خارجه. ولا جلد ولا قدرة لي على إشاعة الوهن في نفوس الموظفين، أمّا مديرة التحرير، فقادرة بصوتها ذي الطبقات المميّزة على إحباط الناس، وأنا أولهم، تساعدها في ذلك سلطة ليست في يدي.

المديرة لم تطلعني، وتطلعك، على أدلّة ملموسة على تذمّر القرّاء من مستوى اللغة في موقعنا، وأنا للأمانة غير مقتنعة بأنّ قارئنا، أو أيّ قارئ عموماً، مهتمّ بمستوى اللغة في ما يقرأه هذه الأيّام.

ومع ذلك فأنا أؤدّي عملي بكلّ أمانة، ويمكنني أن أجزم بأنّ موادّ الموقع، لغوياً على الأقل، هي الأفضل بين المواقع اللبنانية، إن لم يكن العربية أيضاً. وهذا ليس بفضلي، لكنّه ليس بفضل المديرة أيضاً، فالزملاء بمعظمهم محترفون ويعرفون ماذا يفعلون.

أستاذ إيلي، لم أكن لأكتب هذه الرسالة لولا أنّ نسخة من رسالة مديرة التحرير أرسلت إليك أيضاً، وأنا أرى فيها رسالة شديدة الإساءة لموظفة تعمل منذ أربع سنوات في هذه المؤسّسة، ولم تطالب مرّة بزودة على راتبها الضئيل، وكلّ ما تفعله هو أنّها تتأخّر نصف ساعة صباحاً، أو تغادر قبل انتهاء الساعات التسع بنصف ساعة، بينما أنا أكيدة من أن كثيرين وكثيرات بالكاد يحضرون إلى العمل، ومع ذلك لا تُوجّه إليهم أيّ ملاحظة، إن من المديرة أو من الموارد البشرية.

لن أطيل. فقط سأعلن عدم قبولي بملاحظات مديرة التحرير لأنّني اعتبرها كيدية وجاءت بعد مواجهة بيننا طلبت منها خلالها بمنتهى التهذيب أن تتوقف عن الصراخ على الزميلة إلسي، فرفعت صوتها في وجهي أنا أيضاً. كلّ أريد أن أقوله هو التالي:

أرفض ملاحظات مديرة التحرير، وأرفض الإنذار، وأرفع استقالتي إليك، وسأعتبرها سارية المفعول لحظة أبعث هذه الرسالة، متمنّية قبولها على الفور.
هذه الاستقالة هي في جزء صغير منها طريقتي في الردّ على كلّ الإجحاف الذي جاء في رسالة مديرة التحرير، لكنّها في جزئها الأعمّ والأكبر، قرار تأخرت كثيراً في اتّخاذه، لأنّني كنت أعرف منذ وقت بعيد أنّني لست في مكاني المناسب، وأنّني أخسر من نفسي ومن عمري ومن قلبي لأنّني مضطرّة في كلّ صباح للمجيء إلى عمل لا أحبّه ولا يشبهني ولا يعبّر عنّي. أرجو ألّا تسيء فهمي، فأنا أكره عملي نفسه، ولا أكره مكان العمل أو الناس الذين فيه.
ففي المجمل، لم يسئ هذا المكان لي يوماً، لكنّني أنا التي أسأت لنفسي إذ لم أنسحب باكراً إلى ما أريده من حياتي.
وإذ أعتذر على الإطالة، ألفّ استقالتي هذه بودّ وحبّ كثيرين، مرسلين إليك وإلى الزملاء جميعاً.

ما زالت استقالة ممتازة، بعد قراءة ثالثة لها. لو تردّدت للحظة قبل أن أبعث بها لعلقت في كمبيوتري. أرسلتها، خرجت من حسابي الخاصّ على الكمبيوتر، وأطفأت الجهاز الذي ليس فيه ملفّ واحد شخصي غير الموسيقى التي يمكنني أن أعيش بدونها. فتحت جاروري ووجدت فيه أكياس كاتشاب صغيرة وملاعق بلاستيكية وأوراقاً لا سبب لوجودها. لم أكن قد تركت شيئاً منّي لا على جدار ولا على سطح المكتب ولا في في الكمبيوتر. لم أفعل عن قصد، كي أشعر دائماً بأنّني على موعد سريع ومفاجئ مع الرحيل من المعتقل.

«باي»، قلت وغادرت.

اتّصل إيلي قبل أن أشغل السيّارة. جاءلي صوته البرجوازي على شكل سؤال:

– سلمى؟ كيفك؟ إيلي معك.

– أهلاً مسيو إيلي.

– لا بلا مسيو دخليك. إيلي حاف. شغلتين رح قولهم: أولاً إنتي بتكتبي كتير كتير حلو، وحرام تكوني بس مدققة لغوية. وين كنتي مخبّاية هل موهبة؟ تانياً. استقالتك مرفوضة وممنوع تقولي هل كلمة مرّة تانية، وأنا شخصياً رح حلّ القصّة بينك وبين جاكو. اتفقنا؟

ضحكت للإطراء طبعاً، وشكرته بالفرنسية والعربية واستخدمت «عن جد» و«من قلبي» لزوم التعبير الكبير عن الامتنان. لكنّني شرحت له ما كتبته، وما كنت مقتنعة به بينما أعيده عليه. استقلت لأنو الشغل عم يقتلني من جوّا، وما عدت قادرة اتحمّل.

– إذا هيك لازم نشوف كيف ما نخليه يقتلك. منقلك على قسم تاني. بتصيري بس تكتبي. تحقيقات ومجتمع ومدونات. عندك قلم رائع وحرام هيدي الموهبة تندفن. إذا رسالة الاستقالة هيك، كيف لو رسالة حبّ مثلاً. ومنشوف قصة الراتب. صحيح قال شلتي الحجاب. خسّرتينا التنوّع يللي كنا عاملينو بالسايت. بمزح طبعاً. هيدا خيارك آخر النهار.

شكرته ثانية، وبصدق، وبدأت دفاعاتي تتفكّك. لكنّ إحساسي الدافق بالحرّية، من لحظة إرسال الاستقالة كان طاغياً على أيّ مشاعر أخرى، بما فيها لذة الاستماع إلى إطراء أتى من حيث لا أدري، أنا التي كنت أنتظر منه تجاهلاً كاملاً للرسالة، ووقوفه إلى جانب جاكلين بطبيعة الحال.

– بدي ارتاح شوي. سنة يمكن أو أكتر. يمكن قرر سافر وكفي جامعة برّا. بس بحاجة لفترة راحة.

- سنة كتير . أنا رح أعطيكي شهرين إجازة مدفوعة من عندي...

قاطعته: لا هيك كتير مسيو إيلي. ما رح إقبل. عم تغمرني جد، بس ما رح إقبل.

- قلنا بلا مسيو. رح أعطيكي شهرين غير هيدا الشهر يللي صار خالص. هاي إجازة بتستحقيها ومش هدية مني. روحي شمّي الهوا واضهري عل بحر وسافري إذا بدك. وبعدين قرري. عيب سلمى ما فيكي ترفضي كل ما عرضت عليكي شي. شكلها معها حق جاكو إنّك تنفثين روح الإحباط في الزملاء. دخلك كيف الواحد بينفث روح الإحباط؟

- طيب ما رح أرفض. وبدي إشكرك. نحنا ملتقيين تلات مرات وباجتماعات عامة. بصراحة ما كنت متخيّلة إنو حضرتك هيك بتتعاطى مع موظفينك.

- إيه صح، متل ما بتقول عني إيفا مرتي، أهبل وقلبي طيّب.

ضحك وضحكت مرتبكة. وأنهينا الاتصال بأنّه سيرسل إليّ رقمه الخاصّ لأحدّثه حين أشاء. أنهينا الاتّصال بعدما وقعت جزئياً في غرامه. فاجأني. وتركني عاجزة عن فهم تصرّفه واستيعابه. أنا موظفة شبه مجهولة في واحدة من شركاته ومؤسساته. ولن يستفيد منّي كصوت انتخابي في طموحه السياسي الواضح والجليّ. لماذا يفعل ذلك؟

اتّصلت إلسي عاتبة لأنني لم أخبر أحداً بما حدث. قالت لي إنّ جاكلين أخبرت الثلاثة باستقالتي وأنذرتهم شفهياً. مرّرت إلسي الهاتف إلى منصور الذي بدا كأنّما يعزيني قبل أن يمرّر الهاتف إلى سامر الذي تردّد قليلاً قبل أن يقول نيّالك.

لم تردّ جاكلين على رسالتي. قسم الموارد البشرية لم يتأخّر في بعث رسالة تشرح أنني، بناءً على أمر رئيس مجلس الإدارة، في إجازة

مدفوعة مع كامل مستحقاتي، لا تُحسم من رصيدي للإجازات، حتى آخر شهر آب. سجّلت انتصاراً مدوّياً عليها أخيراً، وإن كانت كلفته وظيفتي، رمقي الأخير.

أتنهّد خائفة وأحمد الله على جزيل نعمته. ولا تكرهوا شيئاً. وما جنيت على أحد... وتعا ولا تجي...

الآن ماذا؟

سأصيّف.

الثلاثاء 9784

هذا هو، إذاً، إحساس من تفيق من النوم الثلاثاء ولا عمل لديها. إنّها تجد الوقت الكافي لتتفقد محيطها. يمكنني أن ألوّن الجدران مثلاً. أضيف كنبة هنا، لوحة هناك. أغيّر الستائر. أجد الوقت الكافي لأفكّر بتغييرات تحتاج إلى مال لن أحصل عليه لأنّني صرت أملك الوقت الكافي لأفكّر بتغييرات تحتاج إلى مال. هذه هي الحلقة المفرغة. الحلقة الهرائية. الحلقة الأخيرة. ثمّ إنني لن أقبل مال جبران بعد الآن. انتهت سنوات الرخاء وبدأت السنوات العجاف، ولم أخبّئ إلّا قليلاً. لن أقلق. لن أقلق. أنا بحاجة إلى أغراض البحر كلها. مايوه وشنطة كبيرة ونظارات شمسية جديدة ومراهم وزيت بحر ومناشف وفساتين خفيفة. كلّ أشياء البحر.

ماذا أيضاً؟ سأسافر في لبنان. يقولون إنّه بلد جميل، لكنّني لم أره. يمكنني أن أسوح وحدي، وإذا رافقتني ريما فأهلاً وسهلاً. ربّما أزور قبر جبران خليل جبران، ومارون عبّود وميخائيل نعيمة وتوفيق يوسف عواد. لا. لن أضيّع وقتي في زيارة موتاي الذين انقطعت عن قراءتهم منذ زمن. جرّبي الأماكن الجديدة. ضعي حقيبتك على ظهرك واخرجي.

أوكي. دعيني قبل ذلك أوثّق ردّة فعل ريما وحسن وميشال على خبر الاستقالة.

من زاويتي الكاشفة للرصيف، رأيتها آتية صوبي ترغي وتزبد. إنّها الوحيدة التي تمشي بكلّ جسمها وبكلّ شعرها. لا يمكنني أن أحصي رؤوس الرجال التي تلتفت صوب هذه الهيفا وهبي الخلّابة. حضرت لها «يا ارض احفظي ما عليكي يؤبش»، لكنّها عاجلتني: وليه شو عم يصير معك كلّ يوم قصّة شكل؟ ساعة بتشيلي الحجاب وساعة بتصاحبي تنين وساعة بتستقيلي؟

– إيه ساعات ساعات.

– شو هاي نكتة؟ نوع من الدعابة المضحكة يعني؟ ليه استقلتي؟ شو خوتة؟

حكيت الحكاية، مطعّمة بالشرح حول اختناقي النهائي والأخير من عملي. بدت متردّدة. فالباب الذي تركه إيلي مفتوحاً على عمل جديد وزيادة في الراتب أغراها بعدم الاقتناع بوجهة نظري. وفي النهاية، فعلت ما تفعله دائماً. نثرت وروداً في طريق أحلامي الغبيّة، وأضاءتها بالتفاؤل. وأنا هون، قالت قبل أن تخبرني أنّها تريديني أن أكون معها حين يأتي أحمد وأهله ليلة العيد ليطلبوها من أهلها. قالتها كما لو أنّها تريد منّي أن أرافقها لتشتري جزداناً. سقط فكّي، كما تفعل أيّ صديقة حين تفاجئها صديقتها الأنتيم بخبر زواجها. لم أقفز وأحضنها، لكنّ وجهي ضحك، وسرى في جسدي تيّار من الفرح التقطته عيناي.

– ييه شحار أوعك تبكي بتبكيني، قالت. لكن الأوان كان قد فات. في الدقيقة التالية كنّا غارقتين في ضحك عاطفي مؤثر نجفف الدموع القليلة المتمرّدة التي تفيض بها العيون غصباً عنها.

– رح تتجوزي يا كلبة إنتي يا كلبة؟

– إيه يا جحشة إنتي يا جحشة.

– وأنا شو بعمل بلاكي؟

– اعملي كفتة بالصينية.

– وبقلي بطاطا؟

– إيه وفتوش. وجيبي كلاج. عا بالي كلاج.

– عابالك خيار بلبن؟

– إيه حياتي اعمليلي خيار بلبن.

– وبنقع قمر الدين.

– باخت.

– فعلاً.

صمتنا وبقيت أنظر في وجهها وتنظر في وجهي. حركت شفتيها من دون صوت: «خيفانة». أومأت برأسي وقلت لها: وأنا خيفانة. حضنتها وقبّلتها. «شو بعمل بلاكي؟» سألتني ريما، ثمّ أكملت ما توقعت أن تكمل به: «كفتة بالصينية؟».

حسن كان حاسماً في خياره، حتّى إنّه حاول أن يأخذ منّي وعداً بأن يكون أول ما أفعله صباح اليوم التالي هو الاتّصال بإيلي وشكره وقبول عرضه. كنّا في شقته وكنّا ننزلق إلى عودة العلاقة كما كانت، مع أنّني أنفر من الفكرة. حرصه الزائد يزعجني. ومبالغاته في الاهتمام تنفرني. كله ينفرني. لقد سقط هذا الرجل من قلبي دفعة واحدة، ولم يعد له أثر. وإذا انفصلنا من جديد غداً، فسأبدأ بالاشتياق إليه لحظة يغيب عن عيني. لو أنّني قادرة على تنزيل دماغي على كمبيوتري وقراءته، كما نقرأ كتيّب تشغيل الآلات، فقط كي أعرف كيف أتحكّم بهذه الغسّالة المجنونة التي في رأسي.

جالسة بقرب حسن، تراسلت مع ميشو وأخبرته واتّصل ولم أردّ وقلت له إنّني سأكلمه لاحقاً. ومع أنّه نظر صوبي، حين رنّ الهاتف، فضّل على ما يبدو ألّا يستفسر. حين صرت في بيتي طلبت من ميشال أن يتّصل واتّصل. «هاي الكارما»، قال شارحاً تصرّف إيلي. هذه حيلة حياة. أن ترمي الخير كيفما اتفق حولك، ولا بدّ لخيطها الذي يسير في دائرة أن يعود عليك بالخير يوماً ما. وإن لم يأت فلن تخسري شيئاً في أيّ حال.

– الكارما تبعيتك معي شكلها رح ترجع دغري لعندك...

– شو قصدك؟ أيّ كارما؟

– تعي بكرا بدي شوفك ونحكي.

طيّب. أنا ذاهبة إلى ميشاز بعد قليل. هل أخبره بالكارما المزدوجة معه ومع حسن التي أعيشها هذه الأيّام؟ هل أطلب منه أن يتنبّأ كيف سترتدّ عليّ؟

أول الأربعاء...

في شقة ميشو. لا داعي لرقم اليوم الآن. غداً ألقاه.

أنا سكرانة. لقد شربت أرطال نبيذ أبيض بارد يا حبيبي يا أبو النواس. صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها. المسكين. لم يكن يتخيّل أنّ بإمكاني الانطلاق بكلّ هذا المجون. هذه التأوّهات وهذه الأوامر السادية وهذه الشتائم في أذنه. المسكين. إنّه كهل وأنا فرس في السادسة والعشرين، غضّاء بضّاء. مهفهفة بيضاء غير مفاضة، ترائبي مصقولة كالسجنجل. آه يا امرأ القيس، لطالما فضّلتك على العالمين. يا عاشقي ومعشوقي وقاتلي وقتيلي. يا ملكاً بلا مُلك. يا تائهاً في البراري. يا حبيبي يا حبيبي. أيّ حال أنت فيه؟

إنّني أجلس في الشرفة الجنّة، سكرانة ككأس تعتعها جنينها، نبيذها. أسأل نفسي، ما الحبّ يا سلمى؟

أحلى ما في اسمي. سلمى. سليمى. الله! ما الحبّ يا سليمى؟

ما لست أعرفه. الحبّ هو ما لست أعرفه. ما لن أستطيع إثبات وجوده. حين كنت أناقش في وجود الله، كنت ألجأ إلى حيلة فلسفية واحدة: ليس واجبي أن أثبت لك عدم وجود الله. واجبك أنت أن تثبت وجوده. هذا نقاش لم يجر إلّا مع رجال! غريب.

ندى قالت إنّها لا تعترف أصلاً بوجود الملحدين. ما معنى تصريح كهذا؟ ما بعترف بوجود ملحدين. سو وت يا ندى؟ شتٌّ عليك وعلى كلامك يا ندى. ندى بصلة. ندى تؤمن بالله والأبراج والحظ. ندى متطيّرة تخاف من الحسد وصيبة العين. ندى كانت أجمل بنت في الجامعة. لماذا تتذكّرين ندى الآن؟ لإنّك سكرانة وتغارين من جمال ندى. اعترفي. أنت تغارين من ندى. ما لي وندى الآن بربّك؟ لقد تزوّجت في السنة الثانية وقفزت إلى إفريقيا وتحجّبت وأنجبت سلالة من الملائكة بشعر أشقر وعيون زرقاء وبشرة بيضاء كالثلج. أين في إفريقيا؟ تمزحين أليس كذلك؟ كيف لي أن أميّز بين إفريقيا وإفريقيا. أحبّ إفريقيا. أم هي أفريقيا؟ حبيبي يا عنترة، أيّها الأمير الضالّ عن بني جلدته وعن فخره. كيف وصلت إلى مضارب بلاد العرب وعنصريتهم المقيتة. استعبدوك يا كبدي استعبدوك يا ولدي. بعدك بألف وخمسمئة عام ونيّف سيأتي من يقول يا ولدي قد مات شهيداً... يا امرأة. أضجرت سمائي. أضجرت الجدران. يا امرأة. يا امرأة. ماذا يقول كاظم؟ يا امرأة قلبت تاريخي وجعلت المايوه بكيني، وذبحت شهادة ميلادي، وقطعت جميع شراييني... زهّقتيني. زهّقتيني.

زيديني... طيب. سأنام. لكنّني أسأل نفسي: ما الحبّ يا سلمى. أظنّه ما لن أعرفه يوماً.

الاربعاء 9785

ينبغي أن يسحقني ذنب لا أشعر به. صديقنا جدّي. لا. أكثر من ذلك، إنّه مسحور كمراهق. فتحت عينيّ على دمية أم كلثوم! أم كلثوم بنظارتها الشمسية وحول عنقها المستدق تدلّى طرفا سلسلة تنتهي باسمي محفوراً بالعربية. فضّة. ارتديت السلسلة بفرح، وحضنت

كوكب الشرق. لعبتي! صار عندي لعبة أم كلثوم. وسأسمّيها، حسناً، أم كلثوم.

جلب لي لعبة وعقداً. وأفرحتني الهديّة بشدّة. إنّه رقيق ووديع كحمل. عصفوري يمكنني أن أضعه في قفص ليزقزق لي طوال النهار والليل. سمكتي. مشموشتي. أين هو؟ نزل إلى ميشاز. وجدته، حبيبي وحقل سنابلي، كتب على اللوحة المعلقة على البرّاد بالانكليزية أنّ كلّ ما عليّ هو ضغط زرّ آلة القهوة الأميركية كي أحصل عليها ساخنة، وأنّ الكرواسون في المايكروويف. ووقّع بسمايلي فايس! ماذا أفعل؟ ألتهمه كي يبقى في داخلي إلى الأبد؟

أرسلت إليه «بونجور» ففتح الباب بعد دقيقتين. قبّلني على شفتيّ وجلس لصقي على كنبة الترّاس. إنّنا نعيش زوجين سعيدين وأنا ما زلت أضاجع صاحبي السابق. قال لي إنّه يحتاج إليّ. فكّرت بأنّه سيطلب يدي، وقبل أن يأخذني الحلم الكابوسي بعيداً قال إنّه يحتاج إليّ في ميشاز. «مانجر»، قال. كنت في لحظتي الضعيفة ولو طلب يدي لقبلت. إنّني أمرّر أصابعي طوال الوقت على اسمي، وأم كلثوم في حضني. كيف لا أنزلق إلى الوقوع في غرامه؟ وها هو يعرض عليّ وظيفة وأنا لا أقبل بها.

– أنا عم حب كتير يللي بيناتنا، وإنت بتجنن ميشال، جد بتجنن. بس مش معناتها تشفق عليّي.

– نو نو... شو هل حكي، عيب سلمى. هيدا بيزنس. وأنا بحاجة إلك جد.

شرح ولم أقتنع: ميشاز يلتهم حياته، وبعدما أنشأه في الأساس لمتعته الشخصية، ليتسلى ويتعرّف إلى الناس ويبيعهم الفرح، كثر زبائن المحلّ الذي يُغلق خمس ساعات بعد منتصف الليل فقط. وهو لا يكاد ينام، ولا يثق بأنّ مارو أو نمر ينفعان في الإدارة. واثق

في المقابل بأنّني سأنجح، وسيدرّبني ولن يسلّمني الإدارة حتى يكون أكيداً من أنّني بتّ جاهزة لأدق التفاصيل.

– شو يللي مخليك مأكّد إني رح انجح.

– بتعرفي كيف تبتسمي.

– أف!

– هياها هاي يللي على وجك.

– بعدني ما فهمت.

– بدي قول إنّي بحب ضحكتك.

– شو خصّ هاي بهاي.

– طيّب غلطت سامحيني. يللي بدي قولو إنو بدي ضل عم شوف ضحكتك ليل نهار.

خفت طبعاً. ليس لأنني غير واثقة من مشاعري نحوه فحسب، بل لأنّه يربط بين عملي عنده بعلاقتنا التي لم تتّضح بعد. وأنا متردّدة في الاثنين معاً.

تدارك في الوقت المناسب: «لهلأ ما بعرف عنك سلمى، بس بالنسبة إلي يللي بيناتنا جدّي. يعني حسمت أمري وبدّي نضل نحكي مع بعض. نصاحب يعني».

– إيه واضحة!

– شو هيي؟

– إنو نحكي مع بعض يعني نصاحب.

– إنتي وحسن ما عاد فيه شي ما هيك؟

– لا. بس مش إنو عداوة. يعني بشوفو ومنحكي عل واتسآب وهيك.

– بعتذر أصلاً سؤالي غبي.

حين قال ذلك انتبهت إلى أنّ سؤاله كان غبيّاً فعلاً. فأنا في شقته، وتقريباً في حضنه. ماذا يظنّ بي؟ أنّني في علاقة مع اثنين في الوقت نفسه!

– طيّب لنقول رح اشتغل بميشاز. أيمتى ببلش؟

– هلأ يلّا. ومعاشك من اليوم. وأول شهر ما فيه دوام. بتجي بس بدّك وبتفلي بس بدّك. المهم درّبك على كلّ شي.

– لا طول بالك. اعطيني شوية وقت.

– وبخصوص يللي بيناتنا.

– إنو خلص. صار فيه بيناتنا نبيد وحشيش وإم كلثوم.

ضحك طويلاً وارتمى فوقي ورحنا نتدحرج على الأرض بعضنا فوق بعض ممزقين ثيابنا ومحطمين كلّ ما نصطدم به من أثاث. ثمّ أخذني وهو يسحقني في الجدار وخفت أن تسمع بدارو كلها تأوّهاتي. تحبّين هذه الفانتازم أنت! في الواقع، تبادلنا قبلة متوسّطة الطول، وداعية ومن دون شبق، ثمّ قمت أتحضّر للخروج إلى حياتي وقام لينزل مجدّداً إلى ميشاز. وبينما أغادر وجدت في علاقتي ثلاثة مفاتيح جديدة. مررت به في ميشاز، وعرّفني أيّها لبوابة البناية وللباب الحديدي الخارجي الآخر الخشبي الداخلي لشقته. وقال إنّه سيضيف إليها قريباً مفاتيح ميشاز. قلت له خير اللهمّ اجعله خيراً.

وضعت الست أم كلثوم على تابلوه السيّارة. هكذا تظلّ أمام عيني بنظارتها وعقد اللؤلؤ في عنقها، والمنديل الأبيض الصغير المحوك في يدها اليسرى (لفرحي) التي كيدها اليمنى، أصغر من أن يكون فيها أصابع.

الخميس 9786

لم يبق لي إلّا أن أنام مع ميشو، ثمّ أتحمّم وأرتدي ثيابي وآتي لأنام مع حسن. أمس مع ميشال واليوم مع حسن. ما هذا يا سلمى؟ أنت لست هكذا.

أم أنا هكذا، ما أدراك؟ أنا لا أخون أيّاً منهما. حسن ليس صاحبي. لكنّك مع ميشال. لا أحبّه. إن كنت لا تحبّينه فاتركيه. لن أتركه.

ماذا؟ سنتعارك الآن؟ إنّه جسدي. سأستخدمه كما أشاء، وبحرّيتي. دعيني من أخلاقك الحميدة الرفيعة. لن توهميني بأنّني لست حرّة في التصرّف بجسدي. بلى. أنا حرّة. وأنا لست مرتبطة بأيّ منهما. الجنس لا يوسّخني. الجنس لا يجعل جسدي قذراً. عليك أن تفهمي. منذ القبلة الأولى وأنا أحسّ بالذنب وما زلت، كلما لمست رجلاً ولمسني. ألحدت وخلعت حجابي وما زالت النجاسة وسواسي العميق. إنّه جسدي، وأنا أنام معهما بملء إرادتي، فكفّي عنّي.

لكنّي لست كذلك. لست بهذا الطموح الجامح! لست متعدّدة العلاقات. أريد علاقة واحدة لا أحسّ معها بأنّني مستوحدة. علاقة واحدة فقط لا غير. أعلم أنّ هذا ما أريده. لا دخل لجسدي بهذا. هذا ما أطلبه أنا.

ماذا يا سلمى؟ ما الذي تريدين قوله؟ ألم تلتزمي مع ميشال؟ ألم يعطك مفاتيح شقته؟ أنت خائفة، لذلك تظنّين أنّك تستمتعين بهذا الاهتمام المضاعف. بلى يا صديقتي بلى. ينبغي أن تحسّي بالذنب. لا يمكنك أن تكوني مع رجلين. قلت لك إنّني لست مع اثنين. أنا مع نفسي فقط.

كما تشائين.

السبت 9788

في الضيعة.

هربت. ضاع أمس بينهما. كنت أتراسل معهما في الوقت عينه. أكتب لحسن بينما ميشو يكتب لي، والعكس. ثرثرة بلا معنى لكنّي في لحظة اختنقت. كلاهما أصرّ على رؤيتي ليلاً، وكلّ السلمات اللواتي فيَّ رفضن رؤية أيّ منهما. أحتاج إلى عزلة. قد أضع اسميهما على ورقة واحدة. ميشو vs حسن. وأفاضل بينهما. غريب! أنا فعلاً في حيرة. جرّبت حسن، أقول، ولن أكتشف جديداً. لكنّه ليس سيّارة. كم مرّة استمعت إلى «هذه ليلتي» في حياتي؟ وأعرف أنّني سأظلّ أسمعها. وقد تكون آخر طلب لك على فراش موتك المستقبلي. هذه ليلتي وألفظ نفسي الأخير على شكل صرخة: عظمة على عظمة على عظ... وأسقط ميتة.

سأموت وحيدة. يقول لي قلبي الآن إنّني سأموت وحيدة. لن يكون لي أولاد. سأموت صغيرة. سأموت قبل أن أبلغ الأربعين بيوم واحد. كم سيكون عدد أيّامي يومها؟ ليس مهمّاً. لماذا أعدّ عمري بالأيّام أصلاً؟ ما الذي سأجنيه إن عدت إلى هذه اليوميات لاحقاً؟ كيف سأميّز بين رقم وآخر؟ إنّها أرقام صمّاء تشبه أرقام الناجحين

في البكالوريا. لكن، انظري إلى النصف الملآن من كوب الفكرة. الأرقام المتراصفة في نتائج البكالوريا ليست مجرّد أرقام. لكلّ رقم حكاية حياة لا يعرفها إلّا صاحبها المجهول. لكلّ رقم من أرقامك حكاية. أحلى، أليس كذلك؟ بلى أحلى. خلصينا. ماذا ستفعلين الآن؟ لا أعرف. سأقبل بالعمل عند ميشال. أجرّب حياة جديدة، وأتعرّف إلى وجوه جديدة. لا يمكن لحياتي أن تتوقف عند صديقة وصاحبها وحبيب سابق ومشروع حبيب. أين كنت كلّ هذا الوقت؟ كيف فشلت في صناعة أصدقاء. سامر كان مشروع صديق جيّد. إلسي ربّما. حتى شيرين. لا تبالغي أرجوك. شيرين! إنّها تضع إصبعها مطويّة على أرنبة أنفها حين تضحك. إذا عرفت سبباً لهذه الحركة فلتكن حينها صديقتك.

لكنّني أحكم على الناس، وأضجر في وجودهم، ولا أعود أطيق نفسي. لست بحاجة إلى أصدقاء.

والدك خسارتك الكبرى كصديق محتمل. اليوم طلبت منه أن نتمشى في الضيعة. مشينا قبل الأذان بقليل. التقينا بكلّ قطط القرية ولم نلتق بوجه بشري. لو أنّ الدكان كان مفتوحاً لطلبت منه شراء دفتر جديد. أخبرته أنّني استقلت. لم أشرح تفاصيل عرض إيلي ولا سبب الاستقالة. زهقت، قلت له، وبدّي جرّب شي جديد. لازم غيّر حياتي. انتظرت منه حكمة عميقة لكي أدوّنها هنا. قال «منيح لازم تفكري تكفي علمك». «من وين بجيب مصاري؟ خيّي جبران ما بحكي معو وما بقبل آخد منو». هز رأسه فأدركت حجم إهانتي له. كلّ ما كنت سأقوله بعد ذلك سيزيد الطين بلة. لم أقل. وضعت ذراعي في ذراعه وقلت له: «شامم الروايح؟ تعا نلعب لعبة. نشوف العالم شو عاملين عل فطار».

– شو بدهم يكونوا عاملين. بطاطا مقليّة وفتوش ولحمة ودجاج. شو قالولك الضيعة كاينة باريس الفوقا.

أبي يا أبي. إنّه مركّز سائل الضجر. وأنا مثله. لو ذوّبونا وباعونا في قناني مياه، لمات شعب بكامله انتحاراً بسبب وباء الملل.

عدنا بعد الإفطار بنصف ساعة ربّما. كانت أمي قد بعثت رسالتين على الواتس آب بعد مسد كول. وين كنتوا برد الأكل، قالت. لم يكن جبران موجوداً. يتجنّبني وأتجنّبه. وأنا راضية. في أجمل أحلامي، لم أكن أتوقع أن يكون تحرّري من سطوته عليّ بهذه السهولة. كان عليّ فقط أن أقتنع بأنّني إن كنت أحبّه فذلك لا يعني أنّ من حقه أن يجرحني بحرف. خيّك الكبير... خيّك الكبير... ماذا كانت تقصد إلهام؟ ما الذي تعنيه حقاً كلمتا «خيّك الكبير»، ولازم تحترميه. يمكنه أن يكون أخي الصغير، ويجب أن أحترمه. إختك الزغيرة ولازم تحترمها. لماذا لم تقل له ذلك حين مدّ يده عليّ. ما الفارق بين الجملتين؟

ماذا أيضاً؟ شهيّتي مفتوحة للكتابة. ضعي رباعيات الخيّام.

«سيّداتي وسادتي. يسعد جمعية المبرّة النسائية أن تعلن للجمهور الكريم نبأين سارّين في هذه الأمسية. أولهما تبرّع صاحبة العصمة السيدة أم كلثوم...»

هذه أول مرّة أسمع هذه النسخة. صاحبة العصمة؟ قولي يا صاحبة العصمة قولي.

تعالي أخبرك ما أفكّر فيه منذ مدّة. أنت لست ضجرة إلى هذا الحدّ. وأنت تحاولين. لقد خسرتِ خمسة كليوغرامات في وقت قياسي، وخففتِ التدخين، وتمشين كثيراً، وقد تحرّرتِ من معتقلك أخيراً، ونسيتِ أنّك قبل شهر كنت محجّبة. صار حجابك بعيداً

وصرت محتارة بين علاقتين. لكنّك بلا كراكتير. حتى الآن لا تجيدين وضع المكياج، ولا تفهمين فيه. وثيابك كلها متشابهة ولا روح لها. اختاري الموضة التي تحبّينها. أنت تحبّين البناطلين الواسعة الساقين الناعمة الفاتحة، والقمصان الحريرية. اشتري منها، واشتري سوتيانات وكيلوتات تحبّينها. ليس من أجل أحد اجلبي هذه الأشياء، من أجلك. شعرك القصير يليق بك لكنّه على لونه. غيّري لونه. دللي نفسك. أكثري من الفوبيجو ومن الجزادين والسكربينات. جسدك ليس معبدك، أعلم. دعيه يكُنْ لعبة طفولتك الجميلة التي لم تجدي يوماً شغفاً بمثلها. لقد تطرّفت في التنكّر له لأنّك كنت ترفضينه محجّباً. كنت تحتقرينه في إيمانك، وأبرّر لك، لكنّني لا أبرّر احتقارك له بعدما خسرت إيمانك. بما أنّك تعتقدين بأن لا روح في جسدك ستخرج من أنفك حين تموتين (بمرض الضجر طبعاً)، فجسدك ليس كلّ ما تملكينه فحسب، هو أنت. هو أنا. كونيه.

قويّة «كونيه» هذه. طيّب. وماذا لديك من نصائح أخرى سيدتي؟

توقفي عن كتابة يومياتك.

لماذا؟ لأنّها تجعلك تفكرين كثيراً، مثل الآن، وتأخذ منك وقتاً كان يمكن أن تمضيه في مشاهدة المسلسلات مع أمّك، أو في هواية. هواية مثل ماذا؟ السباحة وركوب الخيل؟ إنّني جدّية، هواية مثل الرسم مثلاً. تعلميه. ادخلي إلى كليّة الفنون إذا أردتِ. كنتِ أشطر بنت في الرسم في المدرسة. كنت ترسمين. لماذا توقفت؟ لا أعرف. كنت أرسم أسماكاً. لكنّني لا أحبّ الرسم. خلص. عليك بالباليه! بالغناء الأوبرالي. تعلمي عزف بيانو.

واضح أنّ هذا الحوار يتحوّل إلى حساء هراء ساخن. انظري. ربّما هوايتي هي هذه: المشي وكتابة اليوميات، لكنّ يومياتك مضرّة. أعني، أنت جالسة منذ ساعة تحكين مع نفسك. هذا فصام مرضي. لا

تخيفيني الآن. أنا أتسلى بهذا الحديث بيننا. ثمّ، لا تنسي أنّ الكتابة ساعدتني كثيراً من حيث لا أدري. أنّها توضح لي أفكاري وتساعدني على سبر أغوار نفسي. سبر أغوار نفسك؟ إنّك بلهاء. حسناً، الآن بدأت أخاف، لأنّني صرت أسمع صوتك واضحاً. من أنت؟ أنا أنت. بحق بدأت أخاف. ماذا لو كنت مجنونة. ماذا لو أنّ كل ما أكتبه يحدث في رأسي فقط؟

بلا هبل يا سلمى.

أفق خفيف الظلّ هذا السحر   نادى دع النوم وناغ الوتر

لقد أعادت البيت ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة غنّته بطريقة. على أيّ بحر الرباعيات؟ هل تذكرين؟

أبداً!

الأحد 9789

لم يكن إلّا عائقاً. العودة الملتبسة إليه كانت ضرورية كي أتأكد من أنّه مجرّد عائق وطاقة سلبية، وقصّة انتهت.

ما يزعجني أنّه ظنّ أنّه رجع إلى حيث كان يجلس ويحكيني من فوق: إذا بدك تشتغلي عند اللوطي يعني خلصت بيناتنا.

– هيك رأيك؟

– شو فيه بيناتكم؟

– ما شي.

– ليه بدّك تشتغلي وايترس لكن؟

– أولاً مش وايترس، وتانياً الشغل مش عيب، وتالتاً بشتغل مطرح ما بدّي وما لازم كون مصاحبيتو حتى اشتغل.

– يعني شو فيه بالسي في تبعك حتى يعيّنك مديرة محل؟

– يمكن شايف فيّي طاقات أنت ما شايفها.

– إيه شايف طاقات كبيرة واضح.

– حسن أنت بتعرف إنو ما إلك عليّي شي، ونحنا مش مع بعض أصلاً. أنا بس عم خبرك.

– انشالله ما تكوني مش مصاحبتيه متل ما مش مصاحبيتني.

– جد ما إلي جلد.

كنت صريحة. لا جلد لي على هذا. لا جلد. لن أصرخ فيه ويصرخ فيّ مجدّداً. هذا طبق بارد بائت. وأنا أصلاً جالسة على حرف الكنبة، أنتظر طبقة الصوت كي ترتفع كي أقف، وأريه عرض كتفيّ بعدما فقدتا تكوّرهما. لو أنّني لا أنام مع ميشو لكان واثقاً بأنّني أنام معه، ما الفارق إذاً بالنسبة لهذه العلاقة المكسورة التي لن تُرمَّم. قل يا حسن. قل. ارفع صوتك بليز.

لم يرفع صوته. أعاد نطق جملته بهدوء ورويّة وأناقة: إذا بدّك تشتغلي عند اللوطي يعني خلصت بيناتنا.

– هي خلصت من زمان حسون. خلينا بس ننهيها باحترام. يعني رح قلك باي وقوم فل برواق.

– هيك؟

– ما راكبة. واضح إنّها مش راكبة. لازم كل واحد يشوف حياتو.

– متل ما بدّك سلمى.

– ومتل ما بدّك إنتِ كمان.

بالانكسار نفسه خرجت من شقته، كأنّنا انفصلنا لتوّنا. وكدت أبكي أيضاً. هو غبائي الذي لا يفارقني. أو ربّما لأنّ المشهد عاد فتكرّر، كأنّني وجدت نفسي في النقطة الصفر، بعدما ظننت أنّني ابتعدت عنها ما يكفي لأن لا أعود إليها. آخر نقطة صفر يا سلمى. وعد. آخر نقطة صفر.

الثلاثاء 9791

سأقدّم لك عرضاً لا يمكنك أن ترفضيه. وقع هذه العبارة بالإنكليزية أقوى وأحلى. هذا لا يمنع أنّ لديّ عرضاً. اسم إنّ، وخبرها. ركّزي معي، أرجوك.

بإمكانك البدء من الصفر يا صديقة. لا تخافي من الصفر، شريطة أن تقلعي عن أحلام اليقظة. أمضيت أكثر من عشر سنوات وأنت تحلمين بخلع الحجاب، وتخافين كوابيس خلعه. كلاهما، الحلم والكابوس منعاك من الفعل. لجأت إليهما كي لا تتجرّئي. أضعت فرصاً في الحياة لأنّك بدلاً من الاجتهاد، تحلمين. الأشياء في حلم اليقظة أسهل. فجأة تكونين ما تريدين. مسافرة على طائرة، ثمّ تعيشين في لندن، ورذاذ المطر وسيجارة ومعطف وكاظم الساهر. وتتابعين دراستك وتنالين شهادة دكتوراه وتحاضرين في الجامعة، وتتزوّجين دكتوراً مثلك، وتكون الحياة سهلة، وربّما تظلين شابّة إلى الأبد. تسمعين صوتاً في سيّارتك وبدلاً من أخذها إلى الميكانيكي تحلمين بأنّك بعتها واشتريت سيّارة جديدة. تكرهين الكنبة فتتخيّلين كنبة جديدة. لا تحبّين بطنك فتتخيّلين أنّك تركضين وتعرقين، وإذا بك

تشعرين بالاجهاد بعد هذه الرياضة الذهنية التي قد تصرفين وحدات حرارية أكثر في ممارسة رياضة الشطرنج.

احتمال أن تصابي خلال ممارسة الشطرنج أكبر من احتمال الإصابة في حلم يقظة. أقلعي عن الوصول من نقطة البداية إلى نقطة النهاية بحلم، لأنّ الحياة ليست كذلك يا فتاة. في الحياة عليك أن تبذلي جهداً، وعليك أن تتوقعي أنك ستخيبين مراراً، وأنّ ما تريدينه لن يتمّ كما تصوّرت، لكن اجهدي كي يكون أقرب إلى ما تريدين. أنزلي عن عاتقك ذنب أنك لم تحاولي بكلّ ما استطعت. حاولي.

أكتب لك هذا، وأنا في بيت ميشو. تذرّعت بخطبة ريما كي لا أكون في الضيعة خلال العيد. وقد كانت خطبة لذيذة. ازدحام بشري لطيف، أعمام وعمّات وأخوال وخالات من الطرفين أفطروا جميعاً وتعارفوا في ما بينهم. ريما ترتدي فستاناً بسيطاً، وتسدل شعرها، وتتنقل بين الجميع مضيفة واثقة الخطوة تمشي ملكة، وأنا أتسلى مع شقيقتها وزوجة أخيها، ووالدها رأسه في رأس والد أحمد. وحين استوى الرجال على مقاعد الصالون، ووقفت النساء، اعتدل أبو أحمد في جلوسه، وشدّ كتفيه، فاعتدل أبو سامي بدوره، واشرأبّت الأعناق كأنّ حدثاً جللاً سيقع، وقال أبو أحمد: «يا بو سامي، بيشرّفني إنّو جايي اليوم أطلب إيد ابنك أحمد لبنتي ريما»، فضجّ الجميع بالضحك على وقع دخان الأراكيل، واختلط الحابل بالنابل بعدما كسر التاجر الظريف رهبة اللحظة، وما عاد أحد سمع أحداً، لكنّ الرجال هبّوا يقبّلون بعضهم بعضاً ويقبّلون أحمد، والنساء يقبّلن بعضهنّ بعضاً وريما، ونلت أكبر عدد من الثلاث قبل وعقبى لك في حياتي، وقد سألتني كثيرات إن كنت أختها اسم الله، ودار العصير والجلاب بيننا ومشينا في طريق مقمر تثب الفرحة فيه قبلنا وضحكنا ضحك طفلين معاً وعدونا فسبقنا ظلنا، وذلك من فرط السكر والقطر اللذين

جريا في دمائنا. ووضع أحمد في بنصر ريما حبّة كبيرة من الماس البرّاق أعمت عيوننا جميعاً حتى اضطرّ بعضنا إلى وضع نظارات شمسية اتقاءً للأشعّة ما فوق البنفسجية التي خرجت منه ومن الإسوارة والعقد.

وبالعودة إلى الحياة، فقد بدأت أمس بالعمل في ميشاز. حاولت صدّ الإحراج الذي انتابني وهو يقول لنمر ومارو إنّني سأكون بعد شهر المانجر الجديد، وإنّ عليهما مساعدتي في تعلم كل تفصيل يتعلق بالمحلّ، وأن يسهبا في الإجابة عن استفساراتي. من حق نمر ومارو أن يعتبرا أنّ سبب وصولي إلى منصب مديرة دفعة واحدة هو أنّني صاحبة ميشو. ومن حقي أن أشعر بالغربة في المكان وفي الفكرة نفسها، بأنّني صاحبة ميشو وبأنّني سأعمل في ملهى ليلي. حتى إنّ المحلّ تحوّل في عيني إلى ما يشبه الوحش. كم كرسيّاً فيه وكم طاولة وكم كنبة. كيف تعمل آلة الإسبرسو. ما هي كلّ هذه القناني وأنواعها. كيف تُجلى الصحون والأكواب؟ ماذا في ثلّاجة المكان. والأصعب، كيف تشتغل آلة الكاشير. شاشة اللمس هذه، يجب أن أحفظها لأنّني بعد شهر سأقف معظم وقتي خلفها وسأتسلّم كلمة سرّها ومفتاح جارورها. أمضيت وقتي أمس أراقب وأستمع إلى شروحات ميشو الذي ارتدى وجهه جدّية مرعبة مع أنّ صوته بقي رقيقاً على عادته. تعلّمت صناعة الإسبرسو، وراقبت دورة العمل من الطلب إلى تسجيله إلى المحاسبة. بقيت حتى الثالثة في أول يوم في العيد، فصنعت بضعة فناجين قهوة، وحملت بيدين مرتجفتين صحنين إلى طاولة، ثمّ صحنين آخرين بيدين أقل ارتجافاً، إلى أن ارتخت أعصابي التي كانت مشدودة صباحاً، وساعدت ميشو في اختيار الموسيقى، واقترحت عليه الاستعانة بخبرة سامر لاحقاً.

اليوم جئت بعدما مشيت لساعتين على البحر. وبقيت في المحلّ وقتاً أطول، وراودتني أحلام اليقظة التي أخبرتك عنها قبل قليل، كأن أسافر. حلم اليقظة هذا، بالتحديد، هو الذي يخيفني، لأنّه في العادة مؤشر عميق وجذري إلى أنّني لست على ما يرام.

ابدئي من الصفر، وأثبتي نفسك. لقد أحرقت كلّ مراكبك يا امرأة. وجاك أنقذ روز من الغرق ومات، لن يعود من الموت لينقذها مرّة ثانية إذا وجدت تايتانك ثانية وقفزت من جديد إلى متنها، وضيّعت في الأوهام عمرها.

أول السبت 9795

ساقاي ليستا لي. أنا أكيدة من أنّ هاتين الساقين ليستا لي.

وقفت عليهما ما مجموعه عشر ساعات. هذه أشغال شاقة. إنّني في معتقل آخر مع أشغال شاقة. لكنّني أتسلى وأضحك وأتعلم الطبخ. وميشو لذيذ، وأنا أنام في بيته أكثر ممّا أنام في بيتي. ولا أحكي مع أمي إلّا في ما ندر، ولا رغبة لي البتة، البتة، في الذهاب إلى الضيعة.

الجمعة 9801

في ميشاز.

غادر لتوّه. لقد كسرت قلبه. كسرت قلبه. ما الذي كان بإمكاني؟ لقد أتى مكسوراً. لم يستعطفني حتى. لم تدمع عيناه. لم يقل إنّه يريد أن نرجع معاً. كان يحاول تخبئة كلّ ما في داخله فلم يجد ما يقوله. أمضى معظم الوقت صامتاً. لم يستطع وضع عينيه في عينيّ. ينظر للحظة ثمّ يلتفت حوله، كهارب خائف. كنت لطيفة، أجزم بأنّني كنت لطيفة، لكنّ حالته كانت أسوأ من أن تسامح لطفي.

أكذب إن قلت إنّني لم أشفق عليه. أشفقت عليه ووددت لو باستطاعتي أن أحضنه لأخفّف عنه. عرفت كم أحبّه. لأوّل مرّة أحبّه بلا حدود وبلا هواجس. ليس حبّاً، بل عطف من عمق قلبي. كأنّني أمه وقد جاء إليّ يشكو حبيبته التي لم يحصل عليها. لو أنّ صوتاً واحداً في عقلي قال لي عودي ولو موقتاً، ولو للانتقام والتشفّي، ولو لمساعدته في محنته، لفعلت. لكنّ أحداً لم يكلمني. كنت أظنّ أنّ جمرة ما مهما كانت ضئيلة وحقيرة تبقى مشتعلة تحت الرماد. لا شيء. ارتبكت أمامه لأنّه في هذه الحال من الضعف، وارتبكت أكثر لأن ليس لديّ ما أعطيه. وقد فهم من دون أن أقول. بيننا أكثر من

أربع سنوات. نقرأ وجهينا كما لو أنّهما مكتوبان. كم بقي؟ أقلّ من ساعة ربّما. نسيت كلّ الحكي الذي حكيناه. لأنّ وجهينا كانا يقولان كلاماً تافهاً، بينما حوارنا الذي يدور بصمت بين رأسينا كان واضحاً وصريحاً وعنيفاً. سمعته يقول تعي نرجع وسمعني أقول لأ. سمعته يقول بحبّك وسمع صمتي. سمعته كأنّما يريد أن يعتذر وسمعني أقبل اعتذاره بحياد من صارت الحكاية خلفه. سمعته يقول لي: هيدا أنا، وسمعني أقول مش ظابطة. سمعته يقول أنا مكسور وسمعني أقول متعاطفة معك، بس ما قادرة ساعدك. سمعته يتسوّل إليّ، وسمع تجاهلي لتسوّله. سمعته وسمعني. كان صوتانا أوضح من أيّ مرّة أخرى، مع أنّ أحداً منّا لم يقل كلمة من كلّ هذا.

حككنا في رأسينا كثيراً، في فترات الصمت الطويلة التي راحت وجاءت بينه وبيني وفي الأسئلة التي بلا معنى عن عملي وعمله وريما وشيرين. حتّى مرحنا لم نستطِعه. إنّه حزين. هل يرضي غروري أنّني سبب كلّ هذا الحزن؟ لا. هل كان عليّ أن أعرض عليه مساعدته؟ عيب! كنت أنتظر منه أن يغادر. فقط أن يغادر، من أجله لا من أجلي. سينساني لاحقاً، وسيندم لأنّه أتى. سينساني لكنّه قد لا ينسى هذه الساعة. ستُحفر على جدار روحه كما حفرت على جدار روحي.

قد أنسى ابتسامته المكسورة على وجهه. قد أنسى حزنه. قد أنساه يقف ويمدّ يده صوبي ليصافحني، ويتركها ليقول جملته الأخيرة، خالية من أيّ دراما: «كنت بس حابب شوفك. ما عم بقدر نام».

«يلّا باي»، قال، وابتسم حين أجبته: انتبه على حالك.

ماذا كان عليّ أن أقول؟

الأحد 9810

في البيت.

الصمت. هذا ما يؤلمني حين أكون في البيت وحدي. الصمت الساحق، على الجدران، على البرّاد والحنفيات والأبواب والصوفا والبلاط والسرير. الصمت الذي يعيدني وحيدة ويذكّرني بحسن. الصمت القاتل.

الثلاثاء 9812

في البيت.

كنت قد عاهدت نفسي بأنّني لن أكتب حتى يوم عيد ميلادي، لكن يجب أن أدوّن هذا اليوم، للذكرى.

تركت ميشال وتركت عملي في ميشاز. ليس هذا ما أريده.

الخميس 9814

في البيت.

ماذا أفعل؟

السبت 9816

في البيت.

الثلاثاء 9819

في البيت.

الجمعة 9822

في البيت.

الخميس 9828

في البيت.

الأحد 9831

في البيت.

أختنق. سأتوقف. هذا آخر سطر أكتبه. يجب أن... لا، ليس قبل أن تدوّني قصّة ميشال. لماذا أدوّنها؟ لا شيء فيها. قلت له إنّني لا أجد نفسي معه، ولا أجد نفسي في ميشاز. لم أقل له إنّني أهرب منه. إنّني أهرب فحسب. أهرب من أهلي ومن حبيبي السابق وحبيبي الحالي ومن عملي السابق ومن عملي الحالي ومن حياتي. أهرب من نفسي. إلى أين تهربين؟ لا أعرف. فقط أهرب.

أهرب من وحدتي إلى وحدتي. ميشاز صار معتقلاً، وميشال كذلك. صارا عالقين في ذهني كمرض. لا. أنا لا أحبّ ميشال، ولن أحبّه. لن أبقى إذاً. إن كنت لا أتذكّر طعم قبلته وابتسامته في أيّامنا الأولى، فكيف ستكون حالنا لاحقاً؟ كيف ستكون حالي أنا على الأقلّ؟ أعلم أنّني بتّ حادّة وخياراتي متطرّفة لا حلول وسطى فيها. أين الخطأ في هذا؟ ربّما لأنّك تغلقين صفحات حياتك السابقة كلها، واحدة بعد أخرى، لكنك واقفة مكانك. تتركين فجوات عميقة في ذاكرة حياتك. لا تملئينها ببديل، ولا تكملين إلى الأمام. أعرف هذا. لكنّني

ألحق قلبي. حين قال لي شيلي حجابك شلته. حين قال لي استقيلي استقلت. حين قال لي إيّاك أن تضعفي أمام حسن لم أضعف. وهو من أخبرني أن ميشال ليس لي.

لكنّك كسرت قلبه هو أيضاً. هل حقاً كسرت قلبه؟ لست أكيدة. ربّما سبقته في اتخاذ القرار وربّما كان ينتظر أن تأتي منّي. أعني، لم يناقشني حتّى. لم يحاول. استمع إليّ بهدوء، ثمّ قال: خسارة! وحضنني كأنّه يودّعني، وقال إنّه سيبقى صديقي ووافقته بشدة. لكنّني حقاً لم أتبيّن حقيقة ما يحسّ. جعلني عالقة في أفكاري. أيظنّ أنّه لا يستحقني أم العكس؟ هل أثقلت عليه حياته، أم العكس؟ هل كان يعرف أنّني سأهرب في نهاية المطاف؟ هل كان يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي وكان يترقب النهاية التي سأضعها لعلاقتنا؟ إنّني ألوك هذه الأسئلة في الأيّام الماضية ولا جرأة لديّ على أن أواجهه أو أواجه نفسي بها. لماذا انفصلت عنه؟ لقد صرت فجأة شبه زوجته. أنام في سريره وألملم أغراضه عن الأرض ويلملم أغراضي وأجلي صحوننا. وأعمل معه طوال النهار. باقٍ لنا أن نؤثث غرفة غارقة بالزهري لابنتنا التي سأحمل بها بعد تخطيط. قفزت فجأة عن أكثر من عقد من حياتي وصرت، مثله، في الأربعين. ليس هذا ما أريده من حياتي. قبل قليل سلخت عنّي حجابي وأهلي وشحومي الزائدة وحسن. تحتاج الدودة إلى شرنقة ووقت كي تصير فراشة. أنت استعجلت الخروج من وحدتك. الأيّام الماضية أثبتت لك هذا. أنت الآن بحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى أن تكوني وحيدة كي تفهمي. كي تنضجي على مهل. كي تصيري فراشة أو تصيري السمكة التي تحلمينها. باقٍ الكثير من الشوائب في نفسك، وباقٍ الكثير من حياتك. لا. لم تخطئي. كفّي عن تردّدك وعن لوم نفسك. كفّي. من بقي لكِ؟ بقيت لنفسك، تكفيك. سآخذها من يدها ونمشي، وحيدتين كما في كلّ مرّة، ونفكر

بأنّ أشياء جميلة ستحدث لنا. لا. ليست أحلام يقظة هذه المرّة. إنّه حلم بسيط. سأنزل حياتي عن كتفي وأمشي بها وتمشي بي. لا أريدها كيساً من الحصى. لا أريد التفكير بيوم غد، ولا بالأمس، ولن أخاف.

كم هذا مملّ يا سلمى. لكنّني لا أريد أن أتوقف عن كتابة يومياتي. عليكِ أن تتوقفي. ماذا لو أنّني أهرب مجدّداً حتى من آخر ما يسليني؟ فليكن هروباً بدوره. إلى أين تهربين؟ لا أعرف.

أعرف أنّني سأقلع عن هذه الكتابة، وأحاول أن أعيش.

الثلاثاء 9862

سلمى! كيفك؟ اشتقت لك.

هذه أنا، أناك الآتية في المستقبل. هكذا كنت تسمّينني أليس كذلك؟ حسناً، ها أنا أتيت. مرّ شهر لم تكتبي فيه ولو كلمة واحدة. يبدو أنّك يئست. فتحت عينيّ صباحاً وبدأت أقرأ. هذه أول مرّة أقرأ اليوميات دفعة واحدة. دمعت عيناي مراراً، وأحببتك مراراً، وأشفقت عليك كثيراً. أشفقت عليك لأنك فعلت كلّ ما فعلت من أجلك وأجلي، ومع ذلك بقيت كئيبة وسوداوية. أنت أنقذت ما بقي من حياتك، أي حياتي. أنقذتها من رمادها. كانت مدفونة، وقد مددت يدك اليسرى وانتشلتِها كما لو أنّ حياتك وُلدت على يدك. شكراً لك.

ولأنّني أحبّك، ولأنّه عيد ميلادنا، أهديت لك الجمعة الفائت أسماكك الصغيرة. رسمتها وشوماً صغيرة وكبيرة على طول ذراعك اليسرى. أسماكنا باتت تحيط بقصيدتك التي من سطر واحد. اليد اليسرى ترسم أسماكاً أجمل. لم أكتبها كلها. كتبت فقط: ترسم أسماكاً أجمل. لم أتألم كما ظننت أنّني سأتألم بينما طه يعمل بإبرته على الوشوم. كان وخزاً رقيقاً استسغته. حين عدت إلى البيت وقفت

أمام المرآة عارية، وقد وجدتني بشعري الصبياني القصير الأسود، وأسماكي التي تسبح على جسدي، وقصيدتي التي أقرأها بالمقلوب على المرآة، وجدتني حلوة. وجدتني هادئة. وجدتني أبتسم بسعادة. وجدتني أنا كما كنت أسعى لأن أكون.

أنا سعيدة يا سلمى، وأحبّك. لن أعود إلى المعتقل. يمكنني بما بقي معي من مال أن أصمد لشهرين في بيروت. بعدها لست أدري. قد أعود إلى الضيعة. وقد لا أعود. لا أعرف الآن لكنّني لست خائفة. ريما مصرّة على أن نفتح مشروعاً مشتركاً. أحمد مستعدّ لتمويلنا، تقول. فكّرنا بمحلّ صغير على غرار ميشاز، في بدارو. قالت نسمّيه ريما وسلمى أو سلمى وريما. نفتحه من الصباح حتى الليل. نصنع فيه أكلاً بيتياً... طبق يومي وخلافه من هذه الخزعبلات الدارجة في بيروت منذ فترة. فكرت فيه. نطليه بالأبيض الفاقع وتكون طاولاته وكراسيّه وشبابيكه زرقاء. تغريني الفكرة، لكنّني لست واثقة.

ذهبت إلى ميشاز مراراً وجلست مع ميشال. كم أحبّه. تعرفين. إنّنا نتحوّل إلى صديقين حقيقيين. نمضي وقتاً لطيفاً معاً، وأحكي له كثيراً ويحكي لي أكثر. وغالباً ما أحسّ أنّ بإمكاني الاستناد إليه. أرتاح حين أحكي معه. أرتاح له. يكفي هذا ليكون صديقاً.

ماذا أيضاً؟ آه طبعاً. السبت ذهبت وريما إلى مطعم وشاطئ في البترون لنتغدّى ونسبح. كنت سعيدة بالمايوه الأزرق. هذه كانت مرّتي الأولى بمايوه قطعتين. كنت جالسة إلى الطاولة آكل وأشرب عرقاً بارداً وبدت الحياة لذيذة حقاً. نزل بعضهم إلى البحر وبقيت مع واحدة وواحد واقفين بالقرب منّي يتغازلان. وصل صديق

أحمد متأخراً، وسلّم على الاثنين الواقفين. توقعت أن يقترب منّي ليصافحني ويعرّفني عن نفسه، فمشى صوبي وقال: بتوقفي شوي.

لم أفهم، لكنّني وقفت بينما قلبي يتوجّس شرّاً. ليس هذا ما أريده اليوم. قال: إيه. هلأ زيحي هاي الكرسي، احملي الطاولة معي. إيه حطيها. هلأ ظبطت. بدأ جفني يرفّ بينما أوافق على ما يطلبه منّي بصمت. لا أدري ما الذي فعله بالطاولة والكراسي بالضبط حتى صار الوضع أفضل لأنّ شيئاً لم يتغيّر. من بين كل الكراسي الخالية جلس في الكرسي لصقي وقال:

– شو إسمي؟

آه! إنّه الشخصية المرحة التي تمضي وقتها تضحك وتقفز على الشاطئ في فيلم أبي فوق الشجرة. سأحجّمه. سألته:

– ناسي اسمك يعني؟

– لا هيك العلاقة بيناتنا رايحة على آفاق مسدودة!

– أوف! طيب شو إسمك خبرني.

– يوسف طبعاً. إنو كان عندهم خيار تاني؟

– مين؟ أهلك؟

– إيه أهلي.

– وليه ما كان عندهم خيارات تانية غير يوسف؟ مش إنو هل إسم...

– مع جمالي؟ ما في اسم تاني غير يوسف.

– يه!

– بس إنتي بالمقابل جمالك ممنهج؟

– جمالك ممنهج؟ إنو جد إنت عم تَحدُث قدامي؟

– حبّيت عم تحدث. إيه أنا عم أحدث وإنتي جمالك فعلاً ممنهج. بروباغاندا.

صرت أضحك.

– ما رح تصبّيلي عرق؟ قال وهو يتناول صحن السردين ويسكب معظمه في صحن وجده نظيفاً أمامه.

– لا ما رح صب لك عرق.

– ولو!

ضحكت مجدّداً. هذا المخلوق لم يحدث معي من قبل فعلاً. ظلّ فاتحاً عينيه فيّ مستغرباً رفضي، ثمّ تحرك ليصبّ لنفسه، ولي، كأسين صغيرتين.

ناولني كأسي: يلّا بصحّة لبنان! شطو أجمل مجرور بالعالم.

– شو بنا يا زلمي. كنت ناوية إنزل اسبح!

– بهيدا المجرور؟ مستحيل. مستحيل. مستحيل. مستحيل. مستحيل...

– طيب خلص فهمنا. مطول كتير بهل مستحيل؟

– لا خلص خلصو. هلّأ بعد ما نشرب عرق مننزل نسبح شي 34 دقيقة. البحر حلو كتير اليوم. ليكي. برأيك السردين مش أهم اختراع بالبشرية بعد مكيّف السيّارة؟

لم أجب بالطبع، لأنّني بعدما نظرت إليه يحدّق فيّ منتظراً جوابي، ضحكت.

حسناً، أمضيت ما بقي من الوقت معه، أضحكه ويضحكني. وأحسست بأنّني فعلاً أعرفه منذ وقت بعيد، هذا الدكتور، ما شاء الله، في القانون الدولي. لديّ إحساس ما تجاه يوسف هذا، وقد يكون صحيحاً. لكنّني لست مستعجلة.

خاف من النزول إلى الماء. خدعني حين قال إنّه سيسبح. أنا نزلت.

كنت أريد فقط أن أعوم على ظهري. حاولت وعجزت. صرت أغطس في مكاني تحت الماء. وأبقى ما تحمّلت رئتاي، حتى إذا شعرت بأنّهما ستنفجران، خرجت بسرعة وشهقت ما استطعت من هواء. كطفلة لعبت لعبتي واستمتعت. سمعت صوت البحر، وصوت قلبي، وسبحت أسماكي الصغيرة الموشومة على يدي. وكان هذا كافياً. كنت أبحث عن شعور المرّة الأولى، وقد وجدته. لم أخسر طفولتي بعد. لم أخسر المرّات الأولى. يمكنني إذاً تعويض ما فات من حياتي. يمكنني. وقلبي يقول لي إنّ حياتنا الآن أحلى. سامحيني إن كنت أصل في تفاؤلي حدّ البلاهة، لكنّني أمضي أيّاماً مرحة ورخوة.

شكراً يا سلمى على كلّ ما كتبتِه لي من قبل. سأظلّ أقرأه، ولن أدعك تنفذين وعدك بالإقلاع عن الكتابة. أحبّ يا صديقتي كيف نثرثر معاً. سأخرج الآن، لكنّنا سنبقى على تواصل، أعدك. سأظلّ أكتب لك، كما كنت تكتبين لي، وكما ستعودين لتكتبي لي. سأخبرك وستخبرينني. ونحكي. وهي أيّام، يا سليمى، كتبت علينا لنقضيها.

شكراً

منال أبو عبس، بشير عزّام، سمر عبد الجابر، أحمد الأمين،
عماد الدين رائف، رنا حايك، إيلي الفرزلي، فؤاد هاشم، جاد نصر الله،
هلال شومان، أحمد محسن، محمد قبيسي، علي علوش، ورفاق يوم الإثنين.
وشكراً لصديقتين غاليتين ساعدتاني كثيراً.

المحجّبة — أنا أنتظر. حياتي مرتّبة تماماً، كبيتٍ لا يعيش فيه أحد. أنتظر الليل كي أنام وأنتظر الصباح كي أذهب إلى المعتقل. أنتظر الساعة الخامسة حتّى أقوم عن مكتبي، ثمّ أعود فأنتظر الليل، فالصباح. أنتظر فرصة عمل أخرى. أنتظر نهاية الأسبوع كي أذهب إلى الضيعة وأنتظر مساء الأحد كي أعود منها. أنتظر حسن كي يقرّر ما يشاء من علاقتنا وأنتظره كي ينفصل عنّي ويختفي. أنتظر رجلاً جديداً لأبدأ علاقة جديدة. أنتظر في السيّارة. أنتظر في الحياة. أنتظر سرطان الثدي كي أستأصل ثديي وأنتظر سرطان الرحم كي أستأصل رحمي. أنتظر مرور الأيّام كي أستأصل عمري. إنّني أنتظر. ما دمت هنا، فالحياة آمنة، ولا قلق فيها. لا شيء سيحدث في قاعة الانتظار، وها أنا أنتظر. في القاعة شاشة تعرض فيلماً عن حياتي. أراني في الفيلم جالسة في قاعة انتظار أتفرّج على فيلم يعرض قصّة حياتي. أراني فيه جالسة في قاعة انتظار أتفرّج على فيلم عن قصّة حياتي...

إنّني، في الأفلام المتداخلة إلى ما لا نهاية، أدرك كم هو مملّ هذا الفيلم. مع ذلك نبقى كلّنا حيث نحن. نتكرّر في الانتظار. لا نريد أن نخاف وأن نقلق. سنبقى هنا، جالسات في مقاعدنا، نتفرّج على تكرارنا في المرآة. ليس في الخارج ما يستحقّ قلقنا. قد يكون هذا أفضل ما سيحصل لنا في الحياة، لماذا نغامر؟ لماذا أغامر؟ سأبقى هنا.

أفضل ما يحدث في الحياة هو ألّا تحدث، تقول المنتظرات.



جهاد بزّي — كاتب وصحافي لبناني يعيش في الولايات المتحدة الأميركية. كتب في صحيفتي «المدن» الإلكترونية و«السفير» ودوريّات ثقافية متعدّدة. صدرت له «ملك اللوتو» (2011) التي تشارك في كتابتها مع الكاتب اللبناني بشير عزّام.

ISBN 978-614-469-095-6

9 786144 690956

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان